شوكة الأطباء

محنة الكادر الطبي في ثورة البحرين

صحيفة إلكترونية مستقلة تعنى بالشأن البحريني
© جميع الحقوق محفوظة لصحيفة مرآة البحرين
الطبعة الأولى، بيروت، 2013 ISBN 978-9953-0-2652-7
www.bhmirror.no-ip.org | www.bahrainmirror.com
editor@bahrainmirror.com | info@bahrainmirror.com
يصدر عن «أوان ذاكرة اللؤلؤة» وهو مشروع توثيقي إلكتروني يهدف إلى حفظ تراث ذاكرة ثورة 14 فبراير من آفات النسيان والانتقائية.

الغلاف: من رسائل السجن المسربة من د.غسان ضيف لابنه يوسف (9سنوات)

شوكة الأطباء
محنة الكادر الطبي في ثورة البحرين

أول عمل توثيقي يقدّم باللغتين (العربية والإنكليزية) سيناريو الأحداث الدامية التي عايشها الكادر الطبي منذ لحظة بدء ثورة البحرين في 14 فبراير 2011، ويوثق مجموعة من سير الانتهاكات والتعذيب التي تعرض لها الكادر داخل سجون البحرين بسبب معالجتهم للمحتجين وفق مبدأ الحياد الطبي الذي أخلت به السلطة.يُعدّ مرجعا مهماً للمهتمين بأخلاقيات مهنة الطّب في الأزمات.

«محتويات الكتاب»

» **شوكة الاطباء** 11 - 53
» أصعب ما في حلق السلطة

» **علي العكري** 55 - 78
» في تجربة الأصعب: غزة، 14 فبراير، السجن

» **رولى الصفار** 81 - 112
» كل شيء أبيض: قلبي، ثوبي، شعري

» **ابراهيم الدمستاني** 115 - 141
» مكسور الظهر مرفوع الهامة

» **غسان ضيف وزهرة السماك** 143 - 177
» من القفص الذهبي إلى قفص الجلاد

» **باسم ضيف** 179 - 210
» داخل القَسَم الطبي حتى آخر قطرة سجن

» **نبيل تمام** 213 - 222
» الخروج على تجربة العتمة

» **ملاحق** 225 - 244
» أهم الأحداث المتعلقة بقضية الكادر الطبي
» الأحكام الصادرة ضدّ الكادر الطبي

»

قسم الطبيب

دفع الأطباء البحرينيون، ثمن التزامهم بقسمهم الطبي، وجدوا أنفسهم لأول مرة أمام امتحان قاس تجاه ضمائرهم التي أقسمت «سأمارس مهنتي بضمير ونبالة، صحة مريضي ستكون لها الاعتبار الأول «.
هل يعتذر الطبيب للقيادة السياسية، حين يعالج من يخرج عليها؟

الطبيب لا يمكن أن يعتذر لأية سلطة سياسية تهز قسمه أو تهزأ به، فقسمه فوق كل سلطة سياسية، الولاء للقسم الطبي فوق الولاء للنظام السياسي، فالقسم لا يفصّل الإنسان، والنظام السياسي يفصل الإنسان في دول وجماعات وطبقات وأحزاب وانتماءات وأكثرية وأقلية وطوائف وموالاة ومعارضة.

القسم الطبي هو وثيقة موجهة ضد كل هذه الأشكال من التقسم، قسم الطبيب نظم في إعلان جنيف عام 1948 من قبل الرابطة الطبية العالمية، ويبدو أنه جاء كرد على الاعمال الفظيعة من قبل الاطباء في ألمانيا النازية. فالأنظمة الشمولية كالنظام النازي، تقسم الإنسان على أساس عرقه، وتُخضع الأطباء إلى هذا الأساس، تستخدمهم لتحقيق تقسيمها الذي يمنح الحياة لأناس دون أناس بحسب العرق الذي يُختم وجودهم عليه.

تُمتحن السلطة السياسة ونظامها بالأطباء، ولا يُمتحن الأطباء بالسلطة السياسية ونظامها، فالطبيب بقسمه الطبي دليل على الإنسانية، وتحقق السلطة السياسية مصداقيتها الإنسانية بقدر ما يمنحهم هذا الدليل (الطبيب) من دلالة، من هنا فالتحقيق مع الأطباء هو دليل على افتقاد السلطة للإنسانية، ولن يجدي السلطة أن تختلق موضوعات تستر بها تحقيقاتها البوليسية مع الأطباء تتعلق بمهمتهم الإنسانية، لجان التحيق ستكون وصمة عار في تاريخ الممارسة الطبية بالبحرين.

قسم الطبيب يمنح الإنسان الحق في الحياة على أي شكل سياسي كانت هذه الحياة، واستبداد السلطة يمنح الإنسان الحياة على شكل واحد، هو شكل الموالاة المتطابقة معه. ليس من حق أحد الحياة بكرامة، إلا من تكون كرامته مستمدة من مكارم السلطة نفسها .

هل كان الطبيب علي العكري يفحص هويات المصابين كما فعلت العساكر المتمركزة في مستشفى السلمانية محيلة بين الأطباء وبين قسمهم، أتخيله حين داهمته قوات الأمن في غرفة عملياته كان متشبثا بمريضه مرددا قسمه «سامارس مهنتي بضمير ونبالة، صحة مريضي ستكون لها الاعتبار الأول «.

بالقَسَم يدخل الطبيب المهنة، وبدونه يصبح خارجها. يحاسب الطبيب بقدر ما يفرّغ هذا القَسَم من محتواه، ويكافأ بقدر ما يجعله حيّاً نابضاً فيه، هذا ما اختاره باسم ضيف «كان هذا القَسَم هو اختيارنا، حين قرر آخرون اختيار شيء آخر».

كان جزاء غسان ضيف طبيب الأسنان بالتزامه بنص القسم «لن أدع اعتبارات الدين أو الجنسية أو العرق أو التوجة السياسي أو المكانة الاجتماعية أو السن أو المرض أو الإعاقة أو الجنس أو أي أمر آخر تتدخل بين تأدية واجبي ومريضي» كان جزاؤه أن يتهم بأنه سرق كلية من بطن مريضة سنية. ولم يكن جزاء التزام زوجته الطبيبة زهرة السماك بقسمها الطبي غير أن تحرم من أبنائها في الوقت الذي حرموا فيه من أبيهم.
يختتم أبقراط قسمه الطبي بقوله «وما دمت مبقياً على هذا العهد فلأستمتع بالحياة، ولأمارس مهنتي بين الناس، فان نكثت هذا الميثاق فليكن نقيض ذلك من نصيبي « لقد كان نصيب أطبائنا ألا يستمتعوا بالحياة وأن لا يمارسوا مهنتهم بين الناس، ليس لأنهم نكثوا بميثاقهم الطبي، بل لأن السلطة نكثت ميثاقها الإنساني فنكلت بهم، عقاباً على التزامهم بميثاقهم.

هل قام الجيش بغزوته لمستشفى السلمانية لأن أطباءه كانوا يصرون على أن يجسدوا قسمهم الذي يقول « سأحافظ على أقصى احترام لحياة الإنسان في وقت العمل، ولن استخدم معرفتي الطبية في مخالفة القوانين الإنسانية حتى تحت التهديد « .

ستكون الأعمال الفظة التي قامت بها قوات الأمن والجيش ضد التزام الأطباء بقسمهم وميثاقهم، تاريخاً من تواريخ العار.

خلفيات لا بد منها..

خلفية (1)

استغرق العمل على هذا الكتاب مراحل متقطّعة، بدأت منذ شهر إبريل 2011، كان حينها الأطباء ما يزالون في محنة السجن والتعذيب المنهج غير الإنساني، وقانون السلامة الوطنية (الطوارئ) يخيم بأجوائه المخيفة على المواطنين.

كان ملف الطاقم الطبي:أخطر ما في حلق السلطة (شوكة الأطباء) الذي نشر في مرآة البحرين باللغتين العربية والإنجليزية، أول عمل توثيقي يقدّم سيناريو الأحداث الدامية والمؤلمة التي عايشها الكادر الطبي إبان الأحداث منذ 14 فبراير وحتى 16 مارس، في الوقت الذي تحوّل فيه الكلام إلى جريمة كبرى، والاعتقالات والانتهاكات البشعة صارت هي لغة السلطة الوحيدة. كان من الصعوبة بمكان أن نجد من يقبل الالتقاء بنا والتصريح لنا دون خوف، فضلاً عن أن يصرّح باسمه للقراء، لهذا قد يتفاجأ القارئ أنه لا وجود لأسماء مذكورة في الفصل الأول (شوكة الأطباء). كذلك بعض الأطباء الذين كان قد أفرج عنهم حينها ممن أُدرجوا لاحقاً ضمن قضايا الجنح، امتنعوا عن التصريح لنا، فلا أحد كان يعرف إلى أين ستسير دفّة الانتقام والتطهير البشع.

بعد سلسلة الإفراجات عن متهمي الكادر الطبي في قضايا الجنايات، حاولت (مرآة البحرين) استكمال الملف والالتقاء ببعضهم لتوثيق سير الانتهاكات التي تعرضوا لها داخل المعتقل، لكن التحفظ كان قوياً. كان هناك حذر عام من أي تصريح قد يستفز السلطة من جديد، خصوصاً أن المحاكمات العسكرية ما تزال حينها وعيداً يتهدّد الجميع. الجميع آثر الصمت والترقب. توقف الملف.

في 29 سبتمبر 2011 صدر الحكم العسكري التعسفي على 20 من الكادر الطبي، حكم على 13 منهم بالسجن لمدة 15 عاماً، و5 سنوات لـ5 آخرين، بعد تصاعد ردود الفعل العالمية المستنكرة للأحكام التعسفية غير المسبوقة في العالم، بدأ بعض أفراد الكادر الطبي بالكلام عما تعرضوا له في الإعلام الغربي، وكسروا حاجز الصمت، لكنهم أيضاً أبقوا جانبا من التحفظ على ما يخص عرض تجاربهم كاملة.

في 14 يونيو 2012، أصدرت محكمة الاستئناف حكمها بإدانة 9 من الكادر الطبي وتبرئة 9 وتأييد الحكم على 2. عندها لم يعد هناك ما يُخشى قوله، وقضية الكادر الطبي لم يعد عليها غطاء. (مرآة البحرين) قررت إعادة فتح ملف شوكة الأطباء مرة أخرى، واستكماله بكتابة تجارب الاعتقال والسجن.

خلفية (2)..

كان من غير الممكن عرض جميع التجارب لـ51 من أفراد الكادر الطبي الذين قضوا في السجون، لم يكن سهلاً التنسيق لجلسات متتالية ومطولة كتلك التي احتجنا إليها مع من قدّمنا تجاربهم في هذا الكتاب، كان ذلك صعباً في ظل انشغالاتهم وشح الكادر الذي يعمل في (مرآة البحرين) وفي ظل الوقت المكتظ الذي عملنا فيه لإخراج هذا الكتاب إلى الضوء، كما وجدنا أن التجارب تتشابه كثيراً في التفاصيل وإن اختلفت في الوجوه والأسماء، لهذا اكتفينا بتوثيق بعض تجارب معتقلي الكادر الطبي فقط، لا كل التجارب، فليعذرنا من قصرنا بعدم توثيق تجاربهم، التي هي حقّ تاريخي لهم، وواجب وطني علينا، ربما نتمكن منها في مشروع آخر مشابه.

خلفية (3)..

عملت على هذا الكتاب مجموعة من الأقلام المعروفة وغير المعلنة، تطوّعت من أجل لملمة جراح وطنها وإنسان وطنها بطريقتها التي تتقنها جيداً: الكتابة. عملت بجهد ومشقة دون مقابل مادي، ودون أن تضع اسمها ليعرفها الناس، ودون أن تطلب كلمة شكر أو تقدير من أحد، لكن من أجل قضيتها الإنسانية والوطنية التي تؤمن بها فقط.

شوكة الأطباء
أصعب ما في حلق السلطة

«كان الأطباء، السمكة التي أرادت السلطة أن تبلع بها حقيقة ضحاياها، فابتلعتها سريعاً في قضمة واحدة، ونست أن الشوكة أخطر ما في السمكة» مراقب

لماذا الأطباء والكادر الطبي أكثر من غيرهم؟ ما الخطر الذي يمثله وجود هؤلاء على السلطة؟ كيف سار سيناريو الأحداث في مستشفى السلمانية الطبي منذ 14 فبراير حتى الآن؟ وكيف عاش الكادر الطبي الأوقات العصيبة وغير الاعتيادية التي فاجأته بشكل لم يكن مهيئاً لها؟ وكيف تطورت الأحداث المتلاحقة خارج المستشفى، وما تأثيرها على الداخل؟ وما الذي عايشه الأطباء من إذلال وتنكيل داخل مستشفى السلمانية والمراكز الصحية المختلفة، وداخل زنازين السلطة؟

كل هذه التساؤلات، سيحاول هذا التقرير الدخول في تفاصيلها على شكل حلقات. مصادرنا هي شهادات من عناصر الكادر الطبي الذين لن نتمكن من ذكر أسمائهم، والحوادث الموثقة والبيانات، بالإضافة إلى إفادات الأطباء والشهود المدونة في محاضر الأمن التي حصلنا عليها بشكل خاص.

البداية

البداية كانت في 14 فبراير. اليوم الأول لبدء الاحتجاجات التي تحمل شعار «الشعب يريد إصلاح النظام» رجال الأمن يقمعون الاحتجاجات السلمية التي خرجت في مناطق متفرقة من البحرين. مستشفى السلمانية تصله عدد من الحالات والإصابات والاختناقات بالغازات المسيلة للدموع، قبل أن تصل حالة الوفاة الأولى، إنه علي مشيمع (21 سنة) أول ضحية في الأحداث. ما يقارب من الـ 50 متجمهراً من أقارب مشيمع توافدوا فوراً إلى المستشفى. تزايد العدد بعد ساعات ليصير 800 حسب إفادة الرئيس التنفيذي للمستشفيات وليد المانع، في ملفات التحقيق، لم تتمكن إدارة المستشفى من إخراجهم، قوات الأمن العام وصلت المستشفى مبكراً، لكنها لم تتمكن من السيطرة على الجماهير الغاضبة، المتجمهرون دخلوا غرفة الإنعاش حيث جثة مشيمع. الإعلام الخارجي كان هناك، دخل غرفة الإنعاش والتقط صور جثة مشيمع. وحسب إفادة وليد المانع، فإنه عند إخبار الوكيل المساعد لشؤون المستشفيات الدكتور أمين الساعاتي، أجاب أنه لا يستطيع القيام بشيء. تم نقل الجثة إلى المشرحة. الفوضى لا تزال قائمة في المستشفى حتى حضر نائبان من جمعية الوفاق، استطاعا السيطرة على المتجمهرين، غادر المتجمهرون الساعة الواحدة صباحاً. الأمن أيضاً وصلهم الأمر بالإنسحاب، انسحب الجميع.

«الأطباء المتهمون لم يكونوا حاضرين هذا المقطع من الحدث، إدارة مستشفى السلمانية وحدها كانت من يدير الوضع هناك، لم تتمكن الإدارة من السيطرة على هذا العدد القليل نسبياً من

المتجمهرين الغاضبين، رغم أن خطة الطوارئ كانت قد وضعت قبل هذا الحادث بأيام، وذلك إثر الاعلان عن تاريخ بدء الاحتجاجات الشعبية في شبكات التواصل الاجتماعي» تقول إحدى الطبيبات.

في إفادته التي أدلى بها إلى النيابة، يؤكد المانع أن الوزير السابق فيصل الحمر وجه إلى اجتماع للاستعداد لإدارة الأزمات من باب احترازي، ترأسه الوكيل الساعاتي، وتم فيه توزيع المهام على المسؤولين في المستشفى للقيام بالإجراءات اللازمة. لكن منذ اليوم الأول، فشلت تلك الإدارة في (إدارة) الأزمة الاحترازية.

صباح 15 فبراير

صباح 15 فبراير تشييع القتيل الأول. تجمهر المشيعون عند مستشفى السلمانية منذ الصباح الباكر، الأمن أيضاً. الأمن يقوم بضرب المتجمهرين بمسيلات الدموع والرصاص المطاطي. الجنازة تخرج من السلمانية إلى منطقة البلاد القديم ثم تنعطف يمين منطقة جدحفص وتنتهي عند مقبرة السنابس. لكن حدثاً آخر يجعلها لا تنتهي «كنا في الجنازة عندما سمعنا بسقوط القتيل الثاني» يقول أحد المشاركين. إنه فاضل المتروك (32 سنة) سقط أثناء خروجه للمشاركة في تشييع الأول. التجمهر يعود إلى مستشفى السلمانية في عدد أكبر. الغضب يتصاعد، الهتاف يحتد: «الشعب يريد إسقاط النظام».

ظهراً، يخرج الملك على شاشة التلفزيون، يعرب عن أسفه للحدث الذي وقع: «على ضوء ما جرى من حوادث متفرقة يوم أمس واليوم وكانت هناك للأسف وفاة لاثنين من أبنائنا الأعزاء، وعليه نتقدم بتعازينا الحارة لذويهما وأن يلهمهم العلي القدير الصبر والسكينة والسلوان. كما ليعلم الجميع بأننا قد كلفنا سعادة الأخ جواد بن سالم العريض نائب رئيس مجلس الوزراء بتشكيل لجنة خاصة لمعرفة الأسباب التي أدت إلى تلك الأحداث المؤسفة التي جرت».

يتم تشييع المتروك بتاريخ 16 فبراير دون تدخل رجال الأمن، وذلك في اليوم الثاني من الوصول للدوار الذي كان خالياً أيضاً من رجال الأمن . وهذا ما أتاح لعشرات الآلاف أن تتوافد حاملة غضبها إلى دوار اللؤلؤة. في مساء 15 فبراير بدأ نصب الخيم والتمهيد لاعتصام أعلن أنه يمتد حتى تحقيق المطالب.

خيمة الأطباء

الحضور الرسمي للأطباء بدأ من هنا. المقدمات السابقة، جعلت عدداً من الأطباء يتفقون على

أهمية وجود خيمة طبية في مكان الاعتصام، تحسباً لأي طارئ أو حادث غير متوقع.

تم نصب خيمتين طبيتين، تم تجهيزهما بمواد أولية، الطبيب علي العكري تجري محاكمته الآن بتهمة سرقة مواد طبية للخيمة. لكن وثيقة تم تسريبها تقول غير ذلك، وفيها طلب رسمي قدمه عبد الحي العوضي رئيس بمجمع السلمانية الطبي، إلى وليد المانع الإداري التنفيذي، أن يوفر مواد وأجهزة صحية للعيادة في دوار اللؤلؤة، وذلك بناء على طلب من الدكتور علي العكري. هكذا تقول الوثيقة الرسمية التي نشرتها «مرآة البحرين» قبل أسابيع. هناك أطباء، أحضروا معدات من عياداتهم الخاصة، ووضعوها في الخيمة «تركتها على أن أستعيدها بعد انتفاء الحاجة لها، لكنها ذهبت جميعها في الهجوم الأول على الدوار» يقول أحد الأطباء.

بدأ التنظيم لأوقات العمل على 3 فترات، على أن يكون هناك طبيب مناوب واحد في كل فترة. الوكيلان المساعدان مريم الجلاهمة وأمين الساعاتي، اقترحا إعطاء الأطباء المناوبين بدل مناوبة، سواء في الرعاية الصحية الأولية أو الثانوية. الأطباء رفضوا، اعتبروا أنهم يقومون بعمل تطوعي لخدمة المصابين «لم يكن هدفهم الخروج ضد النظام ولا أن يهتفوا ضده، هم ليسوا سياسيين، بل أطباء، يؤمنون أن إسعاف المصابين واجبٌ إنسانيٌ ومهنيٌ» يقول أحد الأطباء. الأمور سارت على نحو هادئ فيما تبقى من يوم 15 فبراير، استمر كذلك طوال اليوم التالي، آلاف المعتصمين ينصبون خيماً جماعية يطالبون بالإصلاحات، مستشفى السلمانية غاب عن الحدث منذ ظهر الدوار، خيمتا الأطباء كانتا تمثلان الحضور الاحترازي هذه المرة.

فجر17 فبراير الطويل

فجر 17 فبراير، كل من الطبيبين علي العكري وصادق العكري في مناوبتهما الليلية في خيمتي الأطباء مع بقية الطاقم الطبي. كان حدث آخر ينتظر الجميع. حدث لم يتوقعه أحد منهم ولم يتخيلوا وحشيته. هجوم مباغت من قوات الأمن عند الثالثة فجراً في هدوء الخيام والناس. الطبيبان تعرضا إلى هجوم مباشر، وشاهدا بأعينهما وحشيته مع وجود النساء والأطفال. اقتحم الأمن الخيمة التي يناوب فيها علي العكري. قال لهم: رجاءً لا تضربوا، جميعنا طاقم طبي أتينا فقط لحالات الطوارئ. تم القاء مسيلات الدموع داخل الخيمة. أخرج العكري معه عدد من الطاقم الطبي في سيارته وتوجهوا إلى مستشفى السلمانية.

صادق العكري كان في الخيمة الأخرى، غادرها قبل أن يتذكر أن أحد أفراد الطاقم الطبي نائماً هناك. عاد ليطمئن عليه فداهمته قوات الأمن. لم يشفع له رداؤه الأبيض وإخباره لهم أنه طبيب.

كان الأطباء، السمكة التي أرادت السلطة أن تبلع بها حقيقة ضحاياها، فابتلعتها سريعاً في قضمة واحدة، ونست أن الشوكة أخطر ما في السمكة»

تم ركله بالأحذية وضربه بالهراويات والأسلحة، فكانت إصابته التى نقل على إثرها إلى غرفة العمليات.

نداء الاستغاثة لسيارات الإسعاف أطلق مباشرة بعد وصول خبر ضرب الدوار، خرجت بين الساعة 3:30 – 6:30 صباحاً فقط، اختفت بعدها. المصابون لجأوا إلى مجمع السلمانية الطبي، اعتبروا الحرم الطبي مكاناً آمناً، الطاقم الطبي في حالة ذهول. لا أحد يعرف حجم المصابين وعددهم وإصاباتهم. الحالات والإصابات بدأت تتوافد إلى المستشفى في سيارات خاصة. بدأ التجمهر مرة أخرى. هذه المرة بغضب أكبر وهيجان أكبر وعدد أكبر. الحدث كان صادماً للجميع، قتيلان سقطا وعشرات الجرحى توافدوا على المستشفى.

بعد الساعة الثامنة صباحاً، حدث ثوران شعبي عارم، أعداد غفيرة احتشدت عند المستشفى. المحتجون حاولوا العودة للدوار. قوات الأمن واجتهم بمسيلات الدموع والرصاص المطاطي والانشطاري عن قرب، إلى الحد الذي تم فيه تفجير رأس ضحية ثالثة بتصويب مباشر، الحادث، شهدته الصحفية نزيهة سعيد ونقلته للإعلام، وفي شهادتها الشفهية لمرآة البحرين، أضافت أنها شاهدت كذلك فيما تظنه الشهيد على المؤمن وفق المواصفات التي قرأتها لاحقا عنه. إصابات

مختلفة ومتفاوتة دخلت المستشفى، إحدى الحالات تعرضت لإصابة بالرصاص الانشطاري في الرقبة، تم إنقاذها، بعد عمل الأشعة لها اتضح أن الرصاص الانشطاري منتشر في كامل الرئة، لكنها نجت من الموت.

قوات الأمن تقدمت من جهة الدوار باتجاه مجمع السلمانية. وصلت مستشفى الطب النفسي، وهنا بدأ منع المسعفين من الوصول إلى الدوار، تم توقيف المسعفين وضربهم.

الأطباء في مفاجأة الحدث والتعامل مع الحالات التي تصل إليهم، وفي ترقب ما يصلهم من حالات جديدة. الطوارئ تحول إلى فوضى عارمة بسبب العدد الكبير من أهالي المصابين والمتجمهرين. الأطباء قالوا سنخرج مع سيارات الإسعاف لاحضار المصابين من الدوار، لكن سيارات الإسعاف اختفت فجأة. عندما سأل الأطباء عنها أخبرتهم الإدارة أنه بسبب التجمهر وعدم قدرتها على التحرك بسهولة، فقد تم سحب السيارات إلى مركز كانو الصحي. أطباء ذهبوا إلى مركز كانو الصحي ليخرجوا مع الإسعاف من هناك، لكنهم تفاجئوا أن الباب مقفل من الخارج . كانت الساعة لا تزال التاسعة صباحاً، الإصابات لا تزال تأتي السلمانية بسيارات مدنية.

الإسعاف الحائر

بين الساعة التاسعة والحادية عشرة، يبدأ استنفار الأطباء، كيف يمكن الوصول إلى الحالات التي لا تزال في الدوار، وسط الحصار الأمني الذي أغلق كل الطرق الموصلة إليه، وكيف يتأكد الأطباء أنه تم إخلاء الدوار من الجرحى والمصابين. الإسعاف ممنوع من الوصول إلى مكان الحدث والمسعفون تعرضوا للضرب وتم سحب سيارات الاسعاف منهم. مجموعة من الأطباء تذهب للالتقاء بوليد المانع ليتم السماح للإسعافات بالخروج. بعد الساعة 11:30 يأتي الإذن بخروج الإسعافات من الوزير. منذ السادسة والنصف وحتى الحادية عشرة والنصف كان الإسعاف ممنوعاً من الوصول إلى الدوار «لا أحد يعرف سبب منعنا من الوصول إلى الدوار قبل هذا الوقت، لا تفسير له سوى أن الأمن كان لديه مهمة خاصة ينجزها هناك طوال الساعات الخمس هذه، وعندما انتهى من مهمته الخاصة، سمح للاسعاف والكادر الطبي بالوصول» تقول إحدى الطبيبات.

قبل الإذن للإسعافات بالخروج، كانت حالة أقرب إلى الثورة الغاضبة يعيشها الطاقم الطبي. عند بوابة قسم الطوارئ انقسم الأطباء إلى قسمين. فريق يقول بالخروج والتظاهر احتجاجاً على منع سيارات الإسعاف من الوصول للجرحى. هذا الفريق يضم علي العكري الذي كان شاهداً على وحشية الهجوم وما أصاب قريبه صادق العكري. الفريق الآخر يضم زميله نبيل تمام، ويرى أن

يبقى الأطباء لمعالجة المصابين. خرجت المجموعة في مسيرتها الاحتجاجية بشكل عفوي وتحت تأثير الحدث الساخن الذي عايشه الكادر الطبي للمرة الأولى في تاريخ البحرين. المجموعة الثانية اجتمعت بعد أن أعطاها الوكيل أمين الساعاتي الضوء الأخضر، وتم الإعلان في أجهزة المناداة داخل السلمانية عن اجتماع للأطباء، حضره ما يقارب 50 طبيباً، الهدف هو التهدئة ومحاولة الوصول إلى حل مشكلة الفوضى التي كانت قد سيطرت على المستشفى بالكامل.

في الاجتماع تم الاتصال برئيس جمعية الأطباء أحمد جمال والنائب علي ابراهيم. بعدها يصدر بيان إدانة من الجمعية: «إن ما حدث هذا اليوم من استخدام للعنف المفرط وغير المبرر من قبل أجهزة الأمن والذي نتج عنه وفيات وإصابات بالغة بين جموع المواطنين المعتصمين سلميا بكفالة الدستور والأعراف الدولية لهول وغير مقبول، كما أن منع الطواقم الطبية والمهنية من أداء واجبها في إسعاف المصابين ونقلهم إلى المستشفى أمر لا تقره الشرائع الدولية والإنسانية وعليه، فإن كلاً من جمعية الأطباء البحرينية وجمعية أطباء الفم والأسنان البحرينية، تدين وتستنكر هذا العنف غير المبرر تجاه المواطنين المسالمين والطواقم الطبية التي تقدم لهم الإسعافات اللازمة، والذي نتج عنه أيضاً إصابة عدد من أفراد الطواقم الطبية بجروح بليغة. ونطالب الدولة وعلى رأسها جلالة الملك للتدخل السريع لوقف هذه التصرفات والإجراءات الضارة بالمواطنين والوطن والحيلولة دون بث الفرقة والهلع في صفوف المجتمع الواحد والآمن. والله ولي التوفيق».

الحادية عشرة والنصف، يتزامن خروج الفريق الأول من الأطباء في المسيرة الاحتجاجية، مع اجتماع الفريق الثاني، مع بيان جمعية الأطباء، مع صدور قرار الوزير أخيراً بالسماح للإسعاف بالخروج. الأطباء قطعوا مسيرتهم وركبوا الإسعافات وتوجهو للدوار «لم نجد شيئاً هناك. لماذا إذاً تم منع الإسعاف من الوصول إلى الدوار طوال الساعات الخمس؟ قمنا بمسح المناطق القريبة من الدوار لعل مصاباً هنا أو هناك، لكن لم نعثر على أحد» تشرح إحدى الطبيبات.

صدمة الجيش

الصدمة الأخرى التي لم يستوعبها الشارع في ذلك اليوم، كانت نزول قوات الجيش إلى الشارع. القيادة العامة لقوة دفاع البحرين أصدرت بياناً أسمته «رقم 1» أعلنت فيه انتشار قوات عسكرية في محافظة العاصمة «بدواعي اتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على أمن المواطنين والمقيمين وسلامتهم» وشددت «على اتخاذ كافة التدابير الصارمة والرادعة لبسط الأمن والنظام العام».

تستنكر إحدى الطبيبات: «للمرة الأولى نشاهد مدرعات الجيش تجوب شوارع البحرين، الهدف

لم يكن محاربة عدو خارجي، بل معتصمين عزل نائمين في الدوار»مالم يفهمه أحد حينها، لماذا الجيش؟ ولماذ الهجوم الوحشي المباغت بعد أقل من 48 ساعة من إعلان الملك أسفه لسقوط قتلى،وإعلان يوم حداد رسمي، وتشكيل لجنة تحقيق؟ الصدمة فاقت استيعاب الجميع، كانوا في ذهول الحدث: سياسيون، حقوقيون، مهنيون، معلمون، إعلاميون، مثقفون، مؤسسات مجتمع مدني، لكن الطاقم الطبي في ذهول مضاعف، بالإضافة إلى صدمة الحدث، فهم في الحالات التي تفد إليهم، يعايشون صرخات الآلام التي تخرج من حناجر المصابين «وجد الأطباء أنفسهم أكثر من غيرهم في قلب الحدث، وجودهم في الحدث بهذه الكثافة كان أمراً طبيعياً لاتصاله بدورهم المهني، فكيف بالجانب الإنساني» يقول أحد المراقبين.

مستشفى السلمانية التي غادرها الحدث بعد ظهر 15 فبراير، عادت لتصبح في واجتهه من جديد في 17 فبراير، باحة الطوارئ تحولت إلى ساحة هيجان شعبي، إدارة المستشفى لم تكن قادرة على السيطرة على الجماهير الغاضبة المتجمهرة هناك.

اليوم الطويل انتهى بسقوط 4 ضحايا، سقط محمود أحمد مكي ابو تاكي (23 عاماً)، وعلي منصور خضير (53 عاماً) بقذائف انشطارية االشوزنب. وسقط عيسى عبدالحسن (60 عاماً) بطلق رصاص انشطاري قريب ومباشر أدى إلى انفجار في جمجمة الرأس (وهو الحادث الشهير الذي رأته وروته الصحافية نزيهة سعيد). والشاب علي المؤمن (22 عاماً) سقط بقذيفة انشطارية في الفخد عند الحوض تسببت في تهتك الأوعية الدموية، لم تفلح محاولة الطبيب الاستشاري صادق عبدالله لإنقاذه، ولم يسعفه الـ 30 كيساً من الدم لاستعادة نبضه.

أيضاً، انتهى اليوم بعشرات الجرحى من الرجال والنساء والشباب والأطفال، اختلفت إصابتهم بين المتوسطة والخطيرة، منهم 3 حالات لمسعفين تم إخراجهم لاحقاً.

مسيرة الأطباء

صباح الجمعة 18 فبراير، كان مجمع السلمانية الطبي شاهداً على تسليم جثث الضحايا الأربع. الأهالي المفجوعون يأتون لاستلام جثث أبنائهم ويغادرون نحو التشييع.

عدد من الأطباء يجتمعون في بيت أحدهم، الهدف تنظيم اعتصام في موقف سيارات السلمانية عصراً، وإصدار بيان باسم منتسبي الحقل الصحي. البيان تنديد لتعرض الكوادر الطبية للاعتداء من قبل رجال الأمن أثناء ممارسة دورهم الإنساني، والمطالبة بمحاسبة وإسقاط وزير الصحة

فيصل الحمر والطاقم الإداري التابع له على خلفية هذا الموضوع.

عصراً، ينفذ الاعتصام، العدد يتجاوز2000 مشارك من منتسبي وزارة الصحة، حسب قول أحد المشاركين. العدد الكبير من المشاركين والحماس الشديد الذي كان مسيطراً عليهم، يحول الاعتصام إلى مسيرة. ثلاث دورات في موقف السيارات الخاص بطوارئ السلمانية وينتهي الاعتصام ويقرأ البيان الختامي. لكن الأمر لا ينتهي هنا أيضاً.

الدكتور علي العكري يطلب من أفراد الطاقم الطبي العودة إلى مواقعهم دون أن يُعطي تفاصيل أخرى. تتذكر إحدى الطبيبات «بينما كنا في دورتنا الأخيرة في المسيرة الاحتجاجية في باحة طوارئ مجمع السلمانية، سمعنا صوت طلقات نارية تأتي من بعيد». ما الذي يحدث؟

صدور ومدرعات

في هذه الأثناء التي كانت مسيرة الأطباء توشك تنهي بيانها، على الجنبة الأخرى القريبة من المستشفى، مسرح حدث جديد، كانت منطقة الديه القريبة من (دوار اللؤلؤة)، وغير البعيدة عن مستشفى السلمانية، تشهد ختام مجلس عزاء علي مشيمع (21 عاماً)، الضحية الأولى لأحداث 14 فبراير. المعزون خرجوا في مسيرة عزاء ضمت الآلاف، اتجهت نحو الدوار المحاصر بقوات الأمن والجيش. عدد من الشباب يحملون أعلام البحرين، يتحركون قريباً من المدرعات العسكرية. يقفون على مسافة 100 متر منها، يلوحون بأيدٍ عزلاء إلا من إعلام ترفرف على صدورهم العارية. لم تمض غير دقائق، حتى كان المشهد الذي رآه العالم مصوراً بالفيديو، سيل لا يتوقف من الرصاص الحي المباشر، والغازات المسيلة للدموع، ينكشف الدخان عن عدد من الشباب مضرجين على الأرض في بركة من دمائهم.

الطلقات سمعها الكادر الطبي الذي كان معتصماً في باحة مجمع السلمانية، عدد من الكادر الطبي خاف وغادر، الباقون دخلوا فوراً استعداداً لتقديم المساعدة للإصابات التي بدأ الإسعاف بنقلها، بدأ استنفار طبي آخر.

الشباب المشاركون في مسيرة العزاء، أخذوا في التدافع إلى مستشفى السلمانية يحملون المصابين في سياراتهم، أحد الشهود يقول: «كنت هناك عندما شاهدت عشرات الشباب يتوافدون إلى المستشفى في حالة من الرعب والذهول، وينظمون المرور لتسهيل مرور سيارات الإسعاف عند مدخل السلمانية. استفهمت، فأخبروني أن رصاصاً حياً أطلق على المعزين الخارجين من عزاء الشهيد

مشيمع نحو دوار اللؤلؤة، وأن هناك عددا كبيرا من الإصابات ملقى على الأرض في الطريق».

شاهدة أخرى تقول «كان عدد من الشباب يخرجون من بوابة الطوارئ يحملون أسرة لنقل المصابين من السيارات الخاصة التي أحضرتهم».

رصاصة عبدالرضا

الغريب، أنه في الوقت الذي كانت برك الدم تسيل في الشارع المؤدي للدوار، كان ولي العهد يفاجئ الجميع بزيارة غير متوقعة لتلفزيون البحرين، وجّه خطاباً وَجِلاً ومرتجلاً للجميع: «أقدم التعازي لكل شعب البحرين على هذه الأيام الأليمة التي نعيشها، وأريد أن أوجه رسالة للجميع للتهدئة، نحتاج فترة أن نقيم ما صار ونلم الشمل ونستعيد إنسانيتنا وحضارتنا ومستقبلنا. نحن اليوم على مفترق طريق، أبناء يخرجون وهم يعتقدون أن ليس لهم مستقبل في البلد، وآخرون يخرجون من محبة ومن حرص على مكتسبات الوطن، لكن هذا الوطن للجميع ليس لفئة على فئة، لا هو للسنة ولا هو للشيعة هو للبحرين وللبحرينيين، وفي هذه اللحظات يجب من كل إنسان مخلص أن يقول كفاية ما خسرناه في هذه الأيام، صعب استعادته، لكن أنا مقتنع بعمل المخلصين».

في السلمانية، لم يكن ثمة مكان للهدوء أو التهدئة، لم يكن غير فوضى عارمة وهيجان ناقم. مشهد الرصاص والدم يأتي محمولاً على أسرة تشي بالموت وآلاف تحتشد في حالة هستيرية تصرخ بسقوط النظام. المذياع الداخلي لمستشفى السلمانية يعلن استدعاء جميع الاطباء إلى غرف العمليات والطواريء «كان الوضع أشد كارثية هذه المرة، نحن أمام رصاص حي، لم نصدق أن الأمر يمكن أن يصل إلى هذا الحد، كانت تجربة مرعبة لم نتعامل معها من قبل، ولا ندري ما إذا كنا قادرين على التعامل مع هذه الحالات أم لا» يقول أحد أفراد الطاقم الطبي.

الحالة الأشد صعوبة هي حالة عبدالرضا بوحميد (38 عاماً)، أصيب رصاصة حية في الجمجمة، الاستشاري نبيل حميد يحاول إنقاذه، عملية جراحية تستمر ثلاث ساعات، دون أن تتمكن من إخراج الرصاصة من رأس عبد الرضا. الاستشارية نهاد الشيراوي تعمل على متابعة حالته. يبقى فيما يشبه الموت السريري ليومين، قبل أن يفارق الحياة في 21 فبراير، وقبل أن تنهار الشيراوي باكية أمام عدسات التصوير، ولتدفع بعدها، في المحاكم العسكرية، ثمن هذا البكاء من أجل حياة إنسان.

عدد كبير آخر من الإصابات بلغت 96 إصابة، بعضها إصابات بالرصاص الحي. 6 منها أدخلت

غرفة العمليات حسب ما أعلنت مصادر طبية حينها. «تفاجئنا من الحالات التي كانت تصلنا. رصاص في أماكن قاتلة في الصدر والرأس. ضربات مباشرة باستخدام الرصاص المطاطي والانشطاري، تتعمد إصابة مناطق حيوية مثل العين والصدر، ستون حالة منذ بداية الأحداث حتى الآن، إصابات فقد فيها البعض عينيه أو عيناً واحدة» تقول أخرى.الأطباء انتشروا في أرجاء المستشفى، هناك من يعالج إصابات مسيلات الدموع، وآخر في غرفة الإنعاش، وثالث في العمليات.

الاستشاري باسم ضيف يعمل على 3 حالات، اثنتين إصابات في عظام الفخذ، والثالثة إصابة بليغة في الكاحل. يشاهده الطاقم الطبي متأثرا كثيراً، يبكى، يسأله طاقم العمليات: لأول مرة نراك تبكي، يجيب: لم يقدر لي من قبل أن أرى هذا القدر من العنف في البحرين.

الاستشارية بدرية توراني تعالج حالة رصاصة موجودة في أعلى الفخد قريباً من الحوض، يساعدها الطبيب باسم ميرزا، تلتقط أشعة للرصاصة. كان وفد من الإعلاميين وصلوا المستشفى، طلبوا معاينة الحالات في غرفة الإنعاش. باسم ضيف يريهم الأشعة التي تثبت وجود الرصاصة التي تم إخراجها. لكنه يوضح « لست أنا من عملت على هذه الحالة». الإعلاميون يطلبون الرصاصة من أجل تصويرها. يتم إخبارهم أنها وضعت في كيس وتم التحفظ عليها، لكن أين ذهبت؟ ليس هناك تأكيد بخصوص الرصاصة، البعض يقول «أعطوها منظمة حقوق الإنسان بعد وضعها في كيس».

الوزير يكذب

في باحة الطوارئ، الآلاف يتجمهرون حتى وقت متأخر من الليل، يرددون هتافات الغضب. شبكات التواصل الاجتماعي تنقل مقاطع فيديو تظهر آلاف المتجمهرين الغاضبين يطالبون بإسقاط النظام. كذلك تفعل وسائل الإعلام العالمية التي كانت حاضرة وشاهدة على الحدث، وقد بدأت تبث المشاهد عبر قنواتها. وزارة الصحة متمثلة في وزيرها فيصل الحمر وإدارة السلمانية يقفون مكتوفي الأيدي، كل شيء خارج عن السيطرة.

لم ينقل الوزير فيصل الحمر هذا الوضع، عبر لقائه في تلفزيون البحرين في المساء ذاته، بل قال أن الوضع في مجمع السلمانية الطبي مستقر، وأن عدد من يحتاجون إلى الرعاية الصحية أصبح أقل، وأنه بعد التدقيق في نوعية وأعداد الإصابات الموجودة اتضح أن هناك سبعة مصابين بإصابات طفيفة، يجري التعامل معها الآن بطريقة طبية صحيحة لرعايتهم، وسيغادرون المستشفى في وقت قريب، وأن هناك بعض المواطنين موجودون في الساحة الخارجية لمجمع السلمانية الطبي، وهم أهالي بعض المصابين المتواجدين داخل المستشفى، مؤكداً أن الأمن مستتب وأن الوضع هادئ.

هذا التصريح أغضب الأطباء، ووجدوه غير كفء ليحمل أمانة المهنة وشرفها الإنساني. قرروا أن يصدروا بياناً عن جمعية الأطباء البحرينية وجمعية أطباء الفم والأسنان البحرينية، يدين استخدام العنف المفرط ضد المواطنين المتظاهرين سلمياً، ويستنكر «تصريح وزير الصحة عبر وسائل الإعلام بالأمس في حصر عدد حالات الإصابة بسبع حالات فقط ووصفه بأنها حالات طفيفة وهذا مغاير للواقع حيث إن عدد الجرحى ليوم أمس فقط فاق المائة بينهم سبع حالات بإصابات بليغة منهم حالة إصابة خطرة بالرأس والدماغ وحالة إصابة خطرة بالصدر والحالات ناتجة عن رصاص حي و شوزن وضرب قاسي بالهراوات وليس كما وصف الوزير. ونأمل أن تكون تصريحات وزارة الصحة دقيقة دون لبس»، طالبوا باستقالة وزير الصحة.

إحراج الوردة

السبت 19 فبراير صباحاً، المتجمهرون يتوافدون على مجمع السلمانية الطبي منذ الثامنة صباحاً للتبرع بالدم والتضامن مع الجرحى والمصابين. صحافيون أجانب يقومون بتغطية الحدث في المستشفى، إدارة المستشفى لا تتعامل مع الجماهير ولا مع الحدث، كذلك الوزير فيصل الحمر الذي كان جزءاً من أزمة 17 فبراير.

تنتشر رسائل هاتفية وإلكترونية وفي وموقع التواصل الاجتماعي (الفيسبوك)، تدعو لخروج مسيرات من مناطق السنابس، النعيم، المنامة باتجاه دوار اللؤلؤة عند الثالثة ظهراً. الهدف: (تحرير) الدوار وفك الحصار المفروض عليه من قبل قوات الجيش وقوات الأمن الخاصة. الوسيلة: مواجهة سلاح الجيش ورصاصه بسلاح الورد. هي المرة الأولى التي رفعت فيها الورود، قبل أن تصبح الورود علامة الحركة الاحتجاجية.

عند الساعة الواحدة ظهراً، يبدأ ما يشبه الكر والفر بين المتظاهرين ورجال الأمن، أعداد من المتجمهرين يزحفون من منطقة السنابس نحو السياج الشائك الذي نصبته قوات مكافحة الشغب على بعد نحو نصف كيلومتر من الدوار من جهة منطقة السنابس. زحف آخر يأتي من جهة منطقة النعيم، على الطريق المؤدي من السلمانية للدوار. تواجههم قوات الشغب بمسيلات الدموع، لكن ليس بعنف اليومين السابقين. عدد من حالات الاختناق والإغماء تنقل إلى مجمع السلمانية الطبي. جموع أكبر من المتظاهرين يخرجون من مجمع السلمانية الطبي عند حوالي الثانية ظهراً، أيضاً تتم مواجهتهم بمسيلات الدموع.من جانب ابراهيم شريف أمين عام جمعية وعد، يخاطب رجال الأمن ويطلب من قائدهم السماح

للشباب العزل بالاعتصام السلمي، يبدي الأخير ردة فعل إيجابية، ويخبر أنه بكل حال ليس لديهم أوامر باستخدام القوة .

الزحف ما يزال مستمراً، الشباب يتقدمون الآن عند السياج الشائك رافعين الورود، ومتشحين بأعلام البحرين. تبدأ المناورات السلمية مع قوات الأمن، يمرر الشباب رسائل الورد عبر الأشواك الشائكة ليؤكدوا سلمية هذه الحركة، تتقدمهم صبية تحمل وروداً تهديها لرجال الأمن، الأمن يمتنع عن استخدام آلة القمع، لكنه في الوقت نفسه مُحرج أن يقبل الورد الممدود إليه بسلام.

تحرير الدوار

في ذلك الوقت، كان تلفزيون البحرين يعرض خطاباً لولي العهد، يأمر بسحب جميع القوات العسكرية من شوارع البحرين بأثر فوري تمهيداً لإعلان الحداد، تمهيداً لبدء الحوار مع الشباب وجميع القوى السياسية والمجتمعية. تبدأ الآليات العسكرية وقوات الأمن بالانسحاب. يُعلَن بيان الجيش رقم 2: « انسحاب القوات العسكرية من العاصمة «.

يركب رجال الأمن سياراتهم وشاحناتهم، تنسحب آليات الجيش بهدوء، الشباب يسهلون مرورها وسط تصفيق حار وتهليل وفرح « قمنا بإلقاء الورود على سيارات الأمن وآليات الجيش تعبيراً عن سلميتنا، أردنا أن نقول لهم إننا لا نريد التصادم مع أحد في هذا الوطن، وكلنا للبحرين « يقول أحد الشباب المشاركين .

دقائق فقط، كانت كافية ليزيل الشباب السياج الشائك، وليقطعوا مسافة النصف كيلومتر مشياً على الأقدام، مهرولين مرة وراكضين مرة أخرى، ليفتحوا مجدداً الدوار . الرسائل الهاتفية انتشرت من فورها : « تحرر الدوار « ، « توجهوا إلى ميدان الشهداء « تفاجأ الشباب عند وصولهم أن عدداً من سيارات الإسعاف سبقتهم للمكان، سبع سيارات مجهزة بالطاقم الطبي ومستلزمات العلاج الفورية، انتشرت في محيط الدوار تحسباً لأي طارئ محتمل.

كان لوطء العودة رهبة الدم وحلاوة النصر، تفاوتت ردات الفعل : البعض خرّ ساجداً على الأرض، البعض خرّ باكياً، البعض راح يتحسس حرارة الدم الذي سال في المكان منذ يومين، البعض راح يكتشف فعل العنف في المكان، يجمع ما امتلأ به من الرصاص المطاطي وأغلفة مسيلات الدموع والطلقات المختلفة، البعض راح ينتشل آثار الناس: حذاء هنا، ونعال هناك،

دمية طفلة بقت تشهد على قسوة الهجوم، حذاء طفل لا يتجاوز الثانية من عمره، قنينة حليب لرضيع ثالث، جُمعت كلها في معارض صغيرة هنا وهناك. بعد كل مسافة من الأمتار صار ثمة معرض صامت يحكي. أطلقوا عليه من حينها «ميدان الشهداء» سريعاً ما هبّ الشباب بعدها لتنظيف الدوار والشوارع المحيطة به وابتاعوا حاويات قمامة من أجل ذلك، وبالأحجار، راح البعض يرسم لوحة على الأرض تقول: «نحب البحرين ونطالب بمصلحة كل شعبها».

الآلاف توافدت متخذة من خطاب ولي العهد ضماناً لحق تجمعها السلمي. الورود صارت زهوة المكان، اختلط الحزن بالورد والبكاء بالفرح «كان الناس يضحكون ويبكون ويهتفون ويدهشون مما يرون من آثار، كانو يعيشون حالات ومشاعر مختلطة، لكنهم جميعاً كانوا يشعرون بالفخر، أجمل المشاهد التي شهدتها بنفسي، أحد الشباب يزرع نبتة (بتونيا) في المكان، وعندما سألته لمن هذه، قال لأرواح شهداء هذا المكان» يقول أحد الشباب الحاضرين في دوار اللؤلؤة.

عدد كبير من المحامين والنشطاء الحقوقيين ورجالات السلك الدبلوماسي البحريني، توافدوا أيضاً إلى الدوار. أيضاً، عدد من الكادر الطبي ممن انتهوا من نوبة عملهم عند الثانية والربع، جاؤوا إلى الدوار يشاركون المعتصمين عودتهم، ويؤكدون أنهم سيكونون متواجدين بشكل طوعي، وخارج أوقات دوامهم الرسمي، إلى جانب المعتصمين، لتقديم المساعدة الطبية لأي طارئ قد يحدث.

مخيم السلمانية

خلال اليومين التاليين، كانت مؤشرات الهدوء العام بدأت بالظهور، المعتصمون في الدوار يعبرون عن مطالبهم بسلمية وأمان. أيضاً، حاول تلفزيون البحرين لبس ثوب الحمام خجلاً من مبادرة ولي العهد، لكن الأمر لم يطل. أقل من يومين ثم: «جاءنا من فوق (؟) أن أجهضوا مبادرة الحوار» حسب مصدر من تلفزيون البحرين. سيكون للجهاز الإعلامي الدور الأكبر في تأليب الشارع السني ضد الحركة الشعبية عموماً، وضد الأطباء خصوصا وستوجه لهم اتهامات غير مسبوقة في تاريخ الحركة الوطنية وتاريخ مهنتهم.

في مجمع السلمانية الطبي بدأ جدل آخر يحتدم، بعض الأطباء يرون أنه «مادام سمح للشباب بالعودة إلى الدوار والاعتصام، دعونا نعمل على إنهاء الاعتصام الموجود في باحة

مجمع السلمانية الطبي « لكن شباب 14 فبراير كانوا يرون خلاف ذلك « لا بد من وجود نقطة تجمع ثانية غير الدوار، فإذا ما تمّ ضرب الأولى، لجأ الناس إلى الثانية « الأطباء كانوا باتجاه إنهاء كافة الاعتصامات في موقف السلمانية، لكن « بعد النقاش الحاد بين الأطباء وشباب 14 فبراير، تفاجأنا بمجموعة من الشباب المتطوعين يقومون بنصب خيام في الباحة، خيمة للنساء، أخرى للشاي، وثالثة للمعرض الذي ضم الأدوات التي استخدمها رجال الأمن في قمع المحتجين، ثم وضعت منصة للخطابة «يقول أحد الأطباء « شخصياً احتد بي النقاش مع مسؤول شباب 14 فبراير، الكادر الطبي رفض ذلك، صار المكان محطة التقاء، بدأ يتحول إلى مكان تجمهر « يكمل .

سيكون هذا التصرف، أكثر ما خدم به المحتجون السلطة التي كانت تبحث عن طريقة للتخلص من (إزعاج وفضح) الكادر الطبي. صارت التهمة جاهزة، اختطاف مستشفى السلمانية من قبل الكادر الطبي والمحتجين الشيعة، وتحويله إلى وكر خاص.

عدد من الأطباء وعلى رأسهم الطبيب الاستشاري علي العكري، يحاكمون اليوم في المحاكم العسكرية بتهمة التنظيم للاعتصام والتجمهر ونصب الخيم داخل باحة السلمانية وتحويله مركزاً للعمليات بهدف قلب نظام الحكم، لكن شهادة وليد المانع، الرئيس التنفيذي للمستشفيات، التي أدلى بها كشاهد إثبات في محاضر الأمن، يُخبر أنه بتاريخ 20 – 21 فبراير، تم وضع الخيام في المستشفى من خلال اللجنة المنظمة من الدوار (لا من الأطباء)، وأنه قد تم الاتصال بالوزير الحمر عن طريق الوكيل أمين الساعاتي، الذي أخبره أن هذا قد يؤدي إلى الازدحام في مواقف المستشفى، إلا أنه (الوزير الحمر) وافق على ذلك وعلل أنه سيكون لفترة بسيطة . وهي الشهادة التي من المفترض أن تُخلي طرف العكري والأطباء، وتضع الوزير السابق في الواجهة بشكل مباشر. هل كان قبول الوزير الحمر لنصب الخيم في المستشفى مقدمة مقصودة لضرب الكادر الطبي؟

«لم أسمع علي العكري يقول يوماً بإسقاط النظام، في كل المسيرات التي تقدمها كان ينشد بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي، كانت هذه أنشودته التي يرددها دوماً. كذلك يكرر البيت المعروف إذا الشعب يوماً أراد الحياة، لم أسمعه يطالب بإسقاط النظام" تقول إحدى زميلاته من الطبيبات.

مسيرات الكادر الطبي بقت متواصلة بواقع يومين في الاسبوع، تخرج من السلمانية بعد انتهاء الدوام عند الساعة الثالثة وتتجه نحو الدوار. هناك نصبت خيمة طبية للمساعدة في علاج أي

حالة طارئة، تم مدها بالأجهزة والمواد .

في الخيمة الطبية لدينا استعدادات بسيطة، أسرّة المرضى والأوكسجين تم إحضارها بتصريح من الوكيل أمين الساعاتي، والأدوية أُحضرت من مركز الرازي والنعيم بتصريح من الوكيل مريم الجلاهمة» تقول إحدى الطبيبات المتواجدات في الخيمة الطبية، وتضيف « تبرعات مادية كثيرة كان يحضرها لنا المعتصمون، وكانو يحضرون الأدوية التي لا يحتاجونها من بيوتهم، هناك صيدليات مدتنا بالأدوية أيضاً، بعض الأدوية غير المتوفرة في المراكز الصحية قمنا بشرائها» الحالات التي كانت ترد على الخيمة الطبية في (فترة الهدوء) بسيطة معظمها. حالات قليلة تم تحويلها إلى مستشفى السلمانية حسب الطبيبة «وجود الأطباء في الدوار لم يكن بهدف الاعتصام، بل بهدف توفير الرعاية الطبية للمعتصمين، من المعروف عالمياً إن أي مكان فيه تجمع لا بد من مركز طبي لرعاية الحالات التي قد تحدث فيه» تضيف الطبيبة.

فخ مريم الجلاهمة

يتناوب الكادر الطبي حسب أوقات فراغه من عمله « ركب العكري فوق المنصة وقال للجميع: لا أحد يترك عمله أو يقصر في أداء واجبه ، لا أحد يترك مقر عمله ويأتي معنا. الخروج في المسيرات بعد الدوام فقط. إذا وجدتموني تركت العمليات وخرجت فذلك لأني في إجازة سنوية. وأحضر هناك كعلي العكري الشخص وليس كعلي العكري الطبيب» تقول إحدى الممرضات.

الوكيلان مريم الجلاهمة وأمين الساعاتي عرضا على الكادر الطبي المتواجد في خيمة الأطباء بدل مناوبة، لكن الكادر رفض معتبراً أنه يقوم بعمل إنساني لخدمة وطنه. مريم الجلاهمة أرسلت للكادر الطبي رسالة شكر حينها «الزملاء الأعزاء.. إن ما مرت به المملكة أظهر جلاء المعدن الحقيقي للكوادر الطبية والتمريضية وطواقم الإسعاف وجميع العاملين الصحيين الذين أبرزوا بجلاء صورة المواطن البحريني عند الشدائد. إننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نوفي هؤلاء حقهم وهم الذين بذلوا جهوداً جبارة طيلة الأيام الماضية في علاج المصابين مع تمسكهم بانتظام العمل في جميع مرافق وزارة الصحة فلهم ألف تحية» الرسالة كانت بمثابة الحافز، الآن تبدل الوضع، وصارت الجلاهمة تشارك في محاسبة الكادر الطبي والتحقيق معهم بسبب جهودهم التي كانت مشكورة، فصارت مأثومة.

تدشين شعار الاختطاف

في 26 فبراير، وبعد اعتصامات متتالية من الكادر الطبي تطالب بإقالة الوزير وطاقمه الإداري،

يصدر أمر ملكي بإقالة وزير الصحة الحمر وتعيين نزار البحارنة وزيراً للصحة «شعرنا أن عزل الوزير انتصار للحركة الاحتجاجية، وكنا نطمح في عزل الوكيل عبد الحي العوضي أيضاً، فهو بؤرة فساد لوحده» يقول أحد الكادر الطبي. لكن يبدو أن الإقالة كانت من أجل البدء في حملة إعلامية شرسة يراد تجنيب الوزير السابق الحمر من أن يناله شيئ منها. فمع تعيين نزار البحارنة وزيراً للصحة، بدأت الحملة الإعلامية تحت شعار (السلمانية المختطفة) من قبل الشيعة، كان هو عنوان الحملة التي اشترك فيها صحافيو السلطة ورجالاتها وسياسيوها وخطباؤها، وبطبيعة الحال، تلفزيون البحرين.

التهم بدأت تكال إلى الكادر الطبي: إلحاقهم الضرر بالعمل الطبي في مستشفى السلمانية والمراكز الصحية، وانتقالهم إلى الدوار تاركين مرضاهم والمصابين دون رعاية ومتابعة في المستشفيات والمراكز الصحية. الرسائل الهاتفية المجهولة المصدر وفي صفحات الفيس بوك وتويتر بدأت تشن حملتها مستهدفة الكادر الطبي والوزير الجديد. صار الدخول إلى مستشفى السلمانية يخضع لكشف هوية من قبل (المختطفين) من الأطباء وأهل الدوار، وأنهم يقومون بتفتيش الداخلين من المذهب (السني) والتحقيق معهم. وأن مرضى (السنّة) مهملون، وأن الطوارئ محتكر للمتجمهرين ويتأخر عن الحالات الطارئة، وأن هناك حالتي وفاة حدثتا بسبب تأخر الاسعاف وإهمال الأطباء، وأن الذهاب للطوارئ يتطلب ساعتين من الانتظار بسبب الاعتصام والخيم، وساعتين إضافيتين من أجل الخروج.

كل هذا كان يجري تناقله عبر رسائل مجهولة المصدر تصل أبناء المذهب (السني) ليتناقلونه فيما بينهم، الهدف: تحويل القضية الاحتجاجية إلى قضية سنية شيعية، وإسقاط مصداقية الكادر الطبي.

قناة وصال الفضائية السلفية السعودية، والتي عملت جنباً إلى جنب مع الإعلام الرسمي البحريني في تأجيج طائفية الحدث، تلقت اتصالاً مستنكراً من (أم محمد) من الطائفة السنية، التي اتصلت بقناة وصال وكذبت كل ما يقال، وذكرت أنها ترددت على المستشفى أكثر من مرة خلال تلك الفترة، ولم يتم تفتيشها ولا سؤالها عن أصلها ولا فصلها ولا تعطيل وصولها، وأن قريبتها التي ترقد في المستشفى تحظى بعناية واهتمام من الكادر الطبي الذين عبرت عنهم أنهم من المذهب الشيعي، وأن كل ما يتم تناقله هو إشاعات مغرضة بهدف النيل من الوحدة الوطنية وشق الصف وإثارة الفتنة».

الوزير البحارنة

وزير الصحة الجديد (الشيعي الأصل)، لاقى منذ اليوم الأول رفض الشارع السني الذي مثّله (تجمع الوحدة الوطنية) الذي رأى في عزل الأول وتعيين الثاني تهديداً لوجوده. لهذا كان على (البحارنة) أن يتحمل ليس فقط تركة أخطاء الوزير السابق، ولا تركة الاحتجاجات واعتصام باحة السلمانية، بل عليه أن يتحمل تركة الإسقاط والتخوين والاختطاف التي صارت عناوين يوصم بها الكادر الطبي المطلوب الإجهاز عليه وعلى صوته. واجه الهجوم نفسه الذي واجهه الكادر الطبي، بل صار وفق الحملة الإعلانية مسؤولاً عنه ويجب محاسبته. في لقاء مع صحيفة الأيام بتاريخ 9 مارس، أي بعد أقل من أسبوعين من تعيينه، استنكر البحارنة حرب الإشاعات والتجييش المضرة بالوطن أولاً، وقال: «اتركونا نعمل، إن كان هناك أناس عقولهم صغيرة. فعلى الأقل لتعمل الناس المتفهمة والمحترمة مع بعضها البعض من أجل هذا الوطن» ثم اشتكى من الإعلام (الذي يعمل ليس على إجهاض الحوار الوطني كما وصله من فوق!، بل على إجهاض الوطن) قال: «تحدثت شخصياً إلى المعتصمين في السلمانية ووعدوني أنهم سيتركون مكان الاعتصام غداً، لكن بعد البرنامج الذي عرضه تلفزيون البحرين ووجه لهم أصابع الاتهام، أصروا على موقفهم وقرروا البقاء معتصمين. يجب أن نعمل مع بعضنا لنخرج من هذه الأزمة» قال ذلك منتقداً التأزيم الذي تتعمده الإعلام وجهات أخرى كثيرة «منذ أول لحظة تم تعييننا فيه».

البلطجية

اليوم السابق (الجمعة 11 مارس/آذار 2011)، كانت مسيرة الديوان الملكي في منطقة الرفاع، بدأت من جهة منطقة عالي. المشاركون يحملون الورود ويتقدمون باتجاه (دوار الساعة) الواقع في الشارع المؤدي إلى الديوان الملكي. عند الدوار يحتشد تجمهر مضاد يحمل السلاح الأبيض ويتهدد المشاركين مانعاً إياهم من دخول الرفاع باعتبارها منطقة (سنّية موالية) ولا يقبل أهلها دخول (الشيعة المحتجين). الأمن يباشر الجماعة المسلحة ويقف بجانبها ومعها. المسيرة الحاشدة تتقدم، على بعد حوالي 300 متر من دوار الساعة، يشكل الأمن سلسلة بشرية تمنع المسيرة من التقدم أكثر. المشاركون يتجنبون استفزاز الأمن أو التجمهر المضاد، يتوقفون، يرددون هتافات الوحدة، يسلمون الورود لرجال الأمن قبل أن يقرروا التراجع للوراء والعودة لنقطة البداية.

أثناء العودة يتفاجأ المشاركون بهجوم من الخلف من قبل الجماعة المسلحة بالأسلحة البيضاء وبالحجارة، الهجوم يحدث تحت مرأى رجال الأمن. الأمن يقوم بإلقاء مسيلات الدموع بكثافة، لكن ليس على المهاجِمين، بل على المهاجَمين[1]. سيتفاجأ المهاجَمون أيضاً بتحطيم عدد كبير من سياراتهم في المنطقة التي كانت محاصرة بالكامل من قبل قوات الأمن (؟)[2].

المصابون يتم نقلهم إلى مركز عالي الصحي، مصادر تنقل أن عدد المصابين فاق القدرة الاستيعابية للمركز، قسم منهم نقل إلى مستشفى السلمانية، حالات ثلاث أدخلت الانعاش.

الجماعة المسلحة هنا، لم تكن تعمل لوحدها، تزامنت مع ظاهرة جديدة انتشرت في الأيام الأخيرة قبل نزول قوات درع الجزيرة. يبدو أن الهدف منها هو التمهيدلهذا الدخول وتبريره. عصابات من المدنيين الملثمين يحملون أسلحة بيضاء، يهاجمون مناطق الشيعة، يعتدون على الناس ويحطمون سياراتهم وما يقع تحت أيديهم من ممتلكاتهم الخاصة. جرى تسميتهم (البلطجية)، على غرار التسمية التي أطلقها المصريون على العصابات التى هاجمت ميدان التحرير بالجمال والبغال والحمير وقذفوا الناس بالطوب والحجارة. وهي مجموعات مدفوعة الأجر، تقوم بأعمال عنف وتخريب ممتلكات خاصة، تحركها عناصر مدعومة من قبل السلطة، تهدف إلى زعزعة الأمن وإشاعة الذعر والفوضى، وإظهار أن الفوضى ناتجة عن هذه الحركة الاحتجاجية، الأمر الذي يبرر قمع النظام لها.

التسمية هنا تشابهت لأن الفعل تشابه، والهدف، كذلك النتيجة. الفرق أن المعتصمين في مصر كانوا يقومون بإلقاء القبض على (البلطجية) لتسليمهم إلى رجال الجيش. لكن في البحرين، كان هؤلاء يقومون بأعمال العنف والتخريب على مرأى رجال الأمن وتحت حمايتهم، وحين يتوجه المعتصمون بتقديم شكوى ضد أعمالهم التخريبية في مراكز الشرطة، لم تكن إجابة مراكز الأمن أكثر من «قدموا بلاغ».

هذه الجماعات سرعان ما عُمد إلى نشرها داخل المناطق والأحياء السكنية الشيعية. ففي الوقت الذي كان شباب هذه القرى يعتصمون في دوار اللؤلؤة، كان هؤلاء يشنون هجومات مسلحة على أهالي المنطقة.

مسلحون في المنامة

ثمة من يتساءل الآن، ما دخل هذه العصابات المسلحة، في ملف الكادر الطبي؟
باختصار، عدد من (الشيعة) تجري محاكمتهم الآن في القضاء العسكري بتهمة الاعتداء على آسيويين، عدد آخر من (الكادر الطبي) يحاكم أيضاً، بتهمة احتجاز مصابين آسيويين في مستشفى السلمانية كأسرى. كيف؟

في 17 مارس 2011، عرض تلفزيون البحرين مشهداً مصوراً لسيارة إسعاف، تقف وسط تجمهر

كبير داخل باحة مجمع السلمانية الطبي[3]. يُفتح باب الإسعاف لينزل منه عدد من الآسيويين المقيدة أيديهم وسط جمهور يهم بالهجوم عليهم، ينقطع المشهد. التقرير التلفزيونى المصور يقول: «ان هؤلاء المجرمين والخارجين على القانون (يعني الكادر الطبي) حولوا سيارات الإسعاف بمجمع السلمانية الطبى والتى يفترض بها أن تنقل وتسعف المرضى لكى تصل بهم الى المكان الذى يتم فيه العلاج من الألم والجرح، كما أظهرت المشاهد المصورة، حولوها إلى وسيلة للإرهاب تنقل الأبرياء إلى المكان الذى سيتم تعذيبهم فيه. وتساءل تلفزيون البحرين فى تقريره المصور: «هل هذه الممارسات غير الإنسانية وغير الأخلاقية هى ما يدعيه هؤلاء الخارجون عن القانون من أصحاب المطالب المشروعة كما يزعمون؟»

السؤال الذي لم يطرحه هذا التقرير المصور، ولن يطرحه، هو ما الذي جعل هؤلاء المتجمهرين غاضبين بهذا القدر على هذه المجموعة من الآسيويين «نحن شعب تعايش مع الاسيويين طوال عمره، لماذا الآن بالذات الاعتداء عليهم؟ ما الذي فعله هؤلاء وتسبب في هياج الناس بهذا القدر الذي أظهره المشهد؟ ولماذا لم نشهد حادث اعتداء على الآسيويين قبل هذا الحادث أو بعده؟» يرد أحد شهود من الكادر الطبي. آخر يضيف « في المشهد المعروض كان من الواضح أن الكادر الطبي يقوم بعمل سلسلة بشرية لحماية الآسيويين من المتجمهرين الغاضبين، لكن التلفزيون كان يُخبر أن الطاقم هو من يقوم بالضرب وهذا يكذبه المشهد ذاته».

ما هي الحكاية المخفيّة في سياق هذا المشهد؟

في أحياء المنامة العاصمة (13 مارس/ آذار 2011)، يتفاجأ الأهالي بعد صلاة العشاء، بعدد من الآسيويين مندسين من خارج منطقة المنامة، يحملون الجنسية الباكستانية والبنغالية، ينتشرون في أزقة المنامة، ويهاجمون المارة بالأسلحة البيضاء والعصي والأسياخ والحجارة. سريعاً ما وردت إصابات متفاوتة إلى مستشفى السلمانية، حالات تعرضت لإصابات بأسلحة بيضاء.

فريق آخر من الآسيويين كان يلقي الحجارة والطابوق من أسطح بعض المباني «كنت أسير في أحد الأزقة برفقة إحدى قريباتي حين أُلقيت علينا حجارة من سطح أحد المباني، وقعت كسرة منها على قدمي» تقول إحداهن.

الرسائل النصية تم تداولها سريعاً، عدد من الشباب المعتصمين في الدوار غادروا نحو المنامة لردع الهجوم. أيضاً، الشباب من سكنة المنطقة خرجوا لحماية أهاليهم، سريعاً ما اشتعلت الاشتباكات بين الطرفين «كان لا بد لنا من الدفاع عن أنفسنا وأهلنا، لقد دفعوا لهم ليهددوا حياة الناس

وليثيروا الرعب والفوضى، لم يكن ممكنا أن نتركهم يعيثون في مناطقنا السكنية ترويعاً واعتداء على أهلنا ونقف صامتين»، يضيف «الدفاع عن النفس ليس خروجاً عن السلمية».

يضيف آخر «لم يكن أمام شباب المنطقة سوى مواجتهم، عدد كبير منهم هم من رجال الأمن، لمن نشتكيهم إذاً؟» الاسيويون فروا للاختباء في بيوت المقيمين من الجنسية نفسها، الاشتباكات استمرت طويلاً. بعدها دخل بعض الاسيويين من سكنة المنطقة نفسها على خط الاشتباكات.

وغاضبون في السلمانية

النداء في السلمانية أعلن عن وجود مصابين من الطرفين، سيارات إسعاف خرجت لنقل المصابين برفقة أطباء منهم غسان ضيف. أحدها عاد بالجرحى من أهل المنامة، وآخر نقل الآسيويين، إصابات بليغة ل12 ممن يحملون الجنسية الباكستانية، بعضهم عسكريون «بينما كان الطاقم الطبي يقوم بمعالجته، تفاجأنا بأحد الاسيويين يرتدي لباساً عسكرياً تحت ثوبه» يقول أحد الشهود.

إحدى الطبيبات خرجت في سيارة إسعاف من أجل إحضار الجرحى من الطرفين، تروي مشاهدتها: «عندما وصلنا كان الاشتباك بين الطرفين، الآسيويون كانوا يحملون الأسلحة البيضاء، الشباب تمكنوا من بعض الآسيويين وقاموا بتقييدهم كي يأمنوا ألا يعاودوا الهجوم عليهم، الإصابات كانت من الطرفين، نحن أيضاً تعرضنا لهجوم من الاسيويين، كانوا عنيفين ومخيفين. حملنا المصابين من الطرفين في سيارات منفصلة، صرت في إسعاف الآسيويين،كنت أقدم لهم الإسعافات الأولية عندما صرخ فيّ أحدهم أن أفتح رباطه، ارتعبت وخفت أن يهجم علي، لم أستجب له، قدمت لهم الإسعاف اللازم حتى وصلنا المستشفى».

الجماهير كانت احتشدت منذ سماعها عن هجوم مسلحين على المنامة وعدد من القرى الشيعية. مع توافد حالات إصابات من الأهالي بعد صلاة العشاء مباشرة. يروي أحد أفراد الطاقم الطبي «المتجمهرون كانوا في حالة هياج بسبب تزايد حالات الاعتداءات من قبل الجماعات المسلحة في مناطق شيعية مختلفة قبل الهجوم على المنامة. ما إن يعرف المتجمهرون أن هذا الإسعاف يحمل آسيويين حتى يهموا بالهجوم عليه. المشهد المعروض يظهر هذا الهياج الغاضب، الأطباء كانوا يحمونهم. سلسلة بشرية من الطاقم الطبي تفصل الجمهور عن المصابين الآسيويين. تلقينا بعض الركلات نيابة عنهم. يوشك المتجمهرون أن يهجموا على الطاقم الطبي. صار اشتباك بين الطاقم الطبي مع المتجمهرين «الجمهور هائج، بعضهم أهالي المصابين والمفقودين، كانوا يعنفوننا في الكلام، ونحن نتحمل ونهدئهم ، كانوا يريدون الهجوم على الاسيويين وضربهم ونحن نمنعهم»

تقول إحدى الطبيبات.

تضيف إحدى الشهود «سمعت الطبيب علي العكري يصيح في الجماهير: وبعدين معاكم؟ نريد أن نعمل، نحن غير قادرين على أن نعالج مرضانا، أنتم تعرقلون عملنا». المصابون تلقوا العلاج المبدئي فقط من أطباء الطوارئ، لم يلبث أن جاء اتصال من الداخلية: سننقلهم إلى المستشفى العسكري ، تم نقلهم في الليلة نفسها.

العصابات المسلحة لم تتوقف، ما يزال مسلسل الإرهاب يجتاح القرى، مسلحون ملثمون يحملون الأسلحة البيضاء والحديد والخشب ويهاجمون الأهالي. ثمانية من البانغلاديشيين يتم إسعافهم إلى مركز صباح السالم. الحالات كانت متفاوتة، عندما أراد الأطباء نقلهم إلى مستشفى السلمانية رفضوا، قالوا نريد أخذنا إلى المستشفى العسكري .

غسان ضيف، الذي ركب الإسعاف بنفسه لينقذ المصابين الآسيويين، وتحمل توبيخ الجماهير الغاضبة عندما كان يحاول تهدئتها ليتمكن رجال الإسعاف من إنزال المصابين الآسيويين وإدخالهم غرفة الإنعاش، والذي قام بوضع رجل أمن عند باب الغرفة لحمايتهم من هجوم المتجمهرين الغاضبين، هو نفسه اليوم الذي تواجهه تهمة احتجاز رهائن من الآسيويين.

رعب مسلّح

في الحلقة السابقة، توقفنا عند حدث مساء (13 مارس/ آذار 2011)، هجوم المسلحين (البلطجية) من الآسيويين على الأحياء والقرى واشتباكهم مع شباب وأهالي هذه المناطق، وما حدث في منطقة المنامة. كان ذلك في المساء، مالم تسعنا المساحة للتوقف عنده هناك، هو أحداث اليوم نفسه في الصباح، فقد كان يوماً منهكاً للطاقم الطبي منذ الساعات الأولى من الصباح، حتى الساعات الأخيرة من الليل.

حدثان هزا الجميع صباح ذلك اليوم: ضرب المعتصمين عند المرفأ المالي، وحدث جامعة البحرين. إنه اليوم نفسه الذي أبدى فيه ولي العهد موافقته على مبادئ الحوار، أي قبل 3 أيام من الهجوم الذي أسمته الداخلية (تطهير الدوار) قبل (إزالته) كلياً. كان ولي العهد يدعو للبدء الفوري للحوار، في الوقت الذي عمت فيه فوضى المجموعات المسلحة الشوارع في كل مكان بهدف إجهاض مبادرة الحوار كلية[4]، وتبرير القمع الأمني الذي كان على بعد مسافة طريق، ودخل البحرين عبر جسر الملك فهد في اليوم التالي، إنها قوات درع الجزيرة.

في الشوارع وعند مداخل المناطق السنية، انتشرت المجموعات المسلحة بدعوى حمايتها من الشيعة[5]، كان أغلبهم بحرينيين مع عرب مجنّسين، أما في داخل المناطق الشيعية، فقد انتشرت الجماعات المسلحة من الآسيويين غالباً. الأيدي الخفية التي تحرك هذه المجموعات، هدفها استفزاز المحتجين وجرهم للعنف والاشتباك والخروج عن السلمية، ما يمهد للقمع على أنه وقف للفوضى. نجحت بالفعل هذه الأيادي الخفية في تحقيق مواجهات بين الشباب والمجموعات المسلحة داخل القرى الشيعية، أما في المناطق السنية فقد عملت هذه المجموعات على التعرض للمارين من الشيعة والهجوم عليهم، كما حدث في منطقة البسيتين والرفاع، كما حطمت هذه المجموعات واجهات المحلات المملوكة لرجال أعمال شيعة كمحلات أسواق 24 ساعة. كذلك تمّ حرق مقر جمعية وعد المعارضة في عراد بجزيرة المحرق في 13 مارس، قبل الهجوم على مطبعة صحيفة الوسط وتحطيمها في 15 مارس. كان كل شيء يسير بشكل موجه نحو إجهاض الحوار واستفزاز الشارع أكثر، الماكينة الاعلامية التي لم تكف عن الشحن الطائفي وتهييج غرائز الغضب عند الشارع السني من جهة، ونشر الرعب المسلح في الشوارع من جهة أخرى.

جمعية الوفاق أصدرت بياناً أدانت فيه انتشار المجاميع المسلحة، «الأمن في البحرين لم يعد متوافراً للمواطنين بعد انتشار مجاميع من المليشيات المسلحة التي تتعرض للمواطنين في مناطقهم وفي مؤسساتهم التعليمية والتي تستهدفهم بالآلات الحادة والأسلحة البيضاء»، محمّلة «الدولة المسئولية الكاملة عن هذه المجاميع المرتبطة بالمؤسسة الرسمية والذي بات واضحاً ارتباطها بأجهزة الدولة الأمنية بعد أن تخلت الدولة عن مسئوليتها في منع هذه المظاهر المسلحة التي أغلقت عدداً من الشوارع والطرقات وأقامت نقاط تفتيش وحواجز أمنية في عدد من مناطق البحرين».

كرٌّ عند المرفأ..

على الجانب الآخر، كان شباب 14 فبراير الذين يتحركون خارج إطار الجمعيات السياسية، قد بدؤوا بتصعيد مقابل. كانوا قد هددوا بأنه في حال تعرضت مسيرة الديوان الملكي (11 مارس/ آذار 2011) للهجوم من قبل رجال الأمن، فإنهم سيعتصمون أمام مرفأ البحرين المالي. المسيرة ضُربت كما أوضحنا في الحلقة السابقة، وجاء وقت تنفيذ التهديد.

المرفأ المالي، القريب من منطقة الدوار، تحول خلال الأحداث إلى رمز جديد، بعد أن كشفت جمعية الوفاق في مؤتمر صحفي قبلها بأيام، وثيقة تثبت بيع أرض المرفأ بسعر دينار واحد فقط لرئيس الوزاء.

كان الموعد المحدد للاعتصام أمام المرفأ المالي هو صباح 13 مارس، لكن منذ ساعات الفجر الأولى، بدأت تتوارد أخبار عبر التويتر والفيس بوك، أن مسلحين (بلطجية) بدؤوا بالتوافد إلى هناك بهدف إحداث فوضى وإلصاقها بالشباب المحتجين.

أعداد من الشباب غادروا الدوار نحو المرفأ مباشرة، نُقل أنهم تمكنوا من طرد المسلحين، وقاموا بإغلاق الشوارع أمام المرفأ ومنطقة السيف لمنع عودة المسلحين مرة أخرى ومنع الأمن من الوصول. إغلاق الشوارع تسبب في اختناق مروري عند الصباح الباكر. قوات الأمن تحركت لفتح الطريق العام[6]، تطورت الأحداث، ووقعت مصادمات بين الطرفين ، سريعاً ما شلت حركة المرور في جميع المناطق وتوترت الأجواء في جميع مناطق البحرين. الأمن قام بإزالة الخيم التي وضعها الشباب ليلاً. مئات الإصابات وصلت مستشفى السلمانية الطبي بين اختناقات بالغازات المسيلة للدموع والطلقات المطاطية[7]. المشاهد المصورة نقلت مناظر مأساوية، فيديو يظهر مواطن أعزل يتعرض لطلقات مباشرة ومتتالية وهو يقف في مسافة لا تتجاوز متراً واحداً، كان يحاول مخاطبة رجال الأمن بطريقة مؤثرة[8]. التوتر شل حركة البحرين بالكامل. سيارات الإسعاف لا تستوعب أعداد المصابين، السيارات الخاصة تنقل جرحى الأحداث.

وفرٌّ نحو الدوار..

الأمن يدعو المتجمهرين للتوجه إلى الدوار مكان الاعتصام، نداءات شبابية أخرى عبر وسائل التواصل الاجتماعي والهواتف النقالة تدعو للتواجد بكثافة في الدوار لمنع الأمن من مهاجمته، مواجهات المرفأ تنتقل إلى الدوار، قوات الأمن انتشرت فوق الجسر المطل على الدوار، تستمر قوات الأمن في إلقاء الغازات المسيلة للدموعب اتجاه الدوار، الشباب يصعدون نحو الجسر لسد الطريق على رجال الأمن ومنعهم من مهاجمة الدوار. المئات من حالات الاختناقات بالغازات المسيلة للدموع، تمت معالجتها داخل الدوار من قبل الكادر الطبي الذي كان متواجداً هناك. الخيمة الطبية لم تتسع للعدد الكبير من المصابين، الأطباء قاموا بفرش سجاد خارج الخيمة، لمعالجة المصابين على الأرض[9].الحالات الأصعب، تم نقلها إلى مستشفى السلمانية، «كنا داخل الدوار نواجه مسيلات الدموع، ونعالج الإصابات ولا ندري ماذا يمكن أن يحدث لنا بعد دقائق»،تقول إحدى الممرضات.

فريق آخر من الكادر الطبي يقف خلف الشباب الذين صعدوا باتجاه الجسر. مشاهد الفيديو تنقل قمع المحتجين باستخدام الغازات المسيلة للدموع والطلقات المطاطية بالإضافة إلى هجوم أحد رجال الأمن باستخدام الرصاص الحي. حملات كر وفر بين المعتصمين ورجال الأمن امتدت حتى

الساعة الحادية عشرة صباحاً قبل أن تنسحب قوات الأمن. المئات من المصابين، «كنا نقف خلف الشباب الذين يصعدون الجسر، ونراهم يتدحرجون بإصاباتهم من فوق الجسر إلى أسفله أمام أعيننا، سيارات الإسعاف تقف في الخلف قليلاً، من يسقط يتم نقله عبر سيارات بيك آب خاصة إلى الإسعاف الذي ينقله بدوره للسلمانية»، تخبر إحدى الطبيبات.

ورعب في الجامعة

أحداث المرفأ وترت أجواء البحرين بكاملها، بدأ الإعلان عن العصيان المدني، الكثير من الموظفين تركوا أعمالهم واتجهوا نحو الدوار. جامعة البحرين لم تكن خارج سياق هذا الحدث، أعداد كبيرة من الطلاب خرجوا في مسيرات غاضبة ومنددة داخل مباني الجامعة عند الساعة 9:30[10]. مناوشات جزئية حدثت بين الطلاب المحتجين والطلاب الموالين، المناوشات طبيعية ومحدودة، لكن دخيلاً، حول الجامعة إلى مكان رعب حقيقي.

عشرات من المسلحين بالحديد والعصي والأخشاب المزودة بالمسامير يسمح لهم بالدخول عبر بوابة الجامعة [11]، [12]، المسلحون يتوجهون للطلبة المحتجين مباشرة ويقومون بالهجوم عليهم وضربهم وإصابة العشرات منهم. الطلاب يقومون من فورهم بعمل سلسلة بشرية لحماية الطالبات. المسلحون يهاجمون المباني ويرعبون الطلبة[13]. أمن الجامعة وإدارتها لا تفعل شيئاً، الرعب والصراخ ينتشر في كل الجامعة.

نداءات إغاثة عبر الهواتف المحمولة وصلت إلى المعتصمين في دوار اللولؤة الذين كانو للتو استعادوا وجودهم في الدوار. عدد من الشباب يغادرون فوراً متجهين إلى الجامعة، إسعاف مجهز بطاقم طبي يخرج معهم، «خرجنا إسعافا واحدا فقط لأننا لم نكن متأكدين من صحة الخبر، أردنا التأكد قبل استدعاء عدد آخر من الطواقم الطبية» تقول إحدى الطبيبات. إحدى أفراد الكادر الطبي التي تواجدت بين الساعة 12:00-1:30 في الجامعة تروي لمرآة البحرين ما تعرضت له «كنا في الدوار نعالج مصابي المرفأ والدوار عندما وصل خبر الجامعة. إسعاف واحد ركب فيه أربعة من أفراد الطاقم الطبي. لم نمنع من الدخول، وهناك إسعاف من المستشفى الدولي سبقنا بالوصول، لكن عدداً من سيارات الإسعاف التي أتت بعدنا تمّ منعها».

في مشهد فيديو يروي أحد الأطباء «لم يسمح لنا بالدخول، قلت له أنا طبيب ألا ترى لباسي، كان يسألني هل أنت من مستشفى قوة الدفاع أم من السلمانية، قلت له ما الفرق جميعنا نعالج المرضى، لم يسمح لي بالدخول»، المشهد أيضاً يظهر بعض الحالات التي شهدتها مستشفى السلمانية في

ذلك اليوم والغضب الذي أخذ الكوادر الطبية تجاه ما حدث في الجامعة ذلك اليوم[14].

تروي الطبيبة تجربتها لمرآة البحرين «رأينا عند دخولنا مجموعة من الرجال، بعضهم لا يمكن أن يكون في سن الجامعة، يحملون أسلحة بيضاء، أخشاباً بها مسامير، وسيوفاً غريبة، كان ذهابنا في إسعاف واحد فقط للتأكد أن ما وصلنا من أخبار حقيقة وليس إشاعة. تفاجأنا بما رأينا من مشهد مخيف، الأمن والشرطة مع العشرات من المسلحين، معظمهم ملثمون، يرتدي عدد كبير منهم الثوب العربي ويقفون مع رجال مكافحة الشغب».

نزل الكادر الطبي وقام بالانتشار في الجامعة لتفقد الإصابات حاملاً عدة الإسعافات الأولية «معظم الحالات التي عالجتها كانت صدمات عصبية، البعض كان مضروباً بأدوات حادة» تكمل الطبيبة. طبيب آخر عالج طالباً من المحتجين، كانت إصابته جرحا كبيرا في يده، أسعفه إسعافا أوليا، وحمله في حافلة صغيرة إلى مستشفى السلمانية حوالي الثانية والنصف ظهراً. الأطباء أسعفوا الطلاب من الطرفين وحملوهم في الإسعاف نحو السلمانية.

تكمل الطبيبة الحادثة التي عاينتها «عند مبنى اللغة الإنجليزية التقت أكثر من مجموعة من الطواقم الطبية، كانت قد دخلت لاحقاً. أحد الأطباء (الكبار) أكد علينا: «نحن هنا من أجل معالجة الجرحى من الطرفين، ليس يعنينا من المُعتدي ومن المُعتدى عليه» الاشتباكات ما تزال قائمة بين الطرفين المحتجين والمناوئين والمسلحين بالإضافة إلى شباب الدوار الذين أتوا لنصرة الطلاب، الجميع اشتبك في العنف هذه المرة. لم يوقف الأمن الاشتباكات «عالجنا بعض حالات الجرح القطعي» تقول.

الأمن لحماية المسلحين..

بعد نصف ساعة من الاشتباكات، أتت قوات مكافحة الشغب، ألقت الغازات المسيلة للدموع على الشباب، ووقف إلى جانبهم المسلحون «تعجبنا مما شهدناه، لكننا وقفنا جانباً كي نكون بعيدين عن الصدامات. اثنان من أمن الجامعة كانا يرافقاننا، أحدهما من المذهب الشيعي والآخر من المذهب السني. خرج علينا أحد المسلحين يرتدي سروالا قصيرا، أكبر سناً من أن يكون طالبا، هجم على الطبيب الذي كان معنا وقال له بنبرة تمتلئ بالتهديد: تعالجونهم ها؟ حاولنا أن نفهمهم بأننا هنا لمعالجة الطرفين. تقدم نحوه أحد رجال مكافحة الشغب وأمسكه، لكنه سرعان ماتركه مرة أ خرى. فهجم من فوره على إحدى الممرضات التي كانت تقوم بالتصوير، أمسك ثيابها من ظهرها والقاها على الأرض وقال لها الكلام نفسه. كنا نرتدي ثيابنا البيضاء ولا نحمل في

أيدينا سوى سماعة الطبيب» تواصل الطبيبة» تقدم نحونا آخر من المسلحين أيضاً يرتدي ثوباً، قام بمهاجمة إحدى الطبيبات والأمن واقف لا يعمل شيئاً». تم نشر هذا المقطع على اليوتيوب، ولكن تم تحريفه بأن من هاجم الطاقم الطبي هو من المحتجين الشيعة يهاجم الطبيبات[15].

الإسعاف كا واقفاً، وبه عدد من الجرحى، قوات الأمن ألقت قنبلة صوتية على الإسعاف. شظايا زجاج الإسعاف أصابت عين إحدى الممرضات، وأحد الأطباء في رقبته. الإسعاف يفر بمن فيه، ويبقى 9 أفراد من الكادر الطبي واقفين دون سيارة إسعاف «صرنا في حالة شديدة من الخوف والرعب، المسلحون يحيطون بنا ونحن لا نعرف ماذا يمكن أن يفعل بنا هؤلاء، حياتنا مهددة ونحن عزل. فررنا من فورنا والمسحلون يلاحقوننا، أمامنا واحد من رجال أمن الجامعة وخلفنا الآخر، فتحا لنا باب أحد المباني. أقفلا الباب من الخلف، لم يلبث أن جاء المسلح الأول وحطم الزجاج الموجود في الباب. سألنا الأمن: هل هناك مخرج آخر؟ قال: لا. أخذنا إلى داخل أحد الصفوف. أقفل المصابيح والباب. كنا في رعب حقيقي، كان الموت قريباً من أنفاسنا، بقينا قرابة الساعة هناك. قال رجل الأمن: سأخرج لأرى الأوضاع وأعود إليكم. بعد ربع ساعة أخرجنا، قال: الوضع صار آمناً.

تضيف الطبيبة: «أركبونا في إحدى حافلات الطلاب. بينما الحافلة تسير بعد استتباب الأمن، كنا نشاهد رجال الأمن يمشون جنباً إلى جنب مع المسلحين الذين هجموا علينا قبل قليل، نطالع بعضنا مستنكرين، أُخذنا لمبنى إدارة الجامعة، بقينا هناك قرابة ساعة ونصف، إلى أن أتى الوكيل المساعد أمين الساعاتي مع علي إبراهيم نائب رئيس الأطباء، وتسلمونا بسيارة إسعاف وأعادونا للسلمانية».

بعد يوم طويل ومهلك، الأطباء ينقلون التفاصيل للقنوات الاعلامية المختلفة[16]، [17]، غضب السلطة يشتد تجاه فضح الأطباء أكثر، يصير التخلص منهم مهمة عاجلة أكثر.

تقدير من نوع آخر

لم يعد الطاقم الطبي خارج الحدث، بل صار جزءاً منه، لا يعود ذلك فقط إلى أن القتلى والجرحى يمرون من خلاله، بل لأنه صار معرضاً للخطر مثله مثل باقي المحتجين السلميين، رأينا في الحلقة السابقة ما تعرض له الطاقم الطبي في جامعة البحرين من ضرب وتهديد على ممارسته دوره الإنساني والمهني في إسعاف الجرحى والمصابين، في هذه الحلقة المزيد من المعاقبة والملاحقة والتنكيل.

حنين البوسطة طبيبة شابة تعشق عملها. خلال سنواتها الجامعية، فازت في المسابقة التي تنظمها جامعة الطب في أوكرانيا. حصلت على المركز الثالث بين العلماء الشباب دولياً[18]. هكذا كرّم المجتمع الدولي نبوغها وتفوقها، وهي لم تزل طالبة في مقاعد الطب، لكن في يوم 15مارس 2011، كانت جائزة تقديرية من نوع آخر تنتظر حنين بعد أن صارت طبيبة، هذه المرة جائزة خاصة من بلدها. حنين نقلت ما تعرضت له إلى صحيفة الوسط ونشرت في اليوم التالي[19]، ووثقتها في مضابط الأمن أثناء التحقيق معها فيما بعد. هناك تفاصيل أكثر مما تمّ نشره، حصلت عليها مرآة البحرين من إحدى المقربات.

في البيت، آتية من نوبة ليلية في الخيمة الطبية في الدوار، لم تنم سوى ساعات قليلة، الساعة العاشرة والنصف صباحاً، يتصل بها أحد المسعفين: «تعالي الآن، لقد تم ضرب منطقة سترة»من فورها نهضت مرتدية ملابسها، حاولت أمها منعها، كذلك فعل أخوها. صرخا فيها ألا تذهب، لم تأبه، راحت تجهز عدتها للخروج. آخر ما سمعته كانت صرخة أمها تنادي اسمها وهي تغادر للخارج، علمت فيما بعد أن والدتها قد فقدت وعيها إثر خروجها. في السلمانية، وقفت تبحث عن اسعاف يقلها إلى سترة، حافلة صغيرة بها جريح تدخل السلمانية، تساعد حنين في إنزال الجريح، تركب، تغلق الباب خلفها، يتوجهون لجزيرة سترة.

عند مشارف سترة، سترى الحاويات التي استخدمت لإغلاق الشوارع منعا لدخول قوات الأمن، وسترى حجارة ملقاة على الأرض في كل مكان، وفي مركز سترة الصحي، حالات ممدة على الأرض. أعداد من الجرحى تعرضوا لاستنشاق الغازات المسيلة للدموع وإصابات الطلق الانشطاري (الشوزن)[20]. عملت حنين على معالجة حالات الشوزن، الجروح الأكبر يتم نقلها لقسم التمريض. عند مدخل المركز تجمهر كبير[21]. سلسلة بشرية تعمل على تنظيم الدخول وفتح الطريق للحالات التي تصل. عند الباب يقف أحد الأطباء يقوم بمعاينة سريعة للاصابات لتوجيهها للمكان الأنسب للمعالجة[22].

لن أنتظر جثثاً تأتي

مع اقتراب وقت الظهر، كان عدد الجرحى آخذاً في الإزدياد»بدأنا نشم رائحة الدم، ونراه أكثر، شعرنا أن الموضوع بدأ يحمى، صار ترقبنا يتوجس الأسوأ» يروي بعض الحاضرين من الطاقم الطبي. لم يلبث الظهر طويلاً حتى كان الدخول المفجع لفرحان، وارتجاج المركز بمن فيه. أكثر من 15 دقيقة مرت بعد أن غادر الإسعاف خارجاً بفرحان نحو مستشفى السلمانية من أجل استصدار شهادة الوفاة، بقى خلالها الطاقم الطبي في ذهوله الذي لم يغادره بعد، الصياح ما يزال يغلب على

الكلام، والصدمة تخيم على المكان.

حنين، بعد صمت مفجوع بمنظر فرحان تصرخ: « لن أبقى في المركز هنا وأنتظر الجرحى يأتون موتى، سأذهب إليهم حيث هم، لن أنتظر جثثاً تأتي» توجهت لأحد المسعفين: «غير قادرة على التحمل، خذني الآن، خذني إلى هناك مباشرة»كان المسعف يدخن سيجارته بقهر، أخذ نفساً عميقاً، نظر الى عيني إصرارها:اركبي، قال لها.

اقتربا من المواجهات، صارت حنين تقف وراء الصف الأول الذي يواجه قوات الشغب مباشرة بأيدٍ عزلاء. بدأ الطلق المطاطي في الهواء، على حاويات القمامة، صوت مخيف يخرج، الشباب يصرخون «الله أكبر»، يزدادون ولا ينقصون، يقتربون أكثر، تبدأ الغازات المسيلة للدموع تصير أكثر كثافة، حالات الإغماء تتزايد، الشباب يسحبون الحالات المصابة باتجاه حنين، يصير الطلق أكثر عنفاً، الضربات تصير مباشرة، الرصاص الانشطاري والمطاط[23]. مع كل هجوم كان الشباب يتطافرون إلى داخل البيوت، ثم لا يلبثون أن يعودوا «لم يكونوا ينكسرون، لم يكونوا يكلون، كر وفر لا ينقطع»، يقول أحد الشهود.

من يسقط من الشباب يحمل في سيارة (بيك أب) وينقل إلى سيارة الإسعاف التي تقف في منطقة أبعد عن الشباب. رسمياً لا يسمح للإسعاف بالتجاوز إلى المناطق الخطرة، في هذه الأثناء كانت سيارات الإسعاف لا تسكت ذهاباً وإياباً.

الشباب الآن أكثر قرباً من رجال الأمن، الضرب صار أشد، وكذلك التساقط. المسعف يقول لحنين: دعينا نذهب، الوضع صار خطيراً جداً. حنين تجيبه: لكن الشباب يتساقطون. يجيبها: سيأتون بهم إلينا. يتجهان نحو الإسعاف الذي يقف بعيداً، في المسافة، تقف سيارة تقودها إحدى السيدات من نساء سترة، تقول لهم: اركبا سريعاً. يصعدان السيارة. السيدة تسأل حنين: أنت طبيبة؟تجيبها بنعم. تخبرها عن جرحى في أحد البيوت، يحتاجون إلى معالجة ولا يستطيعون الخروج بسبب المحاصرة الأمنية، تسألها إن كان بإمكانها المساعدة. كانت حنين تحمل معها عدة الإسعافات الأولية، ينطلقون جميعاً إلى هناك.

لمس الموت..

الإصابة رصاص إنشطاري (شوزن) في الوجه. قامت حنين بتسكير الجروح. الشاب يريد أن ينهي علاجه بسرعة كي يخرج مرة أخرى. يريد أن يعود ويخرج مرة ثانية. سيارات الأمن تحاصر البيت

من الخارج، الوقت عصراً. أهل البيت أغلقوا الباب والمصابيح، يجلس الجميع في صالة البيت في صمت مريع»كنا نسمع أنفاس بعضنا» تخبر حنين. أخرجت دفتراً صغيراً من حقيبتها وبدأت تكتب «شعرت أنها ربما تكون النهاية» كان شريط اليوم يمر على ذاكرتها، وصورة والدتها التي صرخت باسمها قبل أن تغادر، راحت تكتب عن البيت الذي تجلس فيه الآن مرتاعة، كتبت لأهلها، كأنها الوصية»الله إذا لم يكتب لي أن أعيش بعدها، على الأقل هناك ما يبقى ليخبر عن لحظاتي الأخيرة» تروي المقربة عن ما سمعته من حنين.

ساعة ونصف، كان الصمت والرعب هما سيدا المكان، في هذه الأثناء جاء اتصال هاتفي من مركز سترة الصحي، يُخبر أن قوات الأمن قد حاصرت المركز بالكامل وأن قوات مكافحة الشغب اقتحمت المركز، طلبت حنين أن يقوم أحد بإيصالها للمركز. السيدة تخبرها أنها ستأخذها بنفسها، لكن ترجوها الانتظار حتى يصير الوضع خارج المنزل أكثر أماناً. ينظر البعض عبر النافذة، لا سيارات أمن قريبة من البيت فيقررون الخروج.

في الطريق الآن، قليل من الضوء بقى قبل حلول الظلام، والشوارع فارغة من الناس والسيارات. ليست سوى السيارة التي تقودها السيدة التي وصفتها حنين بالحديدية «شعرت أن لها دقات قلب ثابتة، وأن أدرينالين الخوف لا يعرف طريقه إلى قلبها» سيدة ثلاثينية، تجوب الشوارع المهددة بالموت، فيما أبناؤها خرجوا قبلها يواجهونه.

طائرات الهوليكوبتر تحلق في أجواء المكان، السيارة تمر عبر (زرانيق ودواعيس) وممرات داخلية في المنطقة، المكان كله رائحة الغازات المسيلة للدموع. لم تكن المسافة بعيدة، لكنها كانت طويلة جداً ومتعثرة ومخيفة، في أحد الشوارع الفرعية، يتفاجؤون بسيارات أمن تسير متتابعة، كان عددها 12 سيارة، تأتي من الجهة المقابلة. الجميع جمد في مكانه فيما قامت السيدة التي تقود السيارة بلف السيارة على شكل الحرف U، وركنتها جانباً وأنزل الجميع من فورهم رؤوسهم تحاشياً للطلقات المباشرة. الغريب، أن سيارات الجيب مرت مسرعة دون توقف فيما يبدو أنها متجهة لمهمة مستعجلة. لم يصدق الجميع ما حدث، وأنهم نجوا، تنفسوا الصعداء، بهدوء قالت السيدة (الستراوية): الآن نستطيع مواصلة طريقنا.

من ينقذ الإسعاف؟

الشوارع كانت حالة من الفوضى العارمة، حاويات القمامة ملقاة في كل صوب، والأحجار متناثرة هنا وهناك. رن الهاتف، أجابت السيدة. التفتت نحو حنين تسألها: هناك جرحى في أحد البيوت؟

لم تتردد حنين.

قرعوا جرس الباب، فُتح لهم، الدماء كانت طريق حنين للداخل دون أن يقودها أحد. في الداخل كانت تنتظرها أربع حالات: كسر في الركبة، شوزن في الذراع، شوزن في الوجه بما فيها العين، شوزن في المؤخرة. الأول: أزالت حنين الشوزن من المناطق القريبة من العين والفم، وقامت بسد الجروح السطحية الباقية. أما الأخير، فقد كان ينزف بكثرة، كان دمه هو المسال طوال البيت، تجنبت حنين نزع الشوزن من مؤخرته، لأن انتزاعه يعني المزيد من النزف، ورأت أن بقاء الشوزن مؤقتاً سيعمل بمثابة سد مؤقت للجرح حتى يتم نقله للمركز.

المسعف اتصل بآخر ليأتي لأخذ الحالات ونقلها، كان الظلام قد نزل. وصل الإسعاف، قال لنا: فلنخرج بسرعة، الهوليكوبتر تراقب، ركب 5 من الجرحى، و3 من الطاقم الطبي. الإسعاف اكتظ بالعدد لا مكان للوقوف أو الجلوس، وبينما حنين تقفل باب الإسعاف من الخلف، لمحت سيارة أمن قادمة، الإسعاف تحرك بسرعة مجنونة بحثاً عن مهرب. الهوليكوبتر تلاحقهم من السماء وسيارة الأمن من الخلف. الجميع في توتر ورعب، البعض كان يتشهد، البعض يقرأ آيات قرآن، حنين صارت تردد: وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، الجميع قام يردد بصوت واحد. شعر الجميع أن ساعة الموت قد وصلت، وأن كل شيء قد شارف على الانتهاء.

دقائق مرت كأنها ساعات، أخذ السائق نفساً وقال: خلاص يبدو أننا ضيعناهم. تنفس الجميع، لكن قلوبهم لم تتوقف عن ضرب طبولها على صدورهم المرعوبة. ليست إلا دقائق، حتى يتفاجأ الجميع بسيارة أمن تأتي من الأمام، تلحقها أربع أخريات، تحاصر سيارة الإسعاف. أوقف السائق السيارة. أطفأ المصابيح، صمت مرعب، ثم قال: أنا آسف سامحوني.

من يُسعف المسعف؟

نزلت قوات مكافحة الشغب، فتحوا باب السائق. أنزلوا أولاً المسعف أمين الأسود (انظر مرآة البحرين: المسعف الذي كسر درع الجزيرة رقبته)[24]. أنزلوه وضربوه بعنف دون توقف وبلا رحمة، «كنا نسمع صوت رفساتهم وأحذيتهم تخبط في جسده»يقول زملاؤه، طرقوا بأسلحتهم الباب الخلفي. قالت حنين للآخرين: سأنزل أنا، ربما لأني فتاة سيكون الوضع أخف. فتحت الباب، كانت ترتدي رداءها الأبيض. ما أن وضعت رجلها على الأرض حتى تلقت صفعة قوية على وجهها اختل توازنها على إثرها وسقطت على الأرض، لم تستوعب حنين صدمة الصفعة ولا حرارتها ولا قسوتها ولا سببها، صرخ فيها الضابط البحريني: أنزلي رأسك وازحفي على الأرض. زحفت حنين نحو

الرصيف وأمرها بالبقاء فيه. فيما أنزل رجال الأمن الآخرين وربطوا أيديهم من الخلف برباط بلاستيكي حاد وتولوهم ركلاً ورفساً بالأحذية والأسلحة «يفركون أحذيتهم على وجوههم»يجتمع فوق الواحد من الشباب 6 من رجال الأمن يشبعونه ركلاً جماعياً من كل الجهات دون توقف ودون تمييز بين اليد والرجل والظهر والوجه والرأس، كل مناطق الجسد مشاعة ومباحة للركل والضرب من قبل رجال الأمن الباكستانيين.

ألقوا قنابل صوتية على عجلات سيارة الإسعاف، فجروها[25].عاد الضابط إلى حنين وسألها: انتو شنو تسوون هني؟ أجابت: نحن سيارات إسعاف ننقل الجرحى. صرخ: هل تسمين هؤلاء جرحى؟ رفعت كفها نحوه وقالت: «اليد التي عالجت هؤلاء اليوم، هي نفسها اللتي حملت بالأمس الجرحى الباكستانيين المشتبكين مع الشباب، نحن مهمتنا علاج المصابين أياً كانوا» قال: أنا رجل، ولو لم أكن رجلا لكنت ضربتك، ثم هددها بالتعرض الجنسي لها، كرر تهديده عدداً من المرات.

التفت بعدها نحو الشباب، أمسكت حنين بطرف بنطاله: لا تضربوهم كفاية، صاحت. صرخ فيها: شيلي يدك، ذهب لرجاله وقال لهم: بس خلاص، ثم التفت نحو حنين وقال: أحضري مقصا، من فورها قامت حنين بقص الرابط البلاستيكي عن الشباب وزملائها المسعفين.

سقوط أمين

الجميع تمكن من القيام من مكانه، عدا أمين، لم يكن قادراً على الحركة ولا الكلام، عيناه تتحركان والدموع تخرج من الجانبين. لم تتمكن حنين من تمييز إصابته سريعاً. قالت له: إذا تسمعني أغمض عينيك، فعل أمين. قالت له: إذا تشعر بألم أغمضها مرتين، فعل أيضاً، المسعف الآخر قام بالبحث عن بيت قريب يدخلونه، يطرق الأبواب لكن الجميع خائف ولا يعرف من وراء الباب، أحدهم فتح، ودخل الجميع. كان أمين في حالة مخيفة، بقت حنين تحاكيه طوال الوقت خوفاً من أن يفقد وعيه: يجب أن تكون بخير، تقول له. يرن هاتفه، تطالعته حنين: إذا تريد أرد على هاتفك أغمض عينيك، يفعل، ترد على الهاتف، كانت زوجته قلقة عليه، تخبرتها أنه بخير وأنه مشغول مع الحالات في المركز.

بدأت أطراف أمين تصير باردة، حاول زملاؤه إحضار (السيلان) خوفاً من أن يصيبه هبوط في الضغط، خرج أحدهم ليحضر (السيلان) من سيارة الإسعاف. عاد سريعاً، ثمة قنّاص يقف عند سيارة الإسعاف قام بإطلاق النار، بعد ٤٥ دقيقة خرج بعض الشباب مرة ثانية وأحضروا الأدوات اللازمة من الإسعاف، أمين لم يقبل أن يوضع له (السيلان)، كان يشير بعينيه باتجاه مصاب آخر

يتأوه، يعني أنه أحق بالعناية منه.

مغامرة العودة

3 ساعات يقضيها الطاقم الطبي في ذلك البيت، يتم الاتصال في السلمانية ليأتي إسعاف ينقلهم، لم يكن ممكناً دخول الإسعاف في سترة المحاصرة. بعد 20 دقيقة يحضر شباب سترة سيارتين كبيرتين (فان). السيارتان تجوبان الطرق بحذر مخيف، الدقائق طويلة ومرعبة، الأجساد متهالكة من شدة التعب والروع. كم كان يومك طويلاً يا سترة!!

أخيراً يتمكن الشباب من الوصول إلى شارع آمن، ومنه يتوجهون إلى السلمانية. وهناك كانت هستيريا أخرى، وتجمع حاشد آخر، وقصص أخرى. يتم نقل المسعف أمين والشباب المصابين على الفور. رولا الصفار تحتضن حنين. حنين لا تصدق أنها عادت، وأنها ما تزال على قيد الحياة. جسدها يئن بعد عنف يوم طويل، وطاقتها استهلكت فوق ما فيها، تنام في المستشفى. لكن هل سترتاح؟

التطهير..

يمكننا أن نقول إنه منذ إقرار قانون السلامة الوطنية ودخول قوات درع الجزيرة عبر جسر الملك فهد رافعين علامات النصر، دخلت البحرين مرحلة جديدة: إنها مرحلة التطهير، وما حدث في سترة، كان جزءا من هذا المشروع. التطهير الذي أعلنته القيادة العامة لقوة دفاع البحرين في بيانها في يوم 16 مارس: «تعلن القيادة العامة لقوة دفاع البحرين إنه صباح هذا اليوم الاربعاء الموافق 16 مارس 2011م بدأت قوات من الأمن العام والحرس الوطني وبمساندة من قوة دفاع البحرين بعملية (تطهير) دوار مجلس التعاون والمرفأ المالي ومستشفى السلمانية وما حولهم وإخلائهم من الخارجين عن القانون الذين روعوا المواطنين والمقيمين وأرهبوهم وأساءوا للاقتصاد الوطني وقد تم تنفيذ العملية حسب الخطة الموضوعة لها بكفاءة واحتراف مع مراعاة السلامة للجميع». هذه الأخيرة، لم تعرفها البحرين منذ ذلك التاريخ (مراعاة السلامة للجميع).

التطهير مصطلح يستخدمه الطب كما تستخدمه السياسة. في الطب هو إجراء وقائي يستخدمه الأطباء من أجل حماية حياة الإنسان، لكن في السياسة هو إبادة الإنسان واضطهاده من خلال السجن أو القتل أو التهجير. الأطباء خلال الأحداث كانوا يقومون بتطهير المناطق التي تستلزم عمليات جراحية لحماية المصابين، لكن السلطات البحرينية التي أعلنت قيامها بعملية الـ(تطهير)، كانت تستحضر نموذجاً قريباً من التطهير العرقي الذي جرى استخدامه منذ مذابح يوغسلافيا

السابقة عام 1990 ومذابح راواندا.

إنه التطهير من أجل التخلص، التخلص من نصف الشعب الذي أزعج السلطة بسقف مطالب تجاوزت خطوطها الحمراء. هكذا بدأ التخلص من كل من احتج، كل من رفع شعارا، من طالب، من هتف، من تعاطف، من ذهب إلى الدوار، من شارك في مسيرة، من صرّح، من نشر، من فضح، من تعاون مع الإعلام، وبطبيعة الحال، كل من عالج المصابين خلال الأحداث. الأطباء كانوا جزءاً من هذا الوجود الذي صار مزعجاً للسلطة ومهدداً لصورتها الزائفة في الخارج. لهذا كان (تطهير) مستشفى السلمانية من الأطباء والكادر الطبي، هو الحدث الملازم لـ(تطهير) الدوار من المحتجين. ورغم تجريم استخدام كلمة تطهير عالمياً باعتبارها فعل جريمة، ورغم حساسية استخدامها في الثقافة الدينية باعتبارها تقابل النجاسة، فإن النظام لم يتورع من استخدام هذه الكلمة في بيان داخليته، ولم يخجل دولياً، لا إنسانياً، من تكرارها في صحافته وإعلامه.

تطهير مدنّس

منذ ساعات الفجر الأولى لصباح يوم الأربعاء (16 مارس/ آذار 2011)، كان الدوار يستعد للهجوم المرتقب[26]. عند الساعة السادسة، انقطعت وسائل الاتصال فجأة، «حاولنا الاتصال بالشباب في الدوار لنطمئن على الوضع، لكن الاتصال مقطوع» تم الهجوم، قوات الجيش والأمن والحرس الوطني تحاصر الدوار، طائرات الكوبرى الحربية تحوم حول الدوار وتقوم بإطلاق الرصاص الحي[27]، طائرات عمودية تحلق في كل مكان، أرتال من الجيش في الشوارع لمواجهة المحتجين العزل[28]، الشوارع المحيطة بالدوار مغلقة بالكامل بآليات الجيش والدبابات والمدرعات، القناصة ينتشرون في أعلى البنايات[29]،»حاولنا الوصول إلى الدوار، كانت الشوارع المحيطة بالدوار مغلقة بالكامل، ذهبنا من جهة النعيم، فشاهدنا رجال الأمن والجيش يتكدسون فوق مركز شرطة النعيم، ويوجهون بنادقهم لضرب من يمر باتجاه الدوار، كان المشهد مرعباً، عدنا» يقول أحد الشباب.

في الدوار، فرّ البعض باتجاه البيوت القريبة، لكن عدداً آخر بقي صامداً لأطول مدة ممكنة قبل نجاح قوات الأمن والجيش في السيطرة على الدوار بعد تكثيف الهجوم. مواجهات طويلة عاشها الشباب الأعزل قبال آلات الجيش، فيديو يُظهر عدداً من الشباب العزل يخاطبون الأمن مستنكرين: لا سلاح لدينا، لتهاجمونا بالدبابات؟[30]. لم يكن الانسحاب بالسهولة التي صورها بيان وزارة الدفاع، الشباب الذين كانوا قد أغلقوا الجسر لمنع قوات الجيش من الوصول إليهم، تعلقوا فوقه وصاروا يقرعون على الحديد احتجاجاً، قبل أن يداهمهم رجال الأمن راجلين من أسفل الجسر، ويلقوا عليهم الغازات المسيلة للدموع والرصاص المطاطي والانشطاري[31]. ملاحقات انتهت

بسقوط عدد كبير من المصابين الذين منعت عنهم سيارات الإسعاف[32]،ومنع عنهم مستشفى السلمانية المحاصر من قبل رجال الأمن وآليات الجيش. تم أخذ المصابين في سيارات خاصة إلى مركز النعيم القريب من الدوار، والمستشفى الدولي[33]، ومستشفى ابن النفيس التي فتحت أبوابها لتلقى الإصابات.

في هذا اليوم سقط جعفر محمد عبد علي سلمان (41 سنة) من كرانة، وأحمد عبدالله حسن (23 سنة) من مدينة حمد، سجلت وفاتاهما في المستشفى الدولي[34]،في حين سجلت وفاة الضحية الثالثة جعفر عبدالله معيوف (30 سنة) في مستشفى ابن النفيس. كما قتلت رصاصة حية آسيويا (48 سنة) يعمل حارسا في إحدى الشركات في قرية الحجر، وكانت طائرة تحلق بالقرب من المنطقة، ظل ينزف على إثرها ساعة ونصفاً من دون إسعاف حتى فارق الحياة. جمعية الوفاق أعلنت عن اختفاء 30 شخصاً لم يعرف عنهم شيئ.

«العسكر الذي لم يعرف ساحة حرب حقيقية من قبل، كانت هذه تجربته الأولى ليختبر مهاراته في الهجوم والاحتلال والتدمير والقتل والبطش والفتك، لهذا لم يبقَ شيء يخص الحرب إلا وأحضره بنية الاستخدام في ذلك اليوم، وكانت ساحته كلاً من منطقة سترة والدوار ومستشفى السلمانية» يقول أحد المراقبين. لقد نفّذ الجيش أمر التطهير، فدخل في حرب غير مقدسة، طرف في كامل عتاده يقابل طرفا في كامل عزله، استبسلاً لعسكر في معركته التي سيحمل خزيها طيلة تاريخه، إنها الحرب المدنّسة.

موالون غائبون

عند مستشفى السلمانية، كانت آليات الجيش بدأت محاصرتها لمداخل مجمع السلمانية الطبي، قبل أن تتم محاصرته بالكامل، وقبل أن يتم منع الدخول والخروج، بما فيها سيارات الإسعاف. «وصلت السلمانية لدوامي المعتاد، كانت الساعة السادسة والربع صباحاً، تفاجأت بالمستشفى محاصرة بآليات الجيش، منعوني من الدخول»،تقول إحدى الطبيبات. منذ الصباح الباكر بدأت أخبار ضرب الدوار تصل. أصوات الطائرات العمودية تحلق في الأجواء. الكادر الطبي محاصر وممنوع من الخروج، ينتظر أن تأتي إصابات لمعالجتها، خاصة مع توارد الأنباء عن سقوط أعداد من المصابين، لكنّ لا شيء يصل.

عدد كبير من الأطباء والكادر الطبي، قضوا ليلتهم نائمين في المستشفى تحسباً لأي طارئ. «كان كل شيء يشير إلى أنه في هذا اليوم سيتم الهجوم على الدوار». لكن عدداً آخر من الأطباء، كان

قد توقف عن الحضور للمستشفى قبل محاصرة المستشفى بيومين. الطبيب عيسى الشروقي منسق برامج التدريب بوزارة الصحة، أرسل عدداً من أطباء الموالاة، إلى المستشفى العسكري، وهو المستشفى الذي سينقل إليه المصابون فيما بعد، كذلك إلى مستشفى الملك حمد الجديد، الذي لم يكن جاهزاً حينها، لكن تمّ فتح وتجهيز قسم الطوارئ فيه قبل يومين فقط من الهجوم على الدوار ومحاصرة السلمانية، ما يكشف التخطيط لنقل المصابين إلى هناك دون مستشفى السلمانية. نُشر في الصحف الرسمية «تم تجهيز قسم الطوائ في مستشفى الملك حمد الجامعي بمساعدة الخدمات الطبية لقوه دفاع البحرين التي قامت بتزويدنا بالأدوات والأجهزة والمعدات الطبية بالإضافة الى خمس سيارات إسعاف، كما تم استخدام الأطباء والممرضات وتجهيز غرفة للعمليات في وقت قياسي».[35]

كان ذلك تمهيداً للهجوم الوحشي الذي أُعد له هذه المرة، بحيث يقع وسط سيطرة كاملة على الكادر الطبي ومستشفى السلمانية، بعد أن كانت في 17 فبراير، قناة لفضح حقيقة النظام المتغني بالديمقراطية والحضارية. وبهذا ضُمن أن يكون الجرحى في قبضة العسكر، والأطباء في عجز العلاج، والأهم من ذلك، ضمان منع الفضح. عدد آخر من الكادر الطبي الموالي، تغيب بإجازة مرضية خلال هذه الأيام تحديداً. باختصار، خلا المستشفى في اليومين الأخيرين من الأطباءالموالين بشكل عام، ما عدا الإداريين. وبهذا أيضاً، تم تأمين غياب من يرادحمايتهم، مقابل من يراد التنكيل بهم. قبل يومين أيضاً، جاء قرار من وزارة الصحة بنصب خيمة طبية في باحة الطوارئ، نصبت خيمة كبيرة معدة بالأجهزة والأدوات، تم الانتهاء من تجهيزها ليلة الهجوم على الدوار.

بعدأن أحكم الجيش محاصرته لمجمع السلمانية بالكامل، بدأت قوات الجيش وقوات الأمن بالدخول إلى باحة طوارئ السلمانية. أعداد كبيرة من الملثمين والمقنعين انتشرت في كل مكان، ترافقهم أعداد كبيرة من الكلاب البوليسية، يحمل بعضهم كاميرات تلفزيونية، تتبعهم عدد من سيارات اسعاف المستشفى العسكري، كان دخول سيارات الاسعاف الخاصة بالمستشفى العسكري محل استغراب الكادر الطبي، سيتبين فيما بعد شيء من وظيفتها، «رأينا آسيويين يخرجون من سيارات الإسعاف، كان واضحا أن مهمتهم التصوير كرهائن تم إخراجهم من المستشفى» تقول طبيبة.

فوق المستشفى راحت الطائرة العمودية تحلق من ارتفاع منخفض، «كان قناص يوجه سلاحه نحونا من الطائرة» تشهد طبيبة. تضيف «كنت واقفة وعدد من الكادر الطبي عند مدخل الطوارئ حين قامت طائرة عمودية تحوم فوق رؤوسنا على ارتفاع منخفض، بإلقاء قنبلة صوتية ناحيتنا» الكادر

الطبي من فوره لاذ بمبنى المستشفى مرعوباً.

قبضة العسكر

من نوافذ الطوابق العليا في المستشفى، اصطف الكادر الطبي يشاهد بوجوم، ما يحدث في باحة الطوارئ وموقف السيارات. من فورهم بدأ رجال الأمن والجيش بالهجوم على الخيم التي كان قد تم نصبها من قبل المحتجين. كذلك الخيمة الطبية التي تم تجهيزها بالأدوات والمعدات الطبية قبل ساعات فقط، تم تحطيمها بالكامل بكل ما فيها من معدات وأجهزة. لم تسلم حتى الأجهزة الطبية التي هي ملك عام للدولة من التحطيم. «لم أرَ في حياتي جنوداً يقاتلون خياماً وأجهرة طبية إلا جنود جيش البحرين والسعودية» تقول طبيبة. الكادر الطبي يحملون هواتفهم النقالة، يصورون ما يحدث، يلمحهم رجال الأمن من الأسفل، يوجهون أسلحتهم نحو زجاج الطوابق العليا، التهديد يصل، يتوقف التصوير.

مجموعةأخرى من قوات الجيش والشغب، اتجهت لموقف السيارات في باحة الطوارئ، وقامت من فورها بتكسير بعض السيارات «رأيناهم يضعون أشياء بداخلها، لا نعرف ما هي، ثم يقومون بالتصوير من خلال كاميرات تلفزيونية الحجم، ثم رأيناهم يكسرون باب جامعة الخليج المقابل لموقف السيارة، ويُدخلون أشياء لم نميزها ،صوروها أيضاً « تقول إحدى الطبيبات.

في الوقت نفسه أيضاً، كان عدد من العسكريين دخل من جهة الطوارئ إلى إدارة المستشفى، سيطر على الإدارة، وأعلنوا الإدارة العسكرية بقيادة الدكتور فتيحه (من أصول مصرية) الذي سيقود التحقيقات مع الأطباء فيما بعد. وكان من بين الموجودين في مبنى الإدارة الوكيلة مريم الجلاهمة والوكيل أمين الساعاتي وبعض الإداريين من ضمنهم أحمد العم، الذي يرجح كونه على علاقة وطيدة بالأمن والجيش ورجال المخابرات.

«كأن كل شيء انتهى في لحظة، وكأن الموت هو ما سيأتي، وبعده الظلام المطبق، كان هذا هو شعوري حينها» يقول طبيب «كنا ننتظر هجوما علينا بعد الانتهاء من تحطيم كل شيء في الباحة في الأسفل، كنت أسأل نفسي، هل انتهى كل شيء؟ هل جاء دورنا الآن؟» تقول طبيبة. لا أحد يسأل الآخر، لا أحد يجيب.

الإرسال في المستشفى متقطع وضعيف، لكنهم يستقبلون الأخبار أولاً بأول. يسمعون عن الإصابات والحالات في كل من الدوار ومنطقة سترة التي بقيت حتى اليوم الثاني تعيش قمعاً بربرياً متواصلاً.

الناس لا تعرف إلى أين تأخذ المصابين، يتجهون إلى المراكز وبعض المستشفيات الخاصة التي فتحت أبوابها لاستقبال الحالات مثل المستشفى الدولي ومستشفى ابن النفيس والمستشفى الأمريكي. يعلم الكادر الطبي أن وجوده في مستشفى السلمانية الآن عديم الفائدة، وأنه محاصر عن إنقاذ حياة أحد الآن، وأن بقاءه داخل المستشفى لا فائدة منه، لكن ما العمل؟

تطهير شمولي

الوزير نزار البحارنة يصل مستشفى السلمانية سريعاً، المرضات في حالة هستيرية. يحاول التخفيف والطمأنة وأنه لن يسمح بتعرضهم للأذى. يتوجه ناحية العسكر، يتحدث معهم بلباقته المعروفه، يحاول منع دخولهم المستشفى التي لها حرمتها وخصوصيتها، وبها ما بها من حالات، لكن العسكر لا يفهم صوت اللباقة ولا صوت الإنسان ولا تحرك مشاعره خصوصية المكان، العسكر لا يفهم سوى أمر سيده الواجب التنفيذ: التطهير. يقول شهود «رأيناه عند قسم الطوارئ يطلب من رجال الجيش والأمن عدم الدخول الى المستشفى، كان يتحدث إلى عسكري ذي رتبة عالية اسمه محمد المطاوعة، سمعناه يقول للوزير: إنت ما تهمني من تكون».

«كان منظر التخريب مهولاً في مواقف السيارات المقابل للطوارئ، لم نكن نصدق أن ما نراه حقيقة، وأن ما نحن فيه ليس حلما». الجيش المحاصر لسور المجمع الطبيفي الخارج، كان يقوم بمهمة أخرى غيّر حراسة مداخل مجمع السلمانية ومنع الخروج والدخول، كانت لديه مهمة تطهير أخرى، تحطيم جميع السيارات الواقفة على امتداد محيط مجمع السلمانية الطبي، «في اليوم الذي خرجت فيه من المجمع شاهدت مقبرة من السيارات المهشمة في كل مكان، كنت أحاول أن أجد سيارة واحدةسليمة، لكني لم أجد»، تقول طبيبة. مئات السيارات تم تحطيمها بالكامل قبل أن يتم سحبها بعد أيام، وإجبار أصحابها على التوقيع عن تنازل عنها. الأمر ذاته حدث مع السيارات الموجودة في محيط الدوار بالكامل، إنه جزء مما أسماه بيان الداخلية بتطهير الدوار والمستشفى و(إخلائهم من الخارجين عن القانون)، فالسيارات التي ساعدت المحتجين في الوصول أيضاً خرجت عن القانون وتستحق التخلص منها، كما دوار اللؤلؤة الذي خرج عن القانون لأنه سمح للمحتجين الاعتصام فيه، فكان تطهير مكانه، إزالته سريعاً، بعد يومين من الهجوم (الجمعة 18 مارس/اذار 2011).

استقالة الوزير

عددمن الكوادر الطبية، طلب من الوزير تأمين الحماية والسماح لهم بالخروج في سيارات الإسعاف من أجل إسعاف المصابين في منطقة سترة، حيث الدوار كان قد تم إخلاؤه ساعتها، فيما ما تزال سترة مشتعلة برصاص الجيش. البحارنة قام بالتنسيق مع الإدارة العسكرية، وبناءً عليه، أعطى

الوزير الضمانة للكادر الطبي بعدم التعرض للأذى، وسمح لهم بالخروج من البوابة الخلفية المقابلة لبناية سناء. تجهّزت سيارات الإسعاف، تُركت لتعبر البوابة الخلفية دون أن يتعرض لها أحد، كانت الكاميرات التلفزيونية الخاصة بالأمن تصور سيارات الإسعاف وهي تخرج بسلام، عُرضت في تلفزيون البحرين للتدليل أنه لم يتم منع الإسعاف من الخروج. لكن هل عبروا بسلام؟ «لقد سمحوا لهم بالخروج من البوابةليصور هذا المشهد تلفزيون البحرين الذي بثها من فوره، وليقولوا للعالم إنهم يسمحون للإسعافات بالخروج، لكن ما إن تجاوزت البوابة حتى هجموا عليهم»تقول طبيبة.

خرجت سيارات الإسعاف من البوابة المقابلة لمحلات سناء،وهو معرض تجاري كبير ومشهور، مقابل لإحدى بوابات مجمع السلمانية الطبي. هناك مباشرة تم إيقاف السيارات وإنزال الطاقم الطبي والتحقيق معه وسؤاله كلمن فيه عن مذهبهم، إنهالوا بالضرب على الطاقم الطبي في واحدة من السيارات بطريقة وحشية، بعد تعريضهم للشتم والسب والقذف، تسبب الاعتداء في كسر يد أحد أفراد الطاقم الطبي، ولم يلبث هذا الإسعاف أن عاد إلى المستشفى لتلقي العلاج بدلاً من الخروج لتقديم العلاج. «كنت مذهولة وأنا أشاهد آثار دوس أحذية رجل الأمن على كل جزء من أجزاء جسم الطبيب الشاب الذي خرج في سيارة الإسعاف، كان وجهه معفراً في التراب وعليه آثار دوس الأحذية وكذلك شعره وكامل ثيابه»، تقول إحدى الطبيبات. طاقم الإسعاف الذي تعرض للاعتداء كان من بينهم الطبيب أحمد العمران. سيارة إسعاف أخرى تعرضت للاعتداء، كان بها كل من مدير المستشفى وليد المانع الإداري الحالي، ورئيس الأسعاف سابقا محمد عبد الرحيم.

سيارة إسعاف أخرى واصلت طريقها نحو منطقة سترة وسط وقفات تفتيشية في عدد كبير من نقاط التفتيش، لكن وعند وصولها سترة كان الأمن قد طوق المنطقة بالكامل، وتمكن من قتل الحياة في شوارعها بالكامل، القوات المسلحة أغلقت ببنادق نصف آلية، الشارعَ الرئيسي الواصل إلى منطقة سترة. أيضاً، إنه التطهير: «لم نجد سوى آثار الخراب في طريق استهلكها القصف» تقول إحدى أفراد الطاقم.

عند البوابة رقم 1، شاهد الجميع ثلاثة شبان، لم يتمكن أحد من معرفتهم، مربوطة أيديهم إلى الخلف، تتم الإساءة إليهم وضربهم وتعذيبهم دون أن يتمكن أحد، بما فيهم الوزير نفسه، من مساعدتهم أو عمل أي شيء.

الوزير البحارنة شاهد على كل ما يحدث: ما تعرض له الكادر الطبي الذي خرج في حمايته وبإذن الوزارة وبتنسيق مع الإدارةالعسكرية الجديدة، وما يحدث في المستشفى من تخريب وترويع وهتك.

الوزير البحارنة يدخل مبنى الإدارة، يقف أمام العسكر (بينهم عسكري من العائلة الحاكمة)، يعلن استقالته احتجاجاً على سقوط هيبة الوزارة، وهيبة الوزير، وهيبة المستشفى، وهيبة الإنسان، وهيبة الدولة، وهيبة كل شيء.

مصادر:

1. مقطع يوتيوب ضرب مسيرة الديوان وتظهر المسلحين في حماية رجال الأمن ضد المحتجين العزل
http://www.youtube.com/watch?v=m6vVg7aoTBI&feature=related%5C%22

2. مقطع يوتيوب لمسلحين يقومون بتكسير سيارات المحتجين بمرأى من رجال الأمن
http://www.youtube.com/watch?v=rs-C1EUplpA

3. مشهد نزول الآسويين من أسعاف وسط تجمهر في السلمانية المعروض في تلفزيون البحرين
http://www.youtube.com/watch?v=ZmdDztmrW0Y&feature=related%5C%22

4. مسلحين مجنسين في مدينة حمد يعتدون على المارة من الشيعة والأمن يتفرج
http://www.youtube.com/watch?v=XoaaBCVxMwM

5. مسلحو البسيتين
http://www.youtube.com/watch?v=Ow3-psJP6FY

6. مقطع يوتيوب يظهر مجاميع من الشباب عند المرفأ المالي تفصل المحتجين عن قوات الأمن لمنع التصادم قبل إطلاق مسيلات الدموع
http://www.youtube.com/watch?v=WV2NbQWScnA&feature=related%5C%22

7. يوتيوب يظهر مشاهد من قمع قوات الأمن للمتجمهرين عند المرفأ ودوار اللؤلؤة 13مارس 2011 ويظهر الطاقم الطبي في موقع الخطر
http://www.youtube.com/watch?v=vy15NaF6_wM

8. طلقات متتالية لمواطن من مسافة تقل عن متر واحد
http://www.youtube.com/verify_controversy?next_url=/watch%3Fv%3DD9W_-0uGN1E

9. يوتيوب يظهر مواجهات الدوار والمصابين على الأرض
http://www.youtube.com/watch?v=-2-ENuHV4GY

10. مسيرة طلاب الجامعة المنددة بضرب المعتصمين
http://www.youtube.com/watch?v=AsIN7BewUmo

11. مسلحون يجتازون بوابة جامعة البحرين تحت حماية أمنية
http://www.youtube.com/watch?v=GMbjtl93P7w&feature=related%5C%22

12. المسلحون يسيرون داخل جامعة البحرين دون ردع أمني
http://www.youtube.com/watch?v=dtmC-EL-phE&feature=related%5C%22

13. المسلحون داخل جامعة البحرين يهددون الطلبة المحتمون داخل المباني
http://www.youtube.com/watch?v=ndhsBkGVI5I&feature=related%5C%22

14. يوتيوب حول منع وضرب الطاقم الطبي والطلاب في جامعة البحرين
http://www.youtube.com/watch?v=TliKxdYhGps

15. مهاجمة الكادر الطبي في جامعة البحرين، المشهد تم تقديمه بأن المحتجين هاجموا الطاقم الطبي
http://www.youtube.com/watch?v=Xfg4ev42KJg

16. الطبيبة آلاء الصفار تروي ما تعرضت له من تهديد
http://www.youtube.com/watch?v=ltgjTX9uIHg

17. مستشفى السلمانية يغص بالجرحى والمصابين من أحداث ١٣ مارس
http://www.youtube.com/watch?v=ymSLRoLtuFw

18. حنين البوسطة الثالثة عالمياً بين علماء الشباب
http://www.albiladpress.com/news_inner.php?nid=64477&cat=4

19. الطبيبة حنين تروي لـ «الوسط» بعض تفاصيل ما حدث في «سترة»: صفعوني على وجهي وزحفت على الأرض
http://www.alwasatnews.com/3113/news/read/532537/1.html

20. مصاب بالشوزن 15 مارس
http://www.youtube.com/watch?v=yRuvsoN8xPU

21. مدخل مركز سترة الصحي 15 مارس
http://www.youtube.com/verify_controversy?next_url=/watch%3Fv%3D5_J0A2A2LB4

22. مصابين من أحداث سترة 15 مارس
http://www.youtube.com/verify_age?next_url=/watch%3Fv%3DQZ3n8Ibt69g

23. اطلاق النار على أعزل في سترة بتاريخ 15 مارس
http://www.youtube.com/watch?v=MLbw5fCXOrw

24. أمين الأسود: المسعف الذي كسر درع الجزيرة رقبته
http://www.bahrainmirror.com/article.php?id=1203&cid=105

25. مسعف يروي ما حدث لهم أثناء قيامهم بعملهم
http://www.youtube.com/watch?v=Uui4rjvQy4E

26. فيديو آخر ربع ساعة قبل هجوم قوات درع الجزيرة على الدوار في ١٦ مارس 2011
http://www.youtube.com/watch?v=a3ZTThYVItc&NR=1

27. إطلاق الرصاص الحي من طائرات الأباتشي
http://www.youtube.com/watch?v=S7l0U7TlliA&feature=related

28. أرتال الجيش في الشوارع لمواجهة المحتجين العزل
http://www.youtube.com/watch?v=VgtLJUw8Snc&feature=related

29. قناصة الجيش ينتشرون في أعلى المباني
http://www.youtube.com/watch?v=PWEiJ2-QsJg&feature=related

30. بأيد عزلاء أمام الدبابات: لا سلاح لدينا، تهاجمونا بالدبابات؟
http://www.youtube.com/watch?v=KzFtjnwJ24M&feature=related

31. المواجهات الأخيرة بعد هجوم قوات درع الجزيرة على دوار اللولؤة ١٦ مارس 2011
http://www.youtube.com/watch?v=dRjqbfhIfRA

32. مشاهد وإصابات قاسية من فض اعتصام المحتجين السلميين في الدوار ١٦ مارس 2011
http://www.youtube.com/watch?v=jFss1nX90r8&feature=related

33. المصابون في المستشفى الدولي ١٦ مارس
http://www.youtube.com/watch?v=ac0Yv26NsQ

34. مشرحة مستشفى الدولي: شهداء ١٦ مارس
http://www.youtube.com/verify_controversy?next_url=/watch%3Fv%3DyF1nzi02Z1Y%26skipcontrinter%3D1

35. صحيفة الوسط ١٤ مارس/آذار 2011: فتح قسم الطوارئ بمستشفى الملك حمد الجامعي بالمحرق كمستشفى ميداني
http://www.alwasatnews.com/3111/news/read/532355/1.html

علي العكري
في تجربة الأصعب: غزة، 14 فبراير، السجن

هذه الحلقات لم يُكتب لها أن تكتمل. قرار القبض كان أسبق منا وأنفذ.. الأربعاء 3 أكتوبر كان هو موعد جلستنا التالية مع الدكتور علي العكري. لكن نطق محكمة التمييز بتأييد حبسه لـ5 سنوات سبقنا في 1 اكتوبر، وتنفيذ قرار (القبض) سبقنا في 2 أكتوبر.

سننشر ما أُنجز منها، مما خصنا به قبل أن يصير في قبضة الجلاد مرة أخرى، وسنكمل معكم يوماً باقي تفاصيل الحكاية، بلسان العكري نفسه..

نعدكم بذلك، ونعد التاريخ.. نعدكم أن نبقى أوفياء، نكتب تفاصيل كل سيرة صنعت هذه اللحظة الوطنية التي ما زلنا نعيشها، فتاريخ 14 فبراير هو مجموع هذه السير.

تمهيد..

«قرار أن تكون جزءاً من المعادلة هو الأصعب». بهذا أجاب العكري حين سألته عن اختياره الذي ذهب إليه بعد 14 فبراير.

في معادلة المظلوم والمستبد، يكون الاختيار تحدياً محفوفاً بالمخاطرة. يختار البعض أسلم الطرق وأسهلها: السلب. ويختار البعض الاصطفاف مع الأقوى الذي يؤمن له الحماية والحظوة. الأقل يختار الانحياز للمظلوم مهما كانت تبعاته وأثمانه الباهظة. منذ 14 فبراير كان لا بد للبحرينيين أن يختاروا.

منذ 14 فبراير كان لا بد لكل البحرينيين أن يختاروا، ليس مهماً ما أنت وما مهنتك وما موقعك وما وظيفتك، لم يعد ممكناً ألا تختار. الكادر الطبي لم يكن استثناء، لقد اختار الانصات لآلام الشعب، واختار أن ينحاز لهذه الآلام، وقد دفع ثمن هذا الانحياز وهذا الاختيار.

أصعب ما واجهني في كتابة هذه السيرة، هو ترتيب مواعيد اللقاءات مع العكري، وقته صار مزدحماً بالمشاركة في الأنشطة والفعاليات السياسية والحقوقية المختلفة، بالإضافة إلى عمله في عيادته الخاصة. لم يكن كذلك قبل 14 فبراير، ولنكن أكثر دقة، ليس قبل دخوله المعتقل. كان طبيباً ذائباً في عمله وأسرته فقط، الآن صار ناشطاً. لا يخلو برنامجه اليومي من دعوات هنا وهناك، ومشاركات في الفعاليات والمسيرات. من الذي حوّله إلى ناشط بهذا القدر؟ إنه النظام الأرعن. راكم عليه خصومة أكثر من نصف الشعب الذي ما عاد لديه ما يخسره أكثر، وخلق جيلاً جديداً من الناشطين السياسيين والحقوقيين، قوامه المهنيون الذين لم يكونوا يوماً أكثر من مهنتهم.

لسرد تجربته احتجنا لجلسات كثيرة. الجلسة الواحدة تستغرق قرابة 3 ساعات. يتقن العكري سرد التفاصيل الدقيقة بالساعات والتواريخ. لديه ذاكرة تجعلك تستحضر معه اللحظة وكأنك تراها بكل ما فيها من ألم وصراخ وعنفوان.

لستُ دينياً ولا سياسياً..

نشأ علي العكري في عائلة يتجاذبها تياران: ليبرالي متطرف، وديني متطرف. جده الملا منصور هو مختار القرية، ولديه حسينية في المنطقة باسمه. عمه الشيخ محمد علي العكري، تعرض للسجن: «كان عمي لديه مشروع إصلاحي كبير، والدي الوحيد ذو الخط الليبرالي». هل كان العكري ليبرالياً مثل والده؟ يقول: «أنا اعتبر ضد التشدد من أي نوع كان. أميل إلى الجانب الديني أكثر من الانفتاح المحض. كنت في محيط عمي الشيخ محمد العكري».

درس في جامعة الموصل في بغداد خلال الأعوام 91-85. شهد حرب الخليج الأولى والثانية: «كنت رئيس اتحاد طلبة البحرين في الموصل، أحب العمل النقابي. عدد أعضاء الاتحاد حينها لم يكن يتجاوز 50 شخصا. لم أكن بعثياً ولم يطلب مني أن أكون كذلك. طلبة الجامعات العلمية غير ملزمين أن يكونوا بعثيين، فقط الكليات الأدبية عليهم أن يكونوا كذلك وفق قوانين الدولة حينها».

هل كان ذلك يعبّر عن توجه سياسي؟ ينفي: «لم يكن للاتحاد خطاً سياسياً، كانت لدي قناعة تامة أن شؤون الطلبة يجب أن لا تسيس. بالنسبة لي، الاتحاد كانت له قوة ويمثل حماية لنا كطلبة، يسهل أمورنا في حالات الغياب والسفر والحضور والإجازات».

بعد انتهائه من الجامعة، صار هم العكري الأول تكوين الشخصية المهنية بالإضافة إلى الحياة الأسرية. تعرف على الدكتورة فريدة الدلال في سنة الامتياز وتزوجا في 1994، ذهب ايرلندا عام 1999 ليتخصص في جراحة عظام الأطفال والقدم والكاحل 2002. التحق بالعمل مرة أخرى حتى صار استشارياً في تخصصه 2004. في 2009 تمت ترقيته ليكون استشاري أقدم (سينيور) في مجال تخصصه.

حتى ذلك الوقت، لم يكن العكري يخرج عن دائرته الخاصة جداً في البيت والعمل: «صرت أسعى أن أكوِّن نفسي كجراح عظام وهذا تطلب امتحانات الزمالة العربية والزمالة الايرلندية. تعديتها كمؤهل علمي إضافي. لم تكن لدي أية ممارسات سياسية، لكني أتابع ما يدور بحكم محيطي. أقاربي يتعرضون للاعتقالات.»

أسبوع في غزة..

في ديسمبر 2008 اشتعلت الحرب على غزة. صار الوضع الإنساني هناك صعباً ومقلقاً. العكري يشعر بالألم والمسؤولية. يتصل بصديقه الدكتور نبيل تمام عضو مجلس إدارة جمعية الأطباء: «نبيل.. لابد أن نعمل شيئا من أجل إخوتنا في غزة» -يقصد من خلال جمعية الأطباء- يتوافق الطرفان. يفتح نبيل الموضوع في إدارة الجمعية. يتم كل شيء سريعاً. يُعقد اجتماع طارئ. تُشكل لجنة. تجمع التبرعات: « كان حينها موسم عاشوراء، عملنا محطات لجمع التبرعات ليلة تاسع وليلة عاشر. كانت هتافاتنا: أنقذوا أطفال غزة بدينار. الناس تفاعلوا معنا. عملنا حملة في السيف وأخرى في جيان وفي العيادات، جمعنا مبالغ كبيرة. فُتح حساب لغزة باسم الجمعية».

يكمل العكري: «قمنا بتجهيز سيارتي إسعاف، وذهبنا إلى الحدود لتسليمها إلى أهل غزة مع مساعدات الأدوية. لم يكن في تخطيطنا الدخول بل فقط تسليم سيارات الإسعاف والمساعدات. عند الحدود، سمعنا أن هناك حاجة إلى جراحين وأطباء وأدوية في الداخل. كان قراراً صعباً. نحن أمام مغامرة ومخاطرة في آن واحد. أنا ونبيل نظر كل منا إلى الآخر. الزملاء الخليجيون انسحبوا. لم يطل معنا الأمر، قررنا أنا ونبيل البقاء والدخول إلى غزة. كنا وحدنا من الخليج بين حوالي 50 طبيبا وجراحا متطوعا من العالم».

عند المعبر، أعطى اتحاد الأطباء العرب لكل واحد شنطة مؤونة: «لا تستخدموا شنطة الطعام إلا إذا انقطعت بكم السبل». صار كل طبيب يحمل معه شنطتين، واحده لثيباه، وأخرى للمؤونة. لمدة خمسة أيام بقى الأطباء يذهبون للحدود كل يوم يحملون معهم حقائبهم، يعتصمون عند الحدود طوال اليوم، قبل أن يتم إرجاعهم بها في نهاية اليوم. تتصاعد وتيرة الضغط الدولي على النظام المصري، يُسمح لهم بالدخول في اليوم الخامس.

يتذكر العكري: «وقعنا أوراقا تفيد بأن ما سيحدث لنا هو مسؤوليتنا الشخصية، بعدها سمح لنا بالدخول. ركبنا باصا صغيرا طاف بنا أمتار قليلة قبل أن نصير داخل غزة. لم نصدّق أنفسنا. استقبلنا أرض غزة بالسجود على الأرض. صلينا ركعتين من شدة الفرح. وهناك، عايشنا تجربة مؤلمة ومخيفة مع القصف اليومي واللحظات القريبة من الموت. في المستشفى استقبلنا حالات جثث متفحمة وعالجنا إصابات قاتلة وخطيرة. بقينا هناك أسبوعاً كاملاً قبل أن تتوقف الحرب، وقبل أن نعود لبحريننا بسلام».

أحببت المكان والطقس والحلم بالتغيير، شعرنا أنه يجب أن نكون جزءاً من الحدث بوصفنا مواطنين، لا بوصفنا أطباء

يوم 14 فبراير

حتى هذا التاريخ، لم يكن العكري معنياً بالحدث، لكنه أيضاً لم يكن غائباً: «كوننا أطباء لا يعني ألا علاقة لنا بما يحدث في الربيع العربي. مع ثورات تونس ومصر، شعرت أن البحرين مهيأة لهذه الثورة قبل تونس حتى، لم أكن معنياً حينها، فهمت أن البحرين مقبلة على شيء كبير، لكن رغم ذلك لم أتوقع أن تكون الحركة بهذا الزخم».

في المساء خرجت المسيرات في عدد كبير من المناطق في البحرين: «سمعنا خبر استشهاد المشيمع، هو ابن منطقتنا (الديه)، بيته قريب من منزل والدي (جاره). لم أكن في المستشفى حين سمعت الخبر. ذهبت مع ابن عمي الدكتور صادق العكري إلى المستشفى ودخلنا المشرحة. كان هناك الآلاف من الشباب المتجمهرين والغاضبين عند باب المشرحة. التقيت والد الشهيد وكان معه المحامي محمد الجشي. دخلنا المشرحة ورأيت الجثة بما عليها من آثار الإصابات: شوزن في منطقة الصدر تحديداً في الخلف الجهة اليسرى».

يكمل العكري: «طلب مني والده أن أتابع إجراءات الطب الشرعي ومن باب المؤازرة بقيت هناك. جاء الطبيب الشرعي وكان واضحاً عليه القلق والتردد. همّ بكتابة التقرير. استوقفته وقلت: ليس

تخصصي الطب الجنائي، لكن أعتقد أن من أبجديات التشخيص معرفة سبب الوفاة، لماذا لا تطلب عمل أشعة للمتوفى؟ قال الطبيب: أنا أجزم أن هذا الصبي مقتول بطلق ناري، وهذا ما سأكتبه. اقترحت عليه عمل أشعة، قال: صعبة. كان هناك الإداري المناوب حينها (أحمد العم)، سألته: هل ممكن عمل أشعة. كان متعاوناً معنا ووافق. تم إحضار الأشعة المتحركة (PORTABLE). أُخذت الأشعة وأُحضرت للطبيب. المرة الأولى التي نرى فيها انتشار الشوزن في جسد مصاب، كانت بمثابة نجوم في السماء، كلها جهة القلب».

يكمل العكري «حتى هذا الوقت لم يكن وجودي هناك إلا من باب الدعم الأخلاقي. تمّ أخذ أشعة من كل الجهات، تبين سبب الوفاة بشكل واضح، طلبتُ نسخة مبدئية من التقرير، قال الطبيب: سيجهز بعد أسبوع وسيعرض على النيابة. كتب الطبيب الشرعي على شهادة الوفاة بأنه يمكن تسليم الجثة للدفن. عدت البيت».

يوم 15 فبراير

«عدت إلى المستشفى صباح اليوم التالي، مؤازرةً ذهبت لتسلم الجثة مع والد الشهيد. كانت الحشود متجمهرة بأعداد كبيرة عند المشرحة. طوابق المستشفى كلها تطل على التجمهر بتأثر بالغ. كان المنظر رهيباً وغير مسبوق. عند المشرحة وقفت سيارة جيب مغطاة بأعلام البحرين تم إعدادها لتسلم الجثمان».

يكمل العكري «كانت الشعارات كثيرة في الخارج، صلوات وأدعية وهتافات ضد النظام وضد القتلة ومايكرفون يتناوب بين الناس. خرج الجثمان مهيباً مفجعاً. وضع فوق السيارة وانطلقت الجنازة. لم أمش معها سوى قليل، وعدت من جهة عيادة الفاتح. كان التجمهر في الخارج كبيراً ويحملون يافطات. الحشود ممتدة من المشرحة إلى الشارع الرئيسي. مرور السيارات توقف».

لكن في الخارج كان ثمة ما حدث. عند المبنى المقابل لمستشفى السلمانية (بناية سناء) وقفت رافعة تابعة لوزارة الداخلية وعليها سيارة أمن عطبانة. يكمل العكري: «الجماهير كانت غاضبة ومنفعلة، توجه عدد من الشباب إلى السيارة وقاموا بمهاجمتها بأيد عزلاء، كنت حينها أقف على بعد أكثر من 50 مترا، فجأة سمعنا طلق نار، اتضح فيما بعد أنه شوزن. شعرت أن طلقة اعترضتني. وضعت يدي على رقبتي وجدت الدماء تسيل، كانت 5 طلقات شوزن قد استقرت في رأسي، لكنها إصابة سطحية، تراجعتُ مع مجموعة كبيرة داخل المستشفى. لم تكن سيارة النعش قد وصلت للبوابة بعد. الناس تراجعت وصارت اختناقات. تفاجأنا بالشباب يحملون شاباً آخر يركضون به. لم أتصور أنها

إصابة قاتلة. كنت مشغولاً بنفسي وإصابتي. رجعت الجناح وقمت بتضميد جرحي ثم عدت. توجهت للطوارئ وسمعت أن هناك شابا يحتضر. كانت المستشفى فوضى عارمة».

يكمل «كان الطبيب المباشر حينها أمجد ديب (وهو أحد من شهد ضدنا فيما بعد) لم أتدخل، ذهبت للطوارئ وسألت عنه، عملوا له إنعاش القلب أكثر من مرة قبل أن يعلن موته. كان جاسم المهزع موجوداً وأنا جلست بجانبه. أعلنت وفاة فاضل المتروك. سألت أمجد عن سبب الوفاة، قال: إصابة في الصدر. قلت له: لماذا لا تعمل أشعة لتثبيت سبب الوفاة. قال لي: سأسأل مسؤولي المباشر. لم يوافق المهزع».

الساعة بالكاد تجاوزت الثامنة صباحاً، جثمان آخر يخرج من المشرحة نحو التشييع. مسيرة أخرى حاشدة تخرج من طوارئ السلمانية إلى المشرحة. أجواء مفعمة بالفاجعة والحزن والصدمة. في الوقت نفسه كان جثمان الشهيد الأول يواصل مسيرته.

سأحتفظ بالقبعة

ظهراً، يتجه العكري مع أحد أصدقائه للمقبرة حيث يدفن الشهيد الثاني. من هناك، سمعا أن مسيرة اتجهت نحو الدوار. انطلقا بالسيارة. كانت المسيرة راجلة وحاشدة «ذهبت مع صديقي لنرى، رأينا المسيرة تتقدم نحو الدوار، أوقفنا السيارة عند (تقاطع القفول) وأخذنا ننتظر. تبين لنا بوادر وصول المسيرة إلى الدوار، لم يعترضها أحد من رجال الأمن، تحركنا نحن أيضاً، ذهبنا إلى الدوار، كنا من بين أول الواصلين».

ما إن وصلت الجموع عند (تقاطع القفول) حتى تحول المشي إلى جري، السابقون إلى الدوار، العشرات التي توافدت لم تلبث أن صارت مئات، والمئات تكاثرت إلى ألوف. في المكان نشوة الطقس ونعشة الحرية. صورة ميدان التحرير في القاهرة لا تزال تحرض البحرينيين: هل سيصير دوار اللؤلؤة ميدان تحرير البحرين؟

يتذكر العكري: «لم يلبث أن حضر ابراهيم شريف أمين عام جمعية وعد، أول الملتحقين بالشباب من الجمعيات السياسية. حمله الشباب على أكتافهم، أوصلوه إلى محيط النافورة، وقف فيهم وألقى خطبة مضمونها: يا شباب أنتم تصنعون التاريخ، هذا الميدان ميدانكم وهذه الثورة ثورتكم، لا تتركوا أحداً يقوم باختطاف ثورتكم، ونحن كجمعيات سياسية سنقدم لكم الدعم والمساندة».

يكمل العكري «كانت الشمس حامية والعرق بدأ يتصبب من جبهة شريف، أخذت قبعتي ووضعتها على رأسه. كان شريف يوصي الشباب بالسلمية والابتعاد عن الشعارات الطائفية، يدعوهم إلى عدم الانسياق لشعارات التسقيط والسب، يحثهم على الوجود المستمر في الدوار كي لا يتركوا فرصة لاقتحامه وتفريق المعتصمين من قبل الأمن. الأجواء كانت حماسية جداً ومؤثرة».

بعد أن أنهى شريف كلامه ونزل عن صدر المكان التقى بالعكري. قال له الأخير: هذه القبعة عزيزة علي. كيف؟ سأل شريف. أجاب العكري: ذهبت معي غزة. سأحتفظ بها إذاً: قال شريف مبتسماً.

خيمتي بـ75 دينار

بدأ العكري يشعر بنفسه داخل هذا المكان، أحبّه. لم تلبث الخيم أن بدأت تُنصب. بعفوية ذهب إلى بيته الواقع في منطقة السهلة القريبة نسبياً من منطقة الدوار، أخرج خيمة صغيرة هي دعاية لمشروب (سفن أب)، عاد الدوار يحمل خيمته، اختار صديقه موقعاً باتجاه مباني أبراج اللؤلؤة، نُصبت الخيمة.

يقول العكري: «جلسنا فيها مجموعة من الأصدقاء، أحببت المكان والطقس والحلم بالتغيير، شعرنا أنه يجب أن نكون جزءاً من الحدث بوصفنا مواطنين، لا بوصفنا أطباء، راودتنا فكرة المبيت في الدوار، تشجعنا».

غادر العكري إلى بيته لأخذ مجموعة من الألحفة للمبيت. عندما عاد، كانت الحشود قد أخذت تتوافد بلا توقف، وكانت ثمة منصة قد شيدت وميكرفونات علا صوتها، والخيم انتشرت في كل مكان، والناس تهيأت للمبيت، ومحادثات عن الحاجة لتثبيت خيمة طبية للحالات الطارئة. كان هذا من أهم الأمور التنظيمية التي لا بد من البدء بها. «دخلت الخيمة الطبية وكانت فارغة وقتها، بها منضدة واحدة في الوسط، وهناك يقف كل من المسعف حسن واعظي والدكتورة ندى ضيف وعدد من الشباب المتعاونين»، يكمل: «عملت اجتماعاً مصغراً مع بعض الأطباء حديثي التخرج. تكلمت معهم، قلت لهم بضرورة أن لا يقوم العمل على الفزعة، وأنه لا بد من جدول مناوبات. أخذنا قائمة بأسماء المتطوعين من الأطباء والممرضات والمساعدين والدعم اللوجستي. عملنا قوائم وحصرنا الاحتياجات. بشكل غريب جهزت التأثيثات كلها في اليوم الثاني».

انقضى ذلك اليوم، ودخل يوم 16 فبراير. العكري المأخوذ بالحماس والمكان يقرر الذهاب إلى الدوار بعد انتهائه من الدوام. «كانت لدي عيادتي الخاصة عصراً، ألغيتها، ذهبت مع صديقي إلى

مجمع جيان القريب من الدوار، واشترينا خيمة سعرها 75 ديناراً، كانت القطعة الأخيرة لديهم. ذهبنا من فورنا ونصبناها، شيدت خلال دقائق، لم نعتمد على أوتادها لأنها ضعيفة، الشباب أحضروا (أصياخ حديدية) وثبتوا الخيمة بشكل قوي. هناك أنت لست وحدك في أي شيء، الكل يريد أن يساعد ويساهم. كان الطقس الجوي رائعاً، وكذلك الطقس الاجتماعي. أقمنا الخيمة في موقع مطل على المنصة، موقع استراتيجي بالفعل، كان من الذكاء اختيار هذا المكان».

الخيمة الطبية

بدأت الاستعدادات لتجهيز خيمة طبية وخيمة للمفقودين. وضعت الخيمة الطبية في الجهة المقابلة لمحلات المنتزه التجارية. أوقف الشباب سيارة (جيمس) قريباً من الخيمة، تم إعدادها لحالات الإسعاف. لم تكن الفكرة من أجل طوارئ المواجهات، بل من أجل الإصابات العادية والحالات الطارئة.

الخيمة الطبية بدأت تصير خيمة مرتبة وكأنها بالفعل مستوصف صغير. في اليوم الثاني كان عدد كبير من الأطباء يتواجدون فيها. صار حضور منقطع النظير من الأطباء المتطوعين. وصار الوجود في الخيمة بشكل منظم. الأطباء تبرعوا بأجهزة من عياداتهم. أتت التبرعات من كل مكان. يقال إن الخيمة كان بها أجهزة وأدوية بقيمة 9 آلاف دينار. ندى ضيف سألت ما الذي تحتاجونه من أدوات، وذهبت لبعض الصيدليات وجمعت تبرعات وأثثت. كان لدينا رفض تام أن يتم إحضار أي شيء من السلمانية. لكي لا يحسب علينا. عينات كثيرة أخذتها إلى هناك من عيادتي.

يقول العكري «أول اختبار لنا، كان سقوط أحد الشباب من قواعد أعمدة اللؤلؤة، سقط من ارتفاع قدرة طابق ونصف من الجهة المطلة على البحر. سمعنا نداء في المكرفون يطلب طبيباً بشكل عاجل، ذهبت من فوري ورأيته ملقى على الأرض، لم تكن إصابته بليغة، لكن كان من المهم نقله بشكل آمن، لهذا طلبت له الإسعاف، قلت لهم: أعتقد أن لديه إصابة في العمود الفقري، خلال دقائق حضر الإسعاف، حملوه بشكل مهني ودقيق، نقل إلى المستشفى».

يكمل العكري: «صار ما يشبه المشادة بيني وبين مسؤول الخيمة الطبية، كان خائفاً أن يعتقل، وكان كل تفكيري حينها في إنقاذه. مرت علينا حالات متعددة وبسيطة طوال الليل. كانت ليلة تجريبية. في نفس الليلة تم وضع بعض الأسرة للمرضى، وكراسي، وتم قسم الخيمة للجنسين، وصار نظام تسجيل. سألوني عن موعد مناوبتي لتثبيتها، قلت لهم الليلة، أخذت مناوبة آخر الليل. صرت المسؤول المناوب في تلك الليلة ومعي صادق العكري و4 ممرضات».

17 فبراير/ الفجر الأسود

كان كل شيء يعبق برائحة الحرية: الحلم الذي صار لؤلؤة بيضاء تتوهج، الميدان التي صار صبحاً يتنفس، الاجتماع البشري الذي صار كثافة من الوطن والإنسان، والطقس الذي كان يحرّض على عدم الاستسلام إلا للتغيير، كل ذلك يجعل الحلم يأتيك مستيقظاً، وتكف عن النوم.

«قضيت معظم الوقت ليلتها في خيمتي مع أصدقائي، كنا نتفقد المحيط بين الحين والحين، تتملكنا مشاعر غامرة بالتنفس والحرية والرغبة في معانقة الحلم. كان الوضع العام للحضور هو عوائل مع أطفال، عند الواحدة بعد منتصف الليل بدأ الهدوء يخيم على الدوار. وبدأ البرد يصير أكثر. الأصوات بدأت تخفت وتنام. عند الساعة الثانية فجراً، قلت للطبيب المناوب في الخيمة الطبية: هذا رقم هاتفي،وسأذهب إلى الخيمة الخاصة بي وهي قريبة في حال حدث أي طارئ».

يكمل العكري: «جلست مع الأصدقاء نتسامر وبدأ التعب يظهر علينا. صادق العكري نام. عند قرابة الثالثة فجراً سمعت فوضى: "أكو طبوا.." . كنت وحدي مستيقظاً مع أحد الأصدقاء. سمعت صوت من المكرفون يقول: "يا شباب هدوء ما في أي شي، فقط رددوا سلمية سلمية" . العدد في الدوار كان قليلاً نسبياً. حاولت أن أيقظ صادق من النوم. قلت له: يبدو سيهاجمون. خرجت من الخيمة أنظر جهة الشمال، تفاجأت بأضواء سيارات الأمن، كذلك من جهة الجنوب، كانت القوات تنتشر في كل مكان بهدوء. جاءني اتصال من الطبيب المناوب يقول: يبدو سيهاجمون. خرجت إلى الخيمة الطبية القريبة من خيمتي. لم تكن أكثر من هذه المسافة، لم أسمع أي نداء أو دعوة للتفرق، بدأت تصير بلبلة بين المعتصمين، وبدأت شعارات سلمية سلمية، وبدأ الطلق».

في الخيمة الطبية، قامت الممرضات مباشرة بلبس الماسك (duble mask)، وأعطين العكري كي يلبسه أيضاً، «نظرت للخارج، كانت الفوضى عارمة، النساء يصرخن والأطفال، الطلق يأتي من 3 جهات، تركت جهة واحدة فقط، أغلقت الباب لحمايتنا من الطلقات التي تأتي من جهة أسواق المنتزه، كنت أرى الأمهات والأطفال أمامي يصرخن مرعوبات، وكان رجال الأمن يتقدمون بالقنابل الصوتية ومسيلات الدموع والمطاط. بدأ الناس يتوافدون إلى الخيمة الطبية، امتلأت كلها، بدأنا نعالج حالات الاختناق، تزايد العدد، لم نعد قادرين على السيطرة على كل هذا العدد. كنا في الأثناء نسمع الطلقات التي تلقى على الناس بشكل مكثف ومتواصل وكأننا في حرب. شعرت أنني عدت إلى غزة حيث كنا نعالج الجرحى وسط أصوات القصف والقذائف المتتالية. كان الجميع مرتعباً في داخل الخيمة الطبية ولا نعلم ماذا يمكن أن يحدث لنا. خيمتنا هي الأولى بالنسبة لقوات الأمن

المتجهين نحو الدوار أي أنهم من الممكن أن يداهمونا في أية لحظة. هدأ الطلق قليلاً وسمعنا صوت القوات تتقدم ناحيتنا، خرجت لهم ورفعت يدي، قلت: أنا طبيب وهذه خيمة طبية. صوب أحدهم البندقية تجاهي وقال: ادخل. عدت من فوري».

يكمل العكري: «كانت الناس قد تفرقت، وكنا نشهد ملاحقات الشباب في محيط الدوار، فرق من رجال الأمن دخلت مرتجلة إلى قلب الدوار. جزء منهم تجاوز الخيمة الطبية. أغلقنا باب الخيمة الثاني. انطفأ المولد. وبشكل متعمد هناك من أطلق قنبلة صوتية داخل الخيمة. بدأنا نشعر باختناق. قلت لمن معي: سنخرج على شكل مجموعة جهزوا أنفسكم. فتحنا الباب المطل على أسواق المنتزة. خرجنا ككتلة واحدة واخترقنا رجال الأمن، كان عددنا حوالي 10، حاول بعضهم مهاجمتنا، وبعضهم الآخر أشار علينا بالمغادرة، ركبنا سيارة أحد المعتصمين وخرجنا، كان الشباب يركضون أمامنا في الشارع العام. أوصلني البيت، كنت مختنقاً، لم تكن معي مفاتيح البيت، زوجتي والأطفال نيام، ذهبت من الجهة الخلفية للبيت، أخذت عصا، ألقيتها باتجاه غرفة الخادمة، استيقظت مذعورة وفتحت لي، ذهبت من فوري لأغسل وجهي، حرقني وجهي».

جثة مقيدة..

الخيمة الطبية امتلأت بالمختنقين بالغاز، وفي الخارج الفوضى عارمة، والجميع يلوذ بالفرار من الموت، حتى الآن لا يعلم العكري عن الإصابات الخطيرة التي وقعت والتي لم تتمكن من الوصول إلى الخيمة الطبية.

عاد العكري إلى البيت بعد أن أوصله أحدهم. كان لا يزال مختنقاً وبالكاد يجمع أنفاسه حين جاءه اتصال من صديقه الذي كان معه في الخيمة. لم يكن العكري حينها يعلم بما جرى داخل الخيمة ولا يدري ما حدث لأصدقائه، بينهم ابن عمه الدكتور صادق العكري. كان صوت صديقه على الهاتف يسأله: أين صادق العكري؟ ويخبره بأنه اتصل بهاتف صادق، فأجابه أحد رجال الأمن ورد عليه بكلام بذيء. يقول علي العكري «فهمت حينها أن صادق صار في قبضتهم».

العكري وصديقه خرجا عند الساعة الرابعة فجراً متوجهين إلى مستشفى السلمانية، « لم أكن مستوعباً بعد لما كان يحدث، كأني في كابوس لا يريد أن ينتهي، كنت (على الكول) ليلتها أي يتم الاتصال بي وقت الحاجة، اتصل الطبيب المناوب داخل المستشفى وقال لي تعال سريعاً لدينا الكثير من الجرحى. وصلنا لتقاطع السلمانية وكان الطريق مغلقاً، توجهنا إلى البوابة الخلفية عند باحة الطوارئ. كانت الفوضى عارمة، الحشود تملأ المكان والعشرات من المصابين والناس في حالة

هستيرية، لم يكن صباحاً يشبه أي صباح آخر، كان المكان لجة حزن».

باشر العكري معاينة المصابين الذين تم حملهم إلى المستشفى عبر الإسعافات وعبر السيارات الخاصة. «صار تحت يدي 8 حالات كسور مصابة بطلقات الشوزن من مسافة قصيرة جداً. لم يكن يعنيني بالدرجة الأولى حالات الاختناق حينها. كانت الفوضى عارمة داخل الطوارئ، قررت أن نُدخل المرضى لكي يفرغ الطوارئ لاستقبال حالات جديدة، كان لابد من اتخاذ قرارات سريعة».

الشهيد محمود أبوتاكي كان أول الواصلين من الضحايا. يتعجب العكري: «الغريب أنه بالرغم من أنهم أحضروه إلى المستشفى وهو جثة ميتة، إلا أن يده كانت مقيدة! صادق العكري أيضاً أتوا به المستشفى في حالة مزرية. كان مقيداً أيضاً».

الرأس المفضوخ

كان صادق العكري قد استيقظ على صوت القصف فجراً في الدوار، خرج من الخيمة ليشاهد امرأة تبحث عن طفلها، همّ بمساعدتها قبل أن يجد نفسه محاصراً بقوات الأمن. كان يرتدي الرداء الأبيض، ورفع لهم يده: أنا طبيب. لكن ذلك لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة لهم. هجموا عليه بالركلات والضربات من كل صوب بأعقاب البنادق حتى سقط على الأرض « أحضروه في حالة مزرية، كانت ثيابه ملطخة بالدم ويصرخ من شدة الألم. كان ينزف من أنفه وتحت عيونه. تكلمت معه فلم يعرفني، كان مستوى الوعي لديه سيئاً جداً ويداه مكبلتان. فككنا قيده وفحصناه ووضعنا له مغذي (سيلان) وأخذناه لقسم الأشعة المقطعية، قلقنا أن يكون عنده نزيف داخلي، وجدنا عنده كسور كثيرة، نقلناه إلى جناح 11. اتصلت بالدكتور أحمد جمال رئيس جمعية الأطباء، قلت له: عليك مسؤولية كبيرة جداً. لا بد للجمعية أن تأخذ موقفاً مما حدث اليوم، صادق العكري كاد يموت، الطواقم الطبية ضُربت، لا بد من موقف يدين ما حدث».

الاستنفار والألم، كان هذا هو ما شعر به العكري وسط ما عايشه وشاهده حتى تلك اللحظة. لكن الاستنفار لم يلبث أن تحول إلى صدمة صاعقة: «كان المشهد الصاعق الذي صدمني وجعلني أرتج بكلي، هو مشهد دخول جثة الحاج عيسى، لم أصدق عيني وأنا أرى الرأس متفجراً بهذا الشكل المريع. ضج المكان بالصراخ والبكاء. بالكاد استطعت أن أمسك نفسي من الانهيار. هي المرة الأولى التي أرى فيها منظراً كهذا، حتى في غزة لم أشاهد مثله رغم كل الجثث التي مرت علينا. من الواضح أنها طلقة من مسافة قصيرة جداً. من الواضح أنها استهداف بقصد القتل. كنت أصرخ: كيف حدث هذا القتل؟ هل نحن في حرب؟ معقول ما أرى؟ مع من نعيش نحن؟ لماذا يحدث كل

هذا؟»

اختفاء الإسعاف

استمرت الإصابات في التوافد، والكادر الطبي بين مصدوم ومنهار وغير مصدق لما لم يره قبلاً إلا في أفلام الحرب، لكن الجميع كان يعمل بأقصى طاقته لإنقاذ ما يستطيع، «بقت الإصابات تتوافد. إسعافاً وراء الآخر. شقشق الصباح ولا تزال الإصابات تأتي. بعدها بدأت تأتي الإصابات في سيارات خاصة. كانت الساعة السادسة والنصف حين توقفت خدمات الإسعاف بشكل مفاجئ. استغربنا. واستغربنا أكثر حين اختفت سيارات الإسعاف من مجمع السلمانية الطبي. علمنا فيما بعد أنها مُنعت من الوصول للدوار. سألنا: كيف؟. قالوا: تعليمات، لأن الطواقم التي ذهبت ضُربت من قبل قوات الأمن. لم نكن حينها نعلم عن تفاصيل الاتصال بين وزارة الداخلية ووزارة الصحة الذي انكشف فيما بعد، والذي فضح أمر الداخلية بمنع سيارات الإسعاف عن الذهاب لانقاذ المصابين».

لم ينته هذا الصباح المثقل بالصدمات، أخبار تصل عن إصابات لا يستطيع أحد الوصول إليها، أخرى عن جثث ملقاة في الطريق لا يستطيع أحد التقاطها، لا أحد يعرف ما هو الحقيقي فيما يقال مما هي تصورات أو إشاعات أو توقعات، لا أحد يعلم لأنه لا أحد يستطيع الوصول إلى الدوار ولا إلى المنطقة المحيطة، تمت محاصرتها بالكامل. سيارات الإسعاف اختفت ولا أحد يعلم عنها شيئاً. ما العمل؟

«عرفنا فيما بعد أن هناك جرحى كثيرين من منطقة القفول ومني وسنابس والبرهامة، إصاباتهم: كسور وجروح واختناقات. أسعفهم الأهالي، بينهم طبيبة كويتية اعتقد بأنها آوت بعض المصابين في شقتها التي تطل على الدوار. وهي شاهد عيان على ما حدث في 17 فبراير بكل تفاصيله، كتبت ما شاهدته بعد ذلك في إحدى وسائل الاعلام العالمية. التقيت بها فيما بعد العودة للدورا في الخيمة الطبية وقالت لنا بما شهدته».

بيان الأطباء..

يكمل العكري: «في هذه الأثناء التي منعت الإسعافات عن الخروج، كانت هناك إصابة علي المؤمن، في تسجيل الاتصال الذي تم بين وزارة الداخلية ومسؤول الإسعاف الذي فُضح فيما بعد، كان يقال إن جثة ملقاة بين محلات الحواج وإشارة القفول. رجال الأمن كانوا قد أغلقوا الشوارع عند (محلات الحواج). بقينا ننتظر لا نعرف كيف نتصرف. كل دقيقة تمر قد تنقذ حياة إنسان من الموت، ونحن عاجزون عن فعل أي شيء. لم يعد يصلنا مصابون. علمنا أن الإسعافات قد تم حجزها في مركز

كانو الصحي. البعض صرخ غاضباً: نحن سنحرك الإسعافات. انطلقنا بشكل عفوي في مسيرة احتجاجية عند الساعة الثامنة صباحاً تقريباً. كان الشعار: يسقط يسقط الوزير. تسقط تسقط الإدارة. انطلقت المسيرة بمحاذاة كلية الطب. حاولت إيقاف المسيرة. قلت لهم: من العبث التفكير في تحريك سيارة الإسعاف، هذا ليس عملنا، دعونا نعود. تمكنت من إقناعهم. حرفت المسيرة وأرجعتها باتجاه قسم الطوارئ».

الساعة تجاوزت التاسعة صباحاً. الآلاف من الجماهير الغاضبة تتجمهر أمام مدخل الطوارئ، الطاقم الطبي وقف جانباً عند زواية كلية الطب. « كان معنا عدد من الأطباء بالإضافة الى رئيس جمعية الأطباء أحمد جمال وقاسم عمران. بادر مجموعة من الأطباء (معظمهم من الجيل السابق لنا) لعقد اجتماع في المستشفى مع أعضاء من مجلس إدارة الجمعية، تحديداً في غرفة الاجتماعات في الطابق الثالث. لم أكن معهم، كنت حينها أقف متضامناً مع الكوادر الطبية التي ضربت وضد توقف خدمات الإسعاف وتواطؤ وزارة الصحة.

أتى أحمد جمال مكان وقوفنا عند باب الطوارئ ومعه صيغة بيان. ناداني وعرض علي البيان. كان ركيكاً جداً ولا يمثل موقفاً يتناسب مع فداحة الحدث. قلت له ذلك وأضفت: حتى اسم صادق العكري لم يُذكر. شاركني الرأي عدد من الأطباء. رفضناه تماماً. الوضع كان انفعالياً ومشحوناً بالغضب. البعض صعّد في وتيرته مع جمال. اعتبروه محابيا ومتواطئاً، انفلتت بعض الكلمات مثل خيانة. في هذه اللحظة حاولت أن أتدارك الموقف، احتضنت جمال، كان هدفي حمايته. قلت لهم: يا جماعة هذا جمال وطني مخلص وهو من جمعية وعد. احتضنته. حاولت تهدئه الانفعال الذي كان مسيطرا على الجميع. هتفت بشعار: أحمد جمال وطني حتى النخاع. صار الجميع يرددها. أخذوا يصفقون. أخذته من يده، ومشيت معه نحو الكادر الطبي الذي كان يقف جانباً (كنا حريصين أن نقف جانباً كي لا نعوق مدخل الطوارئ). أخذ جمال الميكرفون وألقى كلمة، أدان فيها موقف وزارة الصحة، لكن لم يقل بإسقاط الوزير».

يسقط الوزير..

الغضب كان عارماً داخل المستشفى والهتافات المطالبة بإسقاط الوزير تنطلق من كل مكان حتى في الممرات. الساعة تجاوزت العاشرة صباحاً ولا تزال الإسعافات محجوزة والاستغاثات تصل دون أن يصل إليها أحد. « توجهنا إلى مكتب الوكيل المساعد أمين الساعاتي، الكل منزعج ويتهرب من المسؤولية. كان عددنا 20 ومكتبه صغير والجميع منفعل. حاولت التهدئة لنتمكن من الكلام. قال ماذا تريدون؟ قلت: ما يحدث هو خزي، اسمحوا للإسعافات أن تتحرك، أنت مسؤولنا فلو

سمحت تحرك من أجل هذا الموضوع. الاستغاثات لا تزال تصلنا حول جرحى ومصابين. اتصل الساعاتي في الوزير. أجابه الوزير بأنه سيتواصل مع الداخلية وسيرى الأمر. بعد وقت من الانتظار جاءت الموافقة بخروج الإسعافات لمحيط الدوار مع ضمان توفير الأمن لها. قال لنا سيحضرون 7 إسعافات مجهزة من مركز كانو. طلبنا منه أن ينزل إلى الجماهير الغاضبة ويطمئنها أن سيارات الإسعاف قادمة. قلنا له أنت مسؤول وكلمتك لها تأثيرها عند الناس. أتى معنا عند بوابة طوارئ الولادة. سألناه: متى تصل؟ قال: في غضون 10 دقائق. وقفنا نعد الدقائق تنازلياً. نعد الدقيقة من الـ1 وحتى الـ60، ثم نعيد حساب دقيقة أخرى، بعد 4 دقائق وصلت سيارات الإسعاف».

يتذكر العكري: «اتصلت بوزير الصحة في هذه الاثناء. قلت له بشكل صريح ومباشر: أبو نواف. ما حدث اليوم في مجمع السلمانية الطبي، وطريقة تعامل الوزارة مع الأزمة، هو خزي وعار على تاريخ الطب في البحرين، وخزي وعار على وزارة الصحة، وكونك أنت على قمة الهرم الصحي، أنصحك أن تقدم استقالتك حفاظاً على تاريخك. قال لي: من أنت لتطلب مني الاستقالة؟ أجبت: موظف صغير، حريص على سمعة الوزارة وسمعة مهنة الطب. أضفت: أينك أنت؟ البلد مقلوبة والمستشفى فوضى عارمة، وأنت تجلس في مكتبك، كان يجب عليك أن تكون هنا».

الإسعاف خائباً..

تفقد المكان كان هو الهدف من الإصرار على خروج الإسعافات. رجال الأمن ورجال الدفاع ينتشرون في محيط الدوار. «عند إشارة القفول تم إيقافنا من قبل قوات الأمن، ثم أوقفتنا بعدها قوات الجيش. بعد اتصالات سُمح لنا بالمرور. 3 إسعافات وصلوا بالفعل محيط الدوار. كانت السيارة تسير فوق موج من الأحذية وعبوات المطاط. في هذا الوقت أزيل ما يقارب 80% من الخيم. كانت الجرافات ترفع الخيام والمضائف. لم نر أحداً، شعرنا بالخيبة. خرجنا باتجاه مطعم الأبراج. كنا قد فتحنا صوت الإسعاف لربما حالة طارئة تسمعنا فتصلنا. فُرض علينا أن نغلقه مع التهديد. أمام مطعم الأبراج باتجاه مجمع الدانة شاهدت صحافيين أجنبيين، ركبا معنا في الإسعاف وخرجنا. عند كل مفترق طريق كانت هناك نقطة تفتيش. عند تقاطع المؤيد أوقفونا وقالوا لنا: لديكم كاميرا. نفينا. الصحافي الأجنبي الذي كان يحمل الكاميرا ويقوم بالتصوير فكك كاميرته بشكل سريع وألقاها تحت الكرسي، وأظهر كاميرا شخصية صغيرة. سأل رجل الأمن: من أنتم؟ قلت: أنا طبيب عظام وأظهرت بطاقتي، وعرفت الباقين أنهم طاقم طبي. لم يصدقوا في البداية وراحوا يتجادلون قبل أن يسمحوا لنا بإكمال الطريق».

عند الثانية عشرة عادت سيارات الإسعاف، البعض عثر على حالات بسيطة. كان جمهوراً حاشداً

ينتظر في باحة الطوارئ «شعرنا أننا نجر أذيال الانكسار إن لم نتمكن من مساعدة أحد في الوقت المتأخر. استقبلونا. كان البعض يتحدث في ميكرفون صغير. تمت جرجرتي للكلام عبر الميكرفون. قلت ملاحظاتي بانكسار وألم: المكان مجرّف، المنظر كئيب جداً، آثار الأحذية الملقاة في المكان، عبوات الطلقات التي تملأ المكان، أشبه بأعقاب ساحة حرب ليس بها غير المخلفات. عبرت عن مشاعري بالخيبة أننا ذهبنا متأخرين. بعدها تكلم كل من الطبيبين عبد الخالق وغسان».

بعد نهار كئيب..

«كان اليوم طويلاً ومنهكاً وعصيباً وكئيباً. قضيت باقي اليوم في المستشفى أتفقد حالة صادق وصحته وأطمئن عليه. الألوف من المعتصمين الذين كانو قبل ليلة في الدوار، تحولوا جميعهم إلى باحة الطوارئ. جموع من المحتشدين وضعوا طاولة، معظمهم لم يكونوا من منتسبي وزارة الصحة. الصحافة العالمية كانت موجودة، صارت لي لقاءات مع بعضها قبل أن أعود البيت مثخناً بالتعب والألم.

ألقيت بنفسي في سريري كي أنام. عيناي ترفضان النوم. ترن في أُذني كلمة الوزير: «من أنت لتطلب مني الاستقالة؟» كان رداً استهتارياً ولا يمكن أن يصدر عن إنسان مسؤول. أحداث اليوم الصاخبة تتقافز أمامي بقلق وشعور عميق بالواجب وبالمسؤولية، وسؤال ماذا يجب علي أن أعمل. الليل يوشك أن ينتهي وأنا محاصر بالأفكار والصور والمشاهد. صوت أذان الفجر يتخلل شرودي. ينادي حي على خير العمل. أقوم للصلاة، ولا أعود للنوم».

الألم يجمعنا..

منذ يوم 17 فبراير، صار اتفاق على إصدار بيان إدانة من جمعية الأطباء. خلال يومين تمت صياغة ما يقارب 4 بيانات كمسودات. رُفضت جميعها، واعتمدت الأخيرة في بيان مشترك بين جمعيتي الأطباء والأسنان. ألقي البيان بعد العودة إلى الدوار في 20 فبراير في المسيرة التي خرجت نحو الدوار بعد انتهاء الدوام الرسمي. كان رئيس جمعية الأطباء أحمد جمال هو من ألقى البيان، وتضمن مطلب الكوادر الطبية في استقالة وزير الصحة.

صباح يوم الجمعة 18 فبراير. يقرر عدد من أفراد الكادر الطبي عمل وقفة تضامنية تدين ما حدث على المواطنين والكادر الطبي، بينهم علي العكري. يتم الاتصال بجمعية الأطباء. يتقرر عمل وقفة تضامنية خاصة بالكادر الطبي عند الساعة الثانية ظهراً في باحة الطوارئ. على أن يرتدي المعتصمون الزي الرسمي. يصاغ بيانٌ باسم منتسبي الحقل الطبي. وسائل التواصل المجتمعي من

المسجات وتويتر والفيس بوك تلتقط الخبر سريعاً ويصير النشر ضغطة زر لا تتوقف. «تفاجأنا بالاعلان عن الوقفة التضامنية في بعض المساجد بعد صلاة الجمعة، عند الثانية ظهراً ذهبت لمكان الاعتصام وتفاجأت بالحضور الحاشد والكبير»، يقول العكري.

أعداد من المتجمهرين لا ينتسبون إلى الكادر الطبي يقفون داخل الباحة معتصمين منذ اليوم السابق. المسعف ابراهيم الدمستاني يعلن في الميكرفون: المعذرة ولكن هذه الوقفة لها خصوصيتها، هي وقفة خاصة بالكادر الطبي فقط. الجميع يتفهم. تُخلى الساحة للكادر الطبي. كل يرتدي زيه الرسمي. تصير باحة الطوارئ بحراً من الأبيض، والأزرق، وسترات المسعفين الصفراء. تختلط الألوان جميعها وتتمازج كما لم تكن من قبل. الكتف بالكتف والهتاف بالهتاف والهم بالهم. الألم يجمع، تماماً كما يفعل الأمل.

«ما لا يقل عن 60% من منتسبي الصحة كانوا هناك. لأول مرة في تاريخ وزارة الصحة يجتمع منتسبو الصحة على قلب واحد ومثل جسد واحد. دائماً ينظر للكوادر الطبية أنها طبقية: الاستشاري ثم المساعدين من الأطباء ثم الممرضين والممرضات ثم الكتاب وهكذا. ثمة حاجز طبقي موجود وتراتبيات وظيفية مزعجة. الحدث المشحون بالألم أذاب هذه الطبقات. رأيت في عيون عمال التنظيف الغبطة أنهم يقفون صفاً مع الاستشاريين والاطباء، أسعدني أن الهدف المشترك قد أزال الحواجز بين الجميع وأذابهم معاً».

قرابة 2000 من منتسبي الكادر الطبي يقفون الآن في باحة الطوارئ. ضخامة العدد والحماس الطاغي، حوّل الوقفة إلى مسيرة. تحركت إلى الزاوية الشرقية الجنوبية مدخل كلية الطب. لم تتمكن من الحركة أكثر من دورتين بسبب ضخامتها. استغرقت الأمر قرابة ساعة.

رصاص الجيش ونقص الدم

ابراهيم الدمستاني واقف يلقي البيان الختامي حين بدأ الجميع يسمع صوتاً قادماً من بعيد. «سمعنا صوت طلقات نارية. استغربنا. لم يلبث أن وصل إلينا أن مجموعة من الشباب قد خرجوا من ختام مجلس عزاء علي مشيمع متجهين نحو الدوار، وأن الجيش قد ضربهم»، يكمل العكري «مباشرة قلت للجموع: لنفض التجمهر، والأطباء إلى العمل «.

بدأت الحالات تأتي، من حسن الحظ أن الكادر الطبي متواجد في السلمانية: «كنت في وحدة الطوارئ. وصلت حالات الاختناق، قبل أن تصل حالات الرصاص الحي، وحالة عبد الرضا بوحميد».

تحولت باحة الطوارئ إلى ميدان اعتصام من جديد، الفوضى العارمة من جديد، الهياج الغاضب من جديد. العكري يشعر بالانزعاج والخوف من عدم القدرة على العمل بشكل مناسب: «مشكلتنا هي الفوضى العارمة التي تحدث وصعوبة التواصل».

«ذهبت إلى غرفة العمليات، وهناك اكتشفت أن لدينا شحة في أكياس الدم. احتياج كبير للدم في غرفة العمليات والطوارئ. توجهت الى بنك الدم واعلنت الحاجة. على الفور خرج الشباب يحملون يافطات مكتوب عليها: نحتاج - O «. يكمل العكري: « كانت غرفة التبرعات مغلقة. اتصلت برئيسة بنك الدم، قلت لها: الدنيا مقلوبة وهناك حاجة ماسة للدم. اتصلت رئيسة بنك الدم بالادارة وسمحوا لها. جاءت مع عدد من الموظفين». يكمل العكري: « كان أفضل ما قدمه المتجمهرون حينها، أن المئات تبرعوا بالدم. اصطفوا من أجل التبرع. جمعنا في تلك الليلة ما يقارب 800 كيس دم في وقت قياسي. وهي أكبر حملة شهدتها البحرين». يثني العكري: «الجميع وضع أمام مسؤولية تاريخية واستجاب لها بكل مسؤولية، الجميع كان يعمل كخلية نحل، بنك الدم انتعش، الثلاجات امتلأت، فصائل الدم كلها صارت متوافرة. تم إرجاع مئات المتبرعين، كان التبرع مقصوراً على الرجال بسبب خصوصية وضع النساء، بعض النساء لم يقبلن وأخذن (يهاوشننا) كي نقبل تبرعهن بالدم».

انتهى ذلك اليوم بالنسبة للعكري عند هذا الحد، «مررت على العمليات مرة واحدة. سألت: تحتاجوني؟ قالوا لا، هناك عدد كاف من الأطباء يعملون. أوقفنا عدد من الصحافيين كانوا يقومون بالتصوير وعمل اللقاءات، علمنا أنهم دخلو بتصريح من أمين الساعاتي، كان كل من أمين الساعاتي ووليد المانع موجودين في المستشفى ويقومان بتفقد المكان والحالات. حدثت لقاءات لي مع بعض الصحف، قدمت تصريح لقناة الجزيرة».

التأهب لـ19 فبراير

«أتقلب على سريري بعين لا تتقن غير تقليب الصور التي عايشتها طوال اليوم. لليوم الثاني على التوالي عيناي تجافيان النوم. فجراً تصلني رسالة هاتفية من تلك التي تنتشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي: العودة إلى الدوار من ثلاث جهات بصدور عارية من النعيم والسنابس والمرفأ المالي، الساعة الثالثة عصراً. القلق والأرق يأخذان مني كل مأخذ: يا إلهي. ماذا يمكن أن يحدث غداً؟ إذا كانت مجرد محاولة بسيطة للوصول إلى الدوار يوم الجمعة نتجت عنها كل هذه الاصابات، ماذا سيحدث غداً؟ آه.. مالعمل؟».

شقشق صباح يوم السبت 19 فبراير 2011. العكري لا زال يتقلب في سريره بلا نوم. «لم أستطع الانتظار أكثر. الساعة السادسة صباحاً غادرت سريري وجلست على الدرج كي لا أزعج زوجتي وأطفالي النائمين، اتصلت بجاسم المهزع رئيس قسم الطوارئ، كنت أود أعلمه بقرار المحتجين بالعودة إلى الدوار، وذلك لأخذ الاحتياطات في المستشفى؟ لم يرد. تركت له مسج». يكمل العكري «ثم اتصلت في أمين الساعاتي، قال لي: ويش عندك يا علي مقعدنا من الصبح؟ أخبرته عن الرسالة المتناقلة، قرأتها له. قال: من أين المسج، قلت: من جماعة حق كما يبدو. أكدت أنه يجب أن تؤخذ على محمل الجد وأن نعد العدة لتنظيم أمورنا واتخاذ الضربة الاستباقية كي لا نتفاجأ بحالات نحن غير مهيئين لاستيعابها. قلت له: هذا ليس حادثاً هذا حدث، الحادث نفاجأ به بينما الحدث نعيشه ونتعامل معه ونستعد له. هذه الأجواء تذكرني بغزة، وأضفت: في غزة كنا كادراً طبياً متكاملاً من مختلف الاختصاصات، تم تهيئة المكان والأسرة ليكونوا على أهبة الاستعداد. قلت له هذا العمل سيكون في رصيدك، وتحت مظلتك وتوصياتك».

يكمل العكري: «سألني الساعاتي: ماذا تقترح؟ قلت الاستفادة من جميع الكوادر التي لها خبرة في هذا المجال. حسن التوبلاني مهيأ للتعامل مع الطوارئ لخبرته في الفورمولا، كذلك باسم ميرزا، وأمل الديلمي. وأضفت: باسم ضيف أيضاً إداري ورئيس قسم، قال دعنا نجتمع الساعة 8:30 في المستشفى».

«الجميع أبدى استعداده وتفانيه للعمل. صار الاجتماع مع الساعاتي وحوالي 6 من الكوادر الطبية المهيأة. الفكرة إننا وعلى ضوء ما يتداول نكون في المحيط للمساعدة، ويكون هناك استعداد لما يقارب 10 عمليات يومياً، بدلاً من عمليتين في العادة. أمين الساعاتي أصدر بعض القرارات اللفظية، أن يكون هناك فريق للعمليات بمختلف التخصصات. أوكل مهمة رئاسة العمليات إلى باسم ضيف، وأوكل إلى كاظم زبر رئيس مجلس إدارة العمليات، وطلب من هدى نائبة رئيسة العمليات، وطلب من الأقسام ذات الصلة مثل العظام والجراحة التعاون مع باسم في تجهيز أمورهم في العمليات إلى الأسوأ».

يكمل العكري: «باسم وهدى خرجا من الاجتماع وأجريا اتصالات بناء على تعليمات الساعاتي. الطوارئ كان فوضى عارمة. كان لابد من تشكيل فرق طوارئ للانعاش تتكون كل فرقة من ممرضين ومسعفين وجراح وطبيب انعاش وطبيب تخدير. الهدف هو تنظيم العمل من أجل أن لا يتدخل أحد في عمل الآخ، بحيث كل مريض يأتي يستلمه فريق متكامل. تقريباً تم تجهيز 20 فريق. التوبلاني صار مسؤول عنه. تم أيضاً تجهيز فريق لتصنيف الاصابات، صارت فاطمة حاجي مسؤولة عنه

لفترة. بعد تبلور الفكرة طُلب من الأطباء المناوبين الحضور إلى غرفة الاجتماعات، حضر 200 طبيب. تم التصنيف. من التنظم الجميل الذي حدث، أن عادل بوجيري رئيس قسم الأطفال عمل طوارئ للأطفال، ونظموا فرق طوارئ أيضاً ».

بداية النكوص..

هكذا سار الأمر سريعاً ومنظماً، الكادر الطبي بأكمله تهافت لتأدية دوره الإنساني، لم تكن لعبة الطائفة (التي لعبتها السلطة فيما بعد) قد ابتدأت لتقسم الأطباء إلى فريقين، الجميع أخذ على عاتقه التعامل المهني والإنساني مع الوضع، وتهيأ ليؤدي دوره الطبيعي الذي لا دخل للسياسة به. لكن هل تسير الأمور بهذه المثالية؟ أو لنقل هل تترك على سجيتها الإنسانية؟

نكمل مع العكري: «خرج أمين الساعاتي من الاجتماع وذهب إلى ادارة المستشفى وأخبرهم بما تم اقراره في الاجتماع. في هذه الفترة بدأت عبارات التسقيط لعلي العكري من قبل بعض أعضاء جمعية الأطباء، تتضمن اتهامات بالتجاوز. قلت لهم أن كل ما حدث هو تنفيذاً لتعليمات أمين الساعاتي، وقع خلاف حاد ومناوشات، ثم هدأت الأمور والنفوس».

لم يقف الأمر عند هذا الحد، تطور الأمر أكثر: «عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، تلقيت اتصالاً من الادارة، تحديداً من سكرتيرة أمين الساعاتي، تطلب مني الحضور لاجتماع. شممت رائحة نكوص واستشعرت الغدر. في طريقي اليهم التقيت الدكتور عبد الخالق العريبي وطلبت منه أن يأتي معي. في الاجتماع كان هناك مجموعة من رؤساء الأقسام والاداريين ورئيس الأطباء ورؤساء الدوائر ورئيس جمعية الأطباء ونائب الرئيس وجاسم المهزع رئيس قسم الطوارئ. قال الساعاتي: نشكر الدكتور العكري على مبادرته، لكن تعرف علي، أن المستشفى فيه دوائر تعمل. قلت: يعني؟ قال: ستكون هناك استعدادات. قلت له: أريد أن أعرف، اجتماعنا الأول هل لا تزال قراراته نافذة؟ قال: نعم أكيد نافذة، لكن بالنسبة للطوارئ جاسم لديه تحفظات، ثم تكلم المهزع وقال بأنه سيقوم بنفسه بتنظيم عمل الطوارئ ولا يريد تدخلات».

شعر العكري بأن الأمر لا يعدو عن كونه تسكيتاً وتراجعاً عما دار في الاجتماع الأول. قال لهم «الفكرة هي الاستعداد للحدث لا شيء آخر، وأضاف، عندما يكون هناك سباق (الفورمولا) أو سباق (الهجن)، فأنتم تحضرون عشرات الفرق من الاسعافات، والآن في وضع مثل هذا لا يوجد احساس بما يمكن أن يحدث من تدافعات وإصابات، لا يوجد فريق اسعاف واحد. أنتم مسؤولون أمام التاريخ ألا توفروا اسعافاً ولا عيادة صغيرة. هذا استهتار بأرواح الناس. كل من أخطأ

سيحاسب. إدارة الأزمة سيئة جداً. واليوم اختبار كبير. فقط اعملوا المطلوب منكم لا أكثر». قال المهزع مخاطباً العكري: أريد منك شيئاً واحداً، أن تكون أنت المنسق العام. شعر العكري بمحاولة التملص من المسؤولية من أجل القائها كاملة عليه، أجاب: «اسمح لي، أنا لا أعدو أن أكون أكثر من طبيب في قسم جراحة العظام، إذا طلب مني سأدخل العمليات، وإذا احتاجوا لي فأنا مستعد أن أكون عامل نظافة في الطوارئ، لكن ليس مسؤولاً.

يكمل العكري: «قالوا لي: سنجعل جمعية الأطباء تسجل أسماء المتبرعين. قلت لهم ما دخل الجمعية في هذا الموضوع؟ كل ما في الأمر هو أننا أمام إدارة عليها أن تنظم عملها فقط. خرجت»

انسحاب الجيش..

نزل العكري في الطابق الأرضي، كانت رولى الصفار تجمع ممرضاتها وتنظم العمل معهن حسب التعليمات التي صدرت منذ الصباح. السر كله في التنظيم. نظمت رولى فرقاً من الممرضات ليشكلوا سلسلة بشرية لصد المتظاهرين ومنعهم من التدافع على مدخل الطوارئ، وذلك لضمان مرور الحالات دون عرقلة. كما طرحت فكرة إبعاد المتظاهرين عن مدخل الطوارئ ما يقارب 20 مترا. كما تم تنظيم فريق متطوعين يقف مصطفا عند بوابة الطوارئ، بحيث ما إن يصل مصاب أو مريض حتى يقوم أحدهم بتسلمه من عند المدخل وتوجيهه للمكان المناسب.

لم يكن ولي العهد قد أمر حينها بانسحاب آليات الجيش والدفاع. ولم يكن أحد يعلم أن ذلك سيحدث أصلاً. الجميع في حالة الاستنفار القصوى. صار وقت النزوح إلى الدوار. «في البداية حدثت مواجهات، وصلتنا قرابة 100 حالة من الاختناقات والشوزن. بعد الواحدة والنصف جاءنا خبر انسحاب الجيش. شعرنا بسعادة غامرة بحقن الدماء وألقينا عن كاهلنا صخرة ثقيلة من الهمّ والقلق والقلق المهلك. عند هذا الحد أسدل الستار على موضوع اللجنة وانتهى دورها. لكن بقت الفكرة موجودة والحاجة لها لم تنته. بالفعل تم تنفيذ جزء كبير منها في الأسابيع القادمة مع عودة تصاعد أعمال المواجهات ودخول البلطجية على الخط».

عاش البحرينيون اللحظة التاريخية التي لن ينسوها، انسحاب الجيش والعودة إلى الدوار بتاريخ 19 فبراير، الفرحة غمرت الجميع وكذلك الحلم. ظن الجميع أنها بداية الاستجابة لمطالب الشعب، شعروا أنهم وشيكون جداً من تحقيق حلم الشعب بإصلاح حقيقي. كان هذا فيما يخص الشعب. لكن فيما يخص دور الكادر الطبي، هل انتهى إلى هنا؟ «في الدوار نصب أحد الوجهاء خيمة طبية في اليوم نفسه. بدأ تأثيث الخيمة بشكل سريع، وصلت تبرعات. وزارة الصحة بدورها

أبدت استعدادها لتأثيث ما أسمته (عياة دوار مجلس التعاون). الدكتور عبد الخالق بشكل تطوعي باشر العيادة. تم توفير إسعافين على مدار الساعة».

في باحة الطوارئ لم ينفض التجمهر. حتى بعد أن غادرت الحشود إلى الدوار بقت مجموعات غير مطمئنة تهجس بتكرر الهجمة على الدوار مرة ثاينة.

إقالة الوزير..

«لا يزال همنا إسقاط الوزير خصوصاً بعد ظهوره في التلفزيون وادعائه أن كل ما وصل إلى المستشفى في 17 فبراير هي 7 حالات بسيطة فقط. حاول الوزير الحمر أن يهون الموضوع ويبسطه أمام الرأي العام. لم يكن مقبولا هذا الكذب ونكران الواقع. خرجنا يوم الأحد بعد الدوام الرسمي في مسيرة بالزي الرسمي، لم يكن أي أحد من المشاركين على المناوبة، وكان هذا ضمن الأمور التنظيمية للمسيرة ألا يترك أحد عمله. خرجت مسيرة ضخمة جداً سارت من بوابة المستشفى وحتى الدوار، رفضنا مشاركة أي شخص لا ينتمي للحقل الطبي، المطلب الوحيد هو إسقاط وزير الصحة. تكررت بعدها بيومين، وأخرى بعدها بأسبوع. هناك مسيرات صغيرة أخرى خرجت لأقسام مختلفة من وزارة الصحة، خرجت مسيرة تمثل قسم الصيانة يوماً، وأخرى تمثل العلاج الطبيعي في يوم آخر وهكذا يكمل العكري «في نفس الوقت أطلقت حملة لجمع تواقيع تطالب وزير الصحة وجهازه التنفيذي بالتنحي. التفاعل مع العريضة وصل لأكثر من 5000 توقيع. وبالفعل تمت إقالة وزير الصحة واعتبر وزير تأزيم. وعين الوزير الجديد».

انقلبت الموازين بسرعة داخل وزارة الصحة، وانقلبت معها مواقف أيضاً. تفاجأ العكري في يوم إقالة الوزير باتصالين. «الأول من محمد أمين العوضي رئيس الأطباء، قال لي أريدك بسرعة. أدخلني وأقفل الباب. سألني: تريقت؟ ثم قدم لي شاي حليب وماي وسندويشات من الحجم الصغير. كان يبرر عدم وجوده. قلت له أنا لست في موقع المساءلة لتلقي علي التبرير» ذهبت لمكتبي يكمل العكري: « زارني في مكتبي علي ابراهيم نائب رئيس الأطباء وقال لي: أنا يوم الخميس كنت أول الواصلين للإدارة، واتصلت بوزير الصحة 7 مرات حتى رد عليّ أخيراً، وأخبرته بالوضع. قلت له: نعم لقد رأيتك. كنت متعجباً من سبب الاهتمام المفاجئ بإبلاغي بالتفاصيل وأنا لست في موقع مساءلة ولا مسؤولية لأحد. هل كان ذلك بسبب جملتي التي قلتها لهم في ذلك الاجتماع الذي سجل نكوصهم: «كل من أخطأ سيحاسب»؟ هل كانوا يخافون من شيء؟ لا أعرف».

كدت أُضرب..

بعد السماح بالعودة إلى الدوار، صار العكري يرى وجود المتجمهرين في باحة الطوارئ بلا داع. حاول أن يوصل ذلك إلى المتجمهرين «ليلاً ذهبنا للمتجمهرين في باحة الطوارئ، أنا ونبيل تمامً ورولى الصفار. قلنا لهم: يا جماعة، نحن ككوادر طبية سننتقل إلى الخيمة الطبية في الدوار، أنتم دوركم هنا قد انتهى. هاجمنا البعض: من قال إننا سنمشي؟ قلنا: كي لا يُحسب عليكم أنكم تحتجزون المكان. في الوقت نفسه اعتلى أحمد جمال المنصة، وتكلم إلى المتجمهرين هو والدمستاني، قالا إنه الآن قد سمح لكم بالعودة إلى الدوار. لم يعجب المتجمهرين الكلام. أوشكت فوضى أن تحدث. أخذتُ جانباً 5 من الناشطين منهم، دخلت معهم إلى غرفة انتظار الأهالي، هدأتهم، قلت لهم إن ذلك يضر العمل، وأن المرضى لن يتمكنوا من الدخول، البعض استجاب والبعض رفض، أحدهم اسمه عباس، كان يحمل حطبة (خشبة) وأوشك أن يهاجمني».

عند الواحدة ظهراً من اليوم التالي تلقى العكري اتصالاً لحضور اجتماع في مكتب الوكيل أمين الساعاتي. غسان ضيف أيضاً. كان الاجتماع بخصوص المتجمهرين في الباحة، « قال الوكيل إن الوزير كلّمه عن المتجمهرين الذين يضعون خيام عند المدخل. قال أنتم أفضل من يمكن أن يكلم المتجمهرين لينفضوا. قلت له: أنا لا نفوذ لي عليهم كلمهم أنت. أضفت: البارحة كلمتهم وكدت أُضرب بحطبة».

مساء اليوم نفسه، ذهب العكري وتحدث مع المجموعة نفسها، «لم يكن بينهم عباس الذي كاد يضربني، لكنهم لم يقبلوا. عدت للوكيل وأخبرته» يكمل العكري « كان ضد هذا التصرف تماماً لهذا لم أذهب للخيمة التي نصبت في الباحة ولم أشارك في فعالياتها ولم ألق أية خطبة، عرفت فيما بعد أن مجموعة من الشباب تداولوا عريضة ضدي لمطالبتي بإخلاء باحة الطوارئ، البعض رفض التوقيع».

في الدوار، بدأت الأمور تنساب بهدوء. مع الوقت صار كل شيء منظماً ومسترسلاً وحالماً. الخيمة الطبية صارت جزءاً من المكان بتجهيزات موقعة من إدارة السلمانية. «فتحت العيادة الطبية بالدوار وصرت أذهب لها بشكل طبيعي. أذهب الخيمة بشكل يومي بعد انتهاء الدوام. عملنا جدول مناوبة ونظمنا العمل التطوعي فيما بيننا. ناوبت ليلاً مرتين».

لم ننته بعد..

سارت الأمور هادئة بعد 19 فبراير وحتى الأسبوع الأول من شهر مارس. ارتفعت وتيرة الأحداث

بعدها إلى حدها الأقصى، قبل أن يعلن قانون الطوارئ، وتنتشر قوات درع الجزيرة على طول البلاد وعرضها، ويتم الهجوم الثاني على الدوار، ويستباح كل شيء، وقبل أن يتم إلقاء القبض على 48 من أفراد الكادر الطبي على رأسهم العكري، ويتعرض لتعذيب همجي بربري، ويحكم عليه بـ15 عاماً من السجن في المحاكم العسكرية، تخفف إلى 5 أعوام في المحكمة العادية، وقبل أن يداهمنا أمر القبض عليه في 2 أكتوبر الماضي، ليقطع علينا تسلسل الحكاية الأصعب في قضية الكادر الطبي: حكاية الطبيب الذي تقرر أن يكون كبش فداء الطاقم الطبي.

لكن الحكاية لم تنته بعد، فهي لا زالت تصنع أحداثها وفصولها داخل السجن، ستبقى تنتظر العكري خارج السجن ليضع نقطتها الأخيرة، لذلك انتظرونا يوماً، فنحن أيضاً لم ننته بعد..

د. علي العكري (مواليد)1966. درس الطب البشري بجامعة الموصل بجمهورية العراق. انضم للعمل بمجمع السلمانية الطبي في العام 1991م. أكمل تخصصه في جراحة عظام الأطفال بإيرلندا- دبلن (2000-1999). أول جراح عظام للأطفال بمملكة البحرين. ساهم في إدخال العديد من التقنيات الجراحية في مجال عظام الأطفال.أسس عيادته الخاصة في سنة 2004. مؤسس جمعية أصدقاء الشلل الدماغي البحرينية (2007).عضو فخري في المؤسسة الخيرية الملكية التي تقدم الخدمات الطبية المجانية للأيتام والأرامل. شارك أبان حرب غزة2009-2008 في القافلة المتوجهة لفلسطين لتقديم المساعدات الطبية والجراحية.

رولى الصفّار

كل شيء أبيض: قلبي، ثوبي، شعري

«أنا الآن لستُ رولى الصفار، أنا سُهى بشارة، سأخرج من هنا لا محالة كما خرجتْ سُهى بشارة» بهذه الكلمات راحت رولى تُهدهِد نفسها، فيما هي تواجه مصيرها المجهول وسط زنزانة مُظلمة مُخيفة، وفي توقيتٍ هو الأسوأ في تاريخ البحرين، لا أحدَ يعلم ما الذي ينتظره عند يد البطش، لا مكان لغير الانتقام الأسود. من جرأة الورد على الكلام، راحت رولى تُردّد على نفسها هذه الكلمات، تَمنحُ نفسها (بشارة) تكفيها للصمود، وللخروج مُنتصرة.

من هي رولى الصفار؟ قضتْ خمسة أشهر في سجون السلامة الوطنية، يُصنّفها البعض بمستوىً أكاديمي ومهَني أكثر من مُمرّضة وأقل قليلًا من طبيبة، لكنّ الشعب البحريني أطلق عليها لقب "الدكتورة".

أوّل مُمرضة في البحرين تَحصَل على ماجستير تمريض العائلة، ماجستير آخر في الطوارئ والعناية القصوى، وثالث في تعليم التمريض. تعملُ في الحقل الطبي منذ 1988. بدأتْ في أمريكا ثُمّ البحرين عام 1996، لتُواصل عملها كأستاذ مُساعد في كُلّية العلوم الصحيّة، ورئيسة المركز العالمي للتدريب في نفس الكلية، ورئيسة برنامج تمريض الطوارئ.

الصفّار تعمل إذًا في كُليّة العلوم، وتُدرّب في مركز السلمانية الطبّي، وتُدرّس الأطباء والمُمرضين على الإسعافات الأولية، كذلك الإسعافات الحيوية المُتقدّمة. تسعى جمعية التمريض البحرينية التي ترأسُها رولى إلى تطبيق برنامج يَهدفُ إلى تدريب 2000 متطوّع، بحيثُ يتوفّر مُسعف مُتدرّب في كلِّ قرية، وكلِّ بيت، وكلِّ حي، وكلِّ زقاق.

بدأ المشروع قبل 14 فبراير/شباط 2011، اليوم شهد العمل عليه تكثيفًا أكثر، لأنّ الحاجة إليه باتت ماسّةً أكثر. من إنجازات الجمعية أيضًا كسبِها للقضيّة التي أُثيرت عام 2005 حول المُطالبة بتغيير الكادر التمريضي، ففي العام 2008 عُدِّلت درجات جميع المُمرضين من الدرجات العمومية إلى الدرجات التخصّصية، مع رفع العلاوات الأخرى كعلاوة الملابس أو علاوة الخطر. اليوم تسعى وزارة الصحة لإرجاع المُمرضين إلى الكادر القديم.

ليلة 14 فبراير/ شباط دخلت فضاء الإنترنت أتقصى في مواقع (فيسبوك) عن ثورة 14 فبراير/ شباط الموعودة والمسماة «يوم الغضب»، حينها لم يكن تويتر منتشراً كما هو الآن. كنت أتساءل : هل هي ثورة مثل تونس ومصر؟ كنت قلقة. حدسي يقول إن أمرا كبيرا مؤلما قادما في البحرين لا محالة. وحدسي يصدقني في الغالب: أن يحتشد الناس وتباغتهم ضربة أمنية موجعة من غير أن

يحتسبوا. كيف.. لا أعلم؟

الدوار نبض البحرين

15 فبراير/ شباط كان أول اعتصام في الدوار. وصلت الساعة الثالثة عصرا، المتجمهرون لا يزالون قلة. أوقفت سيارتي بمحاذاة رصيف الدوار. لحظات وبدأت أرى حشودا تتدفق من كل ناحية، كنت مندهشة وخائفة من ضربة أمنية. أبعدت سيارتي إلى محيط مجمع الدانة، الناس تتدفق من كل الأعمار، أطفال، ونساء،و شباب، وكهول، ونساء حوامل، ومعاقون، وآخرون على كراسٍ متحركة. كان عرسا خياليا يتحول إلى حقيقة لم أستوعبه بعد وخصوصا أنه يحدث في البحرين. تحول نصب الدوار إلى قطب مغناطيس يجذب الناس إليه، تحول إلى كعبة والشعب في حج يتوافدون إليه من كل القرى والمدن، من كل مكان. امتلأت إطلالة الكوبري بسفحه الرحب الذي اكتظ بالناس، يغنون أغانيَ وطنية ويصفقون بأيد تتمايل في حركة واحدة وكأنها موج البحر، وهتافات استعاروها من بلدان الثورة : الشعب يريد إسقاط النظام، علقوا البنرات المنادية بنفس الشعار. ما زلت مغتبطة بهذا الحلم البحريني، لم أتوقع أن أهل البحرين متألمون إلى ذلك الحد، هذا الشعب لا يجمعه الفرح الآن بقدر ما يجمعه الهم والألم والذي حدا به للاعتصام خصوصا بعد سقوط أول شهيد. قررت ألا أعود إلى البيت للغَداء، ذهبت للعمل رحت أتفقد غرف الإنعاش .

منذ اليوم التالي تغير سياق حياتي إلى شكل مختلف، كنت أدرِّس في كلية العلوم الصحية وأنتهي الساعة 7 أو 8 مساء، بعدها أبدّل لباسي إلى بنطال جينز و(تي شيرت)، وحذاء رياضي، أحمل الروب الأبيض (Lab Coat) بأحلامي وهمومي وأطير مباشرة إلى الدوار. توقفت حياتي في البيت، كما توقفت حياتي الاجتماعية، صار الدوار هو مركز حياتي، مركز قلبي وأمنياتي، فيه أستنشق عبير الحرية. انطلقت فكرة نصب خيمة طبية هناك، دائما همّنا الأول هو صحة الناس وسلامتهم. كانت أول خيمة تنصب في الدوار، جُهِّزت بالمعدات تحت إدارة متطوعين من الكادر الطبي وسمحت د. مريم الجلاهمة بصرف الأدوية (وهناك مستندات تثبت ذلك)، عملنا فيها على تثقيف الناس تثقيفا صحيا، من أعراض الضغط والسكر، ومن حوادث السيارات. لم أكن أمشي على قدميّ وكانت النشوة والحماسة تحملانني، فلا أشعر بالتعب لأني أجد نفسي في مهنتي الحقيقية، في العمل التطوعي الذي أعشق، لذا كنت أتصل بالزملاء أيضا في المستشفى أسألهم إن أردتم مساعدة فأنا موجودة هنا وهناك، رِجلٌ هنا، ورِجلٌ هناك .

جرح الخميس

يوم 17 فبراير/ شباط ذهبت الساعة 6:30 صباحا إلى كلية العلوم الصحية التي أدرِّس فيها.

لم أسمع بعد بضربة الدوار. في طريقي إلى السلمانية كانت الشوارع خالية وهادئة. وصلت الكلية ذهبت مباشرة إلى مكتبي وأعددت لي قهوة. بعدها رحت أتفقد الطلبة، لكنهم لم يحضروا والصفوف خالية، استلمت مكالمة من الكادر الطبي بالطوارئ يقول لي : «اتركي الكلية وتعالي.. انضرب الدوار». عدت أدراجي إلى مكتبي بدلت ثيابي إلى لباس الدوار وفوقه لبست الروب الأبيض. وصلت الطوارئ. رأيت أن الكادر يكفي فذهبت لمساعدة المسعفين، اتصلت بالخيمة الطبية بالدوار: «ويش الوضع؟» ردوا: «تعالي واحضري معك مواد إسعافية»، ركبت سيارة الإسعاف مع المواد المطلوبة. وصلت ورأيت مشهداً أهالني. زوبعة عارمة. غمامات غاز مسيل الدموع، أصوات مفرقعات، صراخ. نزلت من الإسعاف لأواجه أعاصير الزوبعة ومن عجلتي وقعت أرضا على ركبتيّ بالأغراض، ساعدني أحدهم ومسك يدي ليأخذني مسرعا إلى سيارته ليحميني، أدخلني السيارة لكني صرخت فيهم: «نزلوني طلعوني برة أبغي أساعد الناس».

عندما خرجت من السيارة رأيت د. نبيل تمام فوجهته للسيارة التي نزلت منها، ساعده الشباب، خفت عليه خصوصا وأنه مريض سرطان، ركضت بأغراضي فصادفني شاب تبرع بسيارته البيك آب لحمل الجرحى قال لي : «اتجين ويايي؟» وافقت على الفور، وتحركنا باتجاه مجمع الدانة رأيت أمامي صفا كثيفا من قوات الشغب، كان المتطوع يسوق وشاب آخر يجلس بجانبه وأنا مع آخرين نلتقط الجرحى من الأرض، ومسيلات الدموع تلاحقنا. نركلها بأقدامنا ونواصل رفع الجرحى. السيارة امتلأت بالجرحى حتى إنّي وضعت أحدهم على رجليّ، وبالمناسبة البيك آب مفيدٌ للجرحى لأنه يوفر لهم هواءً متجددا وهو أفضل من سيارة الإسعاف المغلقة في هذه الحالة. بقينا نواصل أخذهم للمستشفى ونعود ثانية نصارع لإنقاذ أكبر عدد ممكن. (سألتها: كيف يتسنى لكم الذهاب والعودة والطرق مزدحمة) قالت: «حين يرى الناس الروب الأبيض يفسحون الطريق لأن هذه السيارة إسعاف».

الشهيد عبد الرضا بو حميد

اغتيل الدوار. القلوب مشتعلة بالغضب من جراء الفجيعة. ذهبت إلى المستشفى بعد ظهر الجمعة 18 فبراير/ شباط، كنت أتوقع حدثا ما. لم يحدث شيء، خرجت عصرا، وصلت إلى الإشارة الضوئية في السلمانية متجهةً للسهلة حيث بيتي وإذا بي أسمع إطلاق رصاص متتابع حتى اهتزت السيارة، وقعت في رعب، لأول مرة أسمع رصاصا في البحرين، سمعته في غزة، في لبنان لكن هذه أول مرة أسمعه هنا. قررت الرجوع للمستشفى، لم أستطع الدخول بسبب حشود الناس الغاضبة، غيرت طريقي إلى البيت، في هذه الأثناء اتصلت بطوارئ المستشفى، سألتهم: «هل تحتاجوني؟» .. أجابوا: «لدينا طاقم يكفي». دخلت البيت حزينة وأخذت أبكي، وأتفقد الأخبار على نار لأعرف أن

«أنا الآن لستُ رولى الصفار، أنا سُهى بشارة، سأخرج من هنا لا محالة كما خرجتْ سُهى بشارة»

الرصاص الذي سمعته أطلق على تظاهرة لمنعها من التوجه لفتح الدوار بعد «كسار» فاتحة الشهيد مشيمع، وفي تحدي التظاهرة للمدرعات كان لـ عبد الرضا بوحميد نصيبٌ من ذلك الرصاص .

الدوار ..عرس الحرية

19 فبراير/ شباط أمر ولي العهد بسحب جميع القوات العسكرية من شوارع البحرين بشكل فوري، فعاد تدفق الناس للاعتصام في الدوار. في ذلك اليوم جاءت للكوادر الطبية دعوة من منصة الدوار تدعوهم للحضور لتكريمهم على دورهم المتفاني في اليوم الدامي. اقترحت أن نخرج في الليل بعد أن تكتسي السماء بسوادها. لنخرج في موكب شموع، موكب صموت ومهيب يليق بالشهداء ومكانتهم في قلوبنا. كانت مسيرة الكادر مؤلفة من جميع المستويات والتخصصات، أطباء، مستشارين، جراحين، ممرضين، صيادلة، مسعفين، فنيي أشعة، كل واحد منا لبس زيّ العمل الخاص به وحمل شمعة مضيئة. خرجنا من مستشفى السلمانية الطبي إلى الدوار ونحن في مرورنا المهيب كنا نسمع الناس تحيينا بفرحة : «شرفتونا ورفعتوا راسنا»، والسيارات تفسح لنا الطريق، أحدهم نزل من سيارته وانحنى أمامنا باحترام باهر. وكلما مررنا على موقع سقوط شهيد، توقفنا، قرأنا الفاتحة وقبلنا الأرض التي سالت عليها دماؤه ثم وضعنا في المكان شموعا لتضيء ذكراه .

أعيدت الخيمة الطبية، وشرع الشباب في إنشاء منصة بديكور جديد وأعيدت الحياة والمضائف وخيام الجمعيات السياسية، مثل وعد، الوفاق، أمل، وكذلك جمعية الحقوقين، جمعية المعلمين وغيرهم. فكرت في فكرة « 5 دقائق لصحتك» أقنعنا إدارة منصة الدوار أن توفر لنا هذا الوقت المهم. كنت كلما دخلت الدوار، أول ما أفعله هو أن أدور في المكان وأتفقده، أسأل الزملاء في الخيمة عن الحالات التي أسعفت مثل حروق انسكاب شاي أو زيت حار، وأسجل الأخطاء وأكتب الملاحظات ثم أطلع على المنصة أنصح النساء ومدخني الشيشة أن يبتعدوا عن الزحمة، وأن تحاذر النساء من جمرات الشيشة على حرير عباءاتهن السريع في الاشتعال وهكذا، كنت أحب أن أمازح الجمهور فأقول: «الشيشة برة برة... الشيشة شنو؟» فيرددون : « برة برة ». كان الناس يلجأون للخيمة الطبية ونعالجهم من كل شيء كالرشح، وجع الظهر، التهاب حنجرة أو أذن، من نزلة انفلونزا، نسألهم : «لماذا لا تذهبون للمراكز الصحية؟» يجيبون : «ولماذا نذهب إلى هناك، هنا كل شيء أحسن وأحلى».

صارت الخيمة الطبية هي عيادة الدوار، وإن شئتم عيادة البحرين حتى خفّ الضغط على المراكز الصحية. اقترحت عليهم عمل ممرات بين الحشود لتسهيل الحركة. فوضعت قضبانًا حديدية، لكن طلبت تغييرها إلى حبال ممدودة لأنها أسلم. أمورٌ أخرى طلبتها من الشباب وهي أن يرقموا النخيل للاستدلال على الأطفال المفقودين، ثم تحددت خيمة خاصة للأشياء المفقودة، وشيئا فشيئا انتظم الدوار بوضع الكراسي للناس التي لا تسطيع الجلوس أرضا. بعد انتشار المضائف بكل أنواع السندويشات، غير الرز والهريس والأكلات الشعبية، صار حماس البحرينيين يتواصل في ذلك بعمل التنظيم والتنظيف. عملنا حملات توعوية للنظافة، والناس تستجيب هناك بسرعة لأنها تريد أن تعمل أي شيء في خدمة الثورة، يفعلونها بكل ممنونية «على حب الثورة ».

صارت الناس التي ترتاد الدوار تستزيد من حلقات النقاش السياسية الليلية. أو تمر على الخيام التي أصبحت مرجعا لهم عن أي سؤال، طبي، حقوقي، تعليمي وغيره. رأيت أجانب كثرًا في الدوار من أمريكان وإنجليز وهنود وفلبينيين، وكان الشباب يضاعفون من اهتمامهم بهم، لأنهم فيما بعد سيكونون شهود عيان على حضارية الاعتصام وسلميته. وفعلا كانوا كذلك فلم نشهد هناك لا عراكا، لا سرقات، لا سلوكيات غير لائقة. وأخذ الدوار ينتظم أكثر والخيام تتمدد في محيطه إلى أبعد ما يمكن .

الأيام الجميلة لا تنسى رغم الجراحات المثخنة التي مررت بها والتي ما زالت قائمة حتى هذه الساعة. ذكريات السلسلة البشرية من الدوار للفاتح كانت ابتكارًا نوعيًا فاق التصور، إبداعات

البحرينيين مدهشة للعالم. المسيرات السلمية المرفرفة بالأعلام التي جابت شوارع البحرين، بالشعارات الداعمة لمطالب الإصلاح وتغيير الحكومة وغيرها.

في ظروف النكبة الأمنية

غير أن دور الكادر الطبي لم يقتصر على الدوار فقط، تطوعت في أماكن أخرى، فكوني رئيسة جمعية التمريض البحرينية كنت مع جميع المرضين والممرضات المتطوعين المكونين من حوالى 70 شخصًا. فكرت يوماً أن نعمل سلسلة بشرية عند بوابة الطوارئ لتمنع الناس وقت قدوم سيارة الإسعاف، لأن الإسعاف يثير فضولهم بالتدفق إليه فيعوقون حركة المسعفين ونقل الجرحى بحيث لا تفتح السلسلة إلا حين يُقدّم الإسعاف. كانت مسؤوليتي أيضاً تحديد الحاجة حسب الاختصاص وحالة الجريح.

وقفت ذات مرة على منصة الطوارئ أعلنت في الميكرفون: «جاءنا خبر أن هناك بلطجية سيهجمون على المستشفى. قد يكون إشاعة لكن لا بدّ من أخذ الحيطة والحذر». فنبهنا الناس داخل المستشفى أنْ استعدوا قد يحصل ذلك. وعليه أعددنا خطة تقوم على عمل تمرين تجريبي، وهي حين يهجم البلطجية تدخل جميع النساء والأطفال ويتمركزون بهدوء في الممرات، لا يدخلون الأجنحة كي لا يزعجوا المرضى، فبإمكانكم التواجد في ممرات الطابق الثاني، والطابق الثالث. تم التمرين بنجاح.

في نفس الليلة حوالى الساعة العاشرة مساءً، سمعت صراخا ورأيت بأم عينيّ بلطجيا يركض قادما من جهة جامعة الخليج العربي حاملا لوحا خشبيا مغروزًا بالمسامير. كنت أقف قريبا من مدخل الطوارئ. تصدت له مجموعة من الشباب، آخرون لحقوا بهم وهم يصرخون : «يسقط حمد»، منعناهم من اللحاق بهم، ورجوتهم: «لا ترددوا شعارات سياسية مهيجة، هذا ليس وقتها، نريد الهدوء لمعالجة الناس.. رجاء صلوا على النبي».. فرددوا ورائي :» اللهم صلي وسلم على محمد وآل محمد». هذه الصلوات تهدئ المشاعر الجياشة.

ذات مرة قبل الحادثة أعلاه بفترة، وقف إبراهيم الدمستاني على المنصة قائلا: «رجاء لا تنادوا بالموت لآل خليفة، فمن بينهم ناس شرفاء، لا تطلقوا شعارات سياسية». ولما أعطيت الميكرفون أكدتُ: «لقد سمح لنا ولي العهد بالاعتصام في الدوار وليس هنا». لم أكن أشجع على الاحتجاج في ساحة مواقف الطوارئ. أنبههم من أجل فسح الممرات والطرق للمرضى.

خيمة الطوارئ

قبل ضربة الدوار الثانية بثلاثة أيام صدر أمر من إدارة وزارة الصحة، أن تنصب خيمة طبية في ساحة الطوارئ، خيمة كبيرة تسع حوالي 20 سريرا طبيا، استغرقنا في تجهيزها أربع ساعات. تبرعنا بوقتنا الكامل، براحتنا. يأتي الليل فيصعب على النساء من الكوادر الطبية أن تغادرن إلى بيوتهن، كنا نحن المتطوعين نجلس خارج المستشفى من أجل عدم إرباك الكوادر الطبية في الداخل، وكأننا حراسٌ على أعتاب أبوابه، ونحن نرتعد من برد الليل، لكن حب الوطن والواجب يرشح لنا دفئا يعيننا على هذه المهام الصعبة. أصبح المستشفى هو المبيت والملاذ من شرور قوات الأمن المتربصة بكل حركة في الشارع، الطرق غير آمنة. يتصل بي زوجي ليؤكد: «لا تستطيعين دخول السهلة، ابقي هناك أسلم لك». ثم فيما بعد، تدخل قوات درع الجزيرة ليتحول المكان الأسلم إلى ثكنة عسكرية .

وتحت ظروف النكبة الأمنية لم نستطع حضور جنازة الشهيد علي الدمستاني في 14 مارس/آذار الذي دهسته سيارة على كوبري الدوار، هذا بالإضافة إلى سبب أهم وهو نداء الواجب الإنساني والمهني، واستعدادنا وجهوزيتنا للحظات الأصعب. كان الجميع متعاونين ومتفانين يلبون الأوامر فيما بينهم بدون أية حساسيات. ننتبه لكل صغيرة وكبيرة، لا يغيب عن بالنا المسعفون القادمون وإسعافهم بالأكل والماء إذا كانوا جوعى، ونفعل الشيء نفسه داخل الطوارئ، والمتيسر من قليل الطعام هو للمرضى أولا، ونحن نأكل ما فضل منه، هذا إذا بقي شيء. لقد أعطيناهم عيوننا وكل طاقتنا التي نملك .

مجزرة سترة

بدأ الإرهاق والتعب يأخذ مأخذه من طاقتنا وأجسادنا، كنا ننام في النهار قليلا حين تهدأ الأمور. في الصباح أذهب إلى البيت للاستحمام وتبديل ملابسي وأعود سريعا للمستشفى. في ليلة سترة بدأت تشحّ الإمدادات الغذائية للظرف الأمني الصعب حتى صارت السندويشة تقسم إلى أربع قطع، كل شخص له الربع، لقمة تسد الرمق ولولا مضيف ساحة الطوارئ لما كنا نحصل عليها بالمرة .

في وقت العصر حدث القتل العشوائيّ، كشرت السلطة عن أنيابها ونقمتها على الناس، فتعرضت طواقم الإسعاف للاستهداف السافر حيث تعرضوا للضرب والقمع دون وجه حق. الصيدلاني أحمد المشتت القابع في السجن الآن ذهب بسيارته الخاصة في ذلك اليوم ليُمِدَّ مركز سترة الصحي بالاحتياجات من الأدوية من مركز السلمانية الطبي. أما السيد محمد عبد الرحيم رئيس الإسعاف

سابقا في مستشفى السلمانية مع د. أمين الساعاتي منعا من دخول سترة وضربا وأهينا. أذكر أنّا حملنا عبد الرحيم برفق خشية أن تتضاعف مشكلته في انزلاق غضروف الظهر (slipped disc) ، وللأسف شهد هذا الأخير ضد الكوادر الطبية فيما بعد .

وصل أحد الإسعافات ونزل منه د. إبراهيم العرادي ود. حنين البوسطة التي هرعت إلى حضني تبكي، قالت : «واحد ضربني كف وذلني». هذا يوم أليم لا يُنسى. قال أهالي سترة أنهم رأوا سيارة «فان » (Van) بيضاء عليها رسم هلال أحمر، وسائقا يلبس الروب الأبيض، كانت تتخفى بهوية سيارة الإسعاف لتطلق الشوزن على الناس. فيما بعد أطلقنا تعميما في (فيسبوك)، و(واتس آب) إلى الناس ألا يدخلوا إسعافا إلا وهم متأكدون أنه إسعاف المستشفى وعليه اسم وزارة الصحة .

جاءتني فتاة عادية لا أعرفها، بهرتني بشجاعتها وشهامتها، لقد أعطتني مفاتيح سيارتها (البرانيو) الجديدة وقالت لي: «هذه سيارتي في خدمتكم اعملوا بها ما تشاؤون»، فأزحنا من داخلها المقاعد كي يسهل تمديد الجرحى فيها وانطلقت إلى سترة. أيضا هناك نساء من الكادر الطبي، من سكنة سترة ومن يعرفن قراها وأزقتها، انطلقن بسياراتهن يرشدن المسعفين إلى الجرحى، قمن بعمل بطولي. في هذا اليوم تواصل جلب الجرحى حتى الساعة 11 مساءً حتى بلغ عددهم 785 حالة، من حالات اختناق وجرحى وغيره .

إلا الشهيد أحمد فرحان

حين قدِموا بالشهيد أحمد فرحان، رأيت رأسا ملفوفا بملاءة بيضاء، نعم لم يكن شاشا. تأملت وجهه المريح والوسيم، تأملت عينيه نصف المفتوحتين. كأنه ينظر إلينا، كأنه يكلمنا، علينا الانتباه لما تقوله هاتان العينان الشهلاوان، وضعت يديَ على رقبته كي أجس النبض وإذا بأحدهم يمسك يدي وهو يوشوشني: «هذا شهيد». ما أنسى مسكة اليد التي أوقفتني (تلمع عيون رولى ويختنق صوتها) كانت الناس تضج بالبكاء والعويل والتكبير لأنهم رأوه قبلي، آخرون سقطوا مغمى عليهم، الناس تسألني في الممر: «عايش لو ميت؟» أرد :«إن شاء الله عايش». ماذا في وسعي أن أقول وأنا أتوخى منهم التهدئة.

الجرحى يتدفقون بالمئات. الناس متعبة ونحن غير قادرين على السيطرة على انفعالاتهم وهيجانهم، لأننا أيضا غير قادرين على تحمل هذه المناظر والمآسي. فنحن الكادر الطبي كم رأينا في عملنا جرحى، كم رأينا دماء تنزف من الإذن، الأنف، الرأس أو من أي مكان لكن أن نرى رأسا مفتوحا خاليا تماما من أحشائه، من المخ، هذا لم نعلمهم إياه لأنه لم يخطر في البال ولا في الخيال.

أُدخل فرحان غرفة الإنعاش وأنا كنت خارجها، هنا أتاني أحدهم وأدار لي فيلم الفيديو للشهيد لأرى رأسا مفتوحا تتدلى قطع رأسه يمنة ويسرة كأنها مصاريع نافذة تتقاذفها الريح. في هذا المشهد لا أذكر من جاءني وقال : «لازم نجيب المخ من محطة البترول، المكان الذي صُرع فيه الشهيد»، فيما أستلم مكالمة هاتفية من سترة: «انجان تجون تاخذون المخ ما نقدر نطرش أحد؟» .. أحدهم تبرع : «أنا بروح أستاذة» لكني رفضت بشدة : «لا نريد شهيدا جديدا .. يكفي». ألح بالذهاب قلت له إذن أخبرني حالما تعود لأتاكد بنفسي من سلامتك .. كنت أتبع طريقة معينة فحين أرسل أيّ أحد من المسعفين أدوّن اسمه، ورقم هاتفه، ومنطقة سكنه، وأطلب منهم أن يأتوني شخصيا لأتأكد من وصولهم بسلام. وفعلا وصل هذا الشاب الشجاع المتبرع بجلب لفائف المخ المهترئة ليقول لي: «الأمانة وصلت». آاااه .. لجمت ألمي وفزعي وقلت له « خذه للمشرحة ».

إن أسوأ حالة مرت علينا هي حالة الشهيد أحمد فرحان، ترتعد فرائصي كلما تذكرت الرأس المفضوخ، وتلك النظرة المليئة بالأسف والعصيّة على النسيان، أتأملها في خيالي حين التقت عيوني بنظرته الحسرى، كأنه يكلمنا ويقول: «انظروا ماذا فعل الظلم بي». وتارة كأنه يعتذر: «سامحوني لم أستطع أن أفعل شيئا لكم، لقد هزموني وقتلوني غدرا».

بس أحمد فرحان غير، حين خرجت من السجن كانت زيارة بيت الشهيد فرحان هي إحدى أولوياتي. ذهبت إلى أهله وحين عانقت والدته بكيت كثيرا، ولما سلمت على والده بكيت، وحين التقيت عبد المنعم منصور البطل الذي حمل البطل اعتصرني الألم وعلا نحيبي، يعزّ علي ألا أعزيهم في وقت العزاء لكنا كنا تحت وطأة الوحشية التي منعتنا من واجبات كثيرة، وأحمد فرحان سيبقى في قلبي، مثل ولدي .

إذا حَضَرَتْ مَلَكَتْ..

من يعرف رولى الصفار قبل 14 فبراير/شباط، سيعرف أنّها ذات شخصية قوية، لا تُهادن، لا تُجامل، صارمة، لا تخشى عواقب أفعالها مهما بلغت خطورتها، وفي ذات الوقت فإنّ حِضنها حنانٌ مُتدفّق يحتضن كلَّ دمعة. يقول عنها أصدقاؤها حين تكونُ في محنة وتراها أمامّك تلقائيًا تندفع إلى حِضنها باكيًا، تتكسّرُ الدموع على صدرِها، ويَسكُن رَوعُ القلب بهَدْهَدَتها[a]. ولأنّها رئيسة لجنة دعم مرضى السرطان، فقد حرصتْ على دعم جميع النساء اللاتي تمكّنتْ من الوصول إليهن ممّن تعرّضنَ للإصابة بالسرطان، لهذا سُمّيتْ رفيدة البحرين، أو تريزا البحرين.

اجتماعيًا، عُرف عن رولى أنّها «إذا حضرتْ المكان ملكتْهُ بحضورها، صاخبةُ بمُشاكساتِها، بضحكاتِها المُجَلجِلة، (بقفشاتها) مع الصغير والكبير، امرأةٌ ممتلئةٌ حيويةً ومرح، ما لم تستدعِها الشدة والكرب».

مع أحداث 14 فبراير، وبداية القمع الذي أسفر عن سقوط قتلى وجرحى ومصابين، ركضت رولى ببياض قلبها الذي أدماه الألم على أبناء بلدها، وببياض ثوبها الذي انفتح كجناحي طير، راحت تضمُّ الجرحى والغارقين في دمائهم.هرعت فزعةً مع الثوار يحملونهم إلى سياراتٍ خاصة، كان ذلك في الخميس الدامي 17 فبراير/ شباط.

وفي 15 مارس/ آذار يوم مذبحة سترة، رابطت رولى في المُستشفى تُمارس واجبها المهني والإنساني. ولأنّها ذات مكانة مُقدّرة بين طلّابها وزُملائها، فقد كانت كلمتُها مسموعة، طَلَبَتُها ينتظرون منها الإشارة، تدفع سيارات الإسعاف، تمنع شبابًا مُندفعًا خشية سلامته. وفي كلِّ الأحوال يأتيها الجواب : حاضر أستاذة.

مرآة البحرين التقتْ رولى، أخذتْ منها تفاصيل تجربتها داخل المعتقل، الذي دخلته ثَمَن مُعالجتها للجرحى والمصابين من المحتجين. في الحلقة الأولى تحدثنا عن رولا في دوار اللؤلؤة، وابتداء من هذه الحلقة سنروي على لسان رولى تجربتها في السجن.

هُنا التحقيقات..

اجتمعتُ مع عائلتي يوم الجمعة، آخر جمعة تسبق اعتقالي، هيّأت زوجي وأخي لذلك، أوصيت: لا تخشوا عليّ. أعطيتهم رقم هاتف محاميَّ الخاص، كذلك أرقام زملائي كي يستطيعوا مُساعدتي، وهُنا بكتْ ابنة أخي وهي تقول : «لا تقولي ذلك، قد لا تُعتقلين!».

تُكمل رولى: كنتُ جالسةً على عتبة مدخل بيتي أشرب الشاي، للتو غادرتني كلُّ من الدكتورة نهاد الشيراوي والدكتورة جليلة العالي. كُنّا متهيئات للحظات الصعبة القادمة لا محالة. بعثتُ برسالة نصّية للصديق إبراهيم الدمستاني أسأله : شحوال أولادك؟ جاءني الرد: الحمد لله. شككتُ في رده الذي لم يأتِ بالشكل الذي أتوقع. ثم عاد مُتصلًا بي، أجبتْ: أهلًا إبراهيم. يباغتني ردٌّ صاعق : «هُنا التحقيقات .. نريد أن ندردش معك».

عرفتُ أنَّ الدمستاني قد اعتُقِل، وأنّهم كلموني من خلال هاتفه. كانت السابعة والنصف مساءً،

فاعتذرتُ لهم عن الحضور. قُلت: سآتي إليكم غدًا، لا تتوفّر لديَّ سيارةٌ الآن. ردّوا بلهجة آمرة: اركبي تاكسي وتعالي. اعتذرتُ ثانيةً: صار الوقت ليلًا وزوجي نائم، غدًا أفضل. زاد تعنّتهم: « اتجين وإلا نجرجرك من بيتك؟»

ارتديت بدلةً رسميةً أنيقة واتصلتُ بالمُحامي أُخبره عن اتصالهم وعن لباسي، قال لي : أنتِ مطلوبةٌ للاعتقال وليس للدردشة، غيّري لباسك إلى لباسٍ بسيط ومُريح، ففعلت. اتصلتُ بأخي وأعزِّ صديقاتي لأخبرهما بذلك. أخذني زوجي إلى هُناك. في الطريق بين العشر الدقائق والربع الساعة كانوا يتّصلون ليسألوا: أين وصلتِ؟

عندما وصلت منعوا زوجي من الدخول وقالوا له: تعال بعد ساعتين ونصف لتأخذها. خلعتُ الساعة والدبلة وأعطيتُها زوجي. قالت الشرطية : «ما في داعي» هُنا اطمأنيت، لكن ما إن دخلتُ بين مخالبهم حتى صمدوا عينيّ، وكبّلوا يديّ خلف ظهري. وضربني رجلٌ هو ذات الرجل الذي فتح لنا البوابة، من حركةٍ معيّنة عرفتُه.

لستُ رولى الصفار

وقفتُ معصوبة العينين، مُقيّدة اليدين خلف ظهري، أُجرّبُ أولى وجباتِ التعذيب، اعتبرتُ نفسي في مغامرة وعليّ خوضُها مُجبرةً أو مُكرهة، لكنّي سأقهرها بالانتصار. قطعتُ على نفسي هذا الرهان. أنا الآن لستُ رولى الصفار، أنا سهى بشارة، سأخرجُ من هنا لا محالة كما خرجتْ سهى بشارة، بدأتُ درسي الأول مع نفسي، أتلو في سرّي على نفسي وهي تُصيخ السمع وتُنفّذ الأمر، أتلو عليها دعاء الفرج. أُغالب الألم برحمة الدعاء، إنّه محفوظٌ في قلبي وسريرتي، أوزّع بركاته على جميع جسدي الرازح تحت سياطهم، فأَخرجُ من الجسد وأتركه لهم يركلونه ويصفعونه، لكنَّ روحي هي مُلكٌ لي، تبقى حرّةً مُتحرّرة من دناءاتهم وبذاءاتهم التي لم أعرفها قبلًا ، ولن أسمح لها أن تتمكّن منّي أو تهزمني.

ابتكرتُ هذه الطريقة. أُعيد التلاوة بإصرار التمرّد والتحدي، فأَخرج من أنياب قبضاتهم وقُضبانهم، بذلك أُنعش الأمل وأُحييه قبل أن يتعثّر أو يتقهقر، أجعله شعلةً تُبدّد الخوف والظلام. في هذه المحنة أكتشف نفسي بما وهبني الله تعالى من قدرةٍ عظيمة على مُقاومة شتّى صنوف الإذلال والخوف، فالحمد لله الذي ساعدني على قدرة الانفصال عن الجسد، عن الألم بأقصى ما استطعتُ في وجه أعتى الجلادين حقدًا وقسوة.

لن أبكي

فترة التعذيب، تبدأ من الثالثة عصرًا إلى الثالثة والنصف فجرًا. في اليوم الثالث شدّوا شعري وقصّوه بطريقة عنيفة ومُهينة، أكاد أتذكّر من ورائي صوت قضمة المقص لخُصلة الشعر. ومن ورائي أيضًا أتذكّر كيف علّقوا على ظهري ورقةً مكتوبًا عليها ما معناه : اضربها، اصفعها، لك أن تفعل بها ما يحلو لك.

تُكمل رولى: هُناك في قسم التحقيقات يطولُ العذاب كلَّما طال العناد، والعنادُ من طبعي ولا سيما مع هؤلاء المُجرمين. امتدّت الأيام أسبوعًا بُغيةَ كسري والتلذّذِ بإذلالي، ولكن هيهات أن ينالوا من روحي وكرامتي. احترفتُ الصبر بمعونة الله، واستلهمتُ من سهى بشارة صمودها.

في أول ليلة وقفتُ معصوبة العينين، واليدان مُكبّلتان خلفي، وبرد المكيّف على أخفض درجاته يُثلج أطرافي، ويستبدُّ بمفاصلي، كان ذلك في يوم من أيّام الربيع في البحرين، حيثُ الطقس باردٌ نسبيًّا في هذا الوقت، والتاريخ يُسجّل : الإثنين 4 أبريل/ نيسان 2011 أؤمر أن أقف دون حركة، صامتةً دون تنهيدة حتى، يمنعونني من الاستناد إلى جدار يُريحني، يوقفونني بعيدةً عنه، يضمون رجليّ لمزيدٍ من التعب والإرهاق فأسقط مُغشىً عليّ.

الجسد لهم، يعيى، يسقط، لكن الروح الوثّابة تُنهضه ثانيةً، واقفًا، شامخًا. يأتي نهارٌ ثانٍ فأُعيد على نفسي درس الجَلَد، وأستعين بالدعاء نفسه. بالمناسبة دعاء الفرج كنّا نتلوه في تجمّعات الاحتجاج بساحة قسم الطوارئ بالسلمانية، هذا الدعاء يُلامس شغاف قلبي وينقلني إلى مكانٍ رحيم وآمن، ويعني لي الكثير من فرط الارتياح الذي أشعر به، كنّا أيضًا نتلوه في غُرَف الإنعاش في ذروة المِحنة، فبه تسكنُ خواطر الناس وجروحهم.

لماذا يُفتّشون دمي؟

خلال الأسبوع الأول وأنا مُكبّلة بأصفادٍ موجعة، كانوا يأخذون عيّنةً من دمي ويتمُّ ذلك في مُنتصف الليل، عادةً أُفاجأ بدون استئذان أو تهيئة بسحب يدي فيغرسون إبرة مصِّ الدم دون تعقيم، وإن صدرت مني آهه ألحقوني بشتيمةٍ بذيئة، قاموسهم اللغوي جاهزٌ لإطلاق كلِّ مُفردات الفحشاء الفاقعة. يقبض أحدهم على فكي بهمجية، يفتح فمي ويأخذ عيّنةً من اللعاب، كان ذلك يتمُّ كلَّ يومين. ذاتَ مرّة أُخذتُ للقلعة لأخذ هذه التحاليل، حتى دمي يُخضعونه للتفتيش، لكن لماذا؟ هذا الأمر يُرعبني لأنني لا أعرف لماذا يفعلون ذلك؟ هل هو لفبركة مسرحيات أخرى تدينني، خصوصًا وأنّ مرفقي أصبح مُزرقًّا من تكرار ذلك؟

سبعة أيام بلا نوم..

سبعة أيام من اللا نوم والتعذيب المُستمر ليل نهار، معصوبات العيون، جليلة العالي ونهاد الشيراوي وأنا، سارتْ بنا السيارة ما يُقارب الساعة والنصف، أوهمننا أنّهن سيأخذننا للسعودية، قلتُ في سري: أكيد إلى الدمام. ولكن بعد أن نزلنا من السيارة سمعتُ كلامًا هامسًا يدور بين الشرطيات، قالت إحداهن وهي مُمرّضة عرفتها من صوتها لأنّني درّستُها: «هذي أستاذة رولى الصفار، آي عليها، حسافة عليها.» حتّى تلميذتي تتهمنني بالجرم. المهم عرفتُ أننا لم نُغادر البحرين.

قالت الشرطية : «بنوديج شقق سكن، وكل وحدة لها غرفة بحمام خاص» فاعتقدتُ أن قسم التحقيقات هو سكن بنات. وإذا بي أتفاجأ من الأعداد الهائلة من النساء في ذلك التوقيف، نساء المخدرات والدعارة. سألت : كيف هي القوانين هنا؟ ردّت الشرطية: «بعدين بتعرفين» كنتُ مبهورة ومُرهقة ومُستاءة ومشدوهة من هذا الفوج النسائي الغريب عنّي وعن عالمي، أتلفّتُ حولي وأتساءل أين أنا؟ فيُقاطعني سؤال الشرطية؟: من الصديقة الأكثر قُربًا منك؟ قلت : لا فرق كلّهن قريبات، كلّهن صديقات. ففرّقونا كل واحدة في زنزانة مع إحدى تلك النسوة. بالزنزانة سريرٌ ذو طابقين وكان نصيبي أن أتقاسم المكان مع مُدمنة مُخدّرات. طلبتُ منها أن أنام في الأعلى، وفي الأعلى سريرٌ خالٍ من الوسادة والملاءات، أو حتى لحافٍ يدفئني من برد المكيف القارس الذي بات وكأنّه يعاونهم في البطش بنا.

اعتليتُ السرير بثيابي الوسخة، لا أملك إلا فوطتي، رغم ذلك سعدتُ أنني سأُمدّد جسدي وأُريحه بعد أسبوع كامل من الوقوف في العذاب والآلام، أخيرًا سأنام. التحفتُ فوطتي لكنّها لم تُغنّي على البرد. ظلّ جسدي يرجف ويرتعد فيرتعد معه السرير. استيقظتْ شريكتي في الأسفل وتبرّعتْ لي بلحافها، ورغم أنّني من النوع الذي يوسوس كثيرًا في أمور النظافة، وأتخوّف من استخدام أغراض الآخرين، إلا أنّني قَبلتُ عرضها، غطّتني بحنان وحين سألتُها وأنتِ؟ قالتْ : سأتصرف. هذه المرأة لن أنسى لها هذه الرحمة ما حييت.

استيقظتُ برعب وانزعاج شديدين من صراخ أفزعني، بعد دهشة قصيرة ميّزتُ الصوت أنّه الأذان، كان يَصدر من مُكبّرات الصوت على أعلى درجة مُمكنة. إنه الفجر إذًا، طلبتُ أن أُصلّي، طلبتُ الحمّام، رافقَتني إحدى الشرطيات للحمّام كي تستعجلني بإزعاج مُتواصل، هُناك لا نذهب للحمّام على راحتنا، ولقضاء الحاجة، أيّ حاجة، كُنّا نُعطى دقيقةً واحدةً فقط، للاستحمام ثلاث دقائق فقط. تقف الشرطية وراءَ الباب تستعجلنا بالطرق المُتواصل. بعدَ أداء الصلاة تُذاع أغانٍ

وطنية بنفس درجة الصوت العالي بشكلٍ مُتواصل ومُزعِج حتّى السابعة صباحًا. استمرَّ هذا الوضع إلى شهر يونيو/حُزيران حيث أخذوا بشكوانا.

في مكتب الشيخة نورة الخليفة

أدخلوني مكتبها وأنا معصوبة العينين، مُقيّدة اليدين وراء ظهري. الشيخة نورة الخليفة أمرَتْ أحدهم: «شيلوا العصابة؟». ما زلتُ واقفة، قالت الشيخة: أعطوها ماء. شربتُ الماء، اعتدلتْ في جلستها، نظرتْ إليَّ وقالتْ: أنت تكرهين النظام، قلتِ «يسقط حمد»، وعندكِ أسلحة، وأنتِ طبيبة. أهلًا وسهلًا بكِ في مكتبي. لعلمكِ أنت تحت المجهر مُنذ عام 2005 -تقصد أيام إثارة موضوع المُطالبة بتطوير هيكل الكادر التمريضي- وأنا في انتظار أن تأتي إلى مكتبي مُنذُ ذلك الوقت. هُنا أدركتُ أنَّهم يدّخرون لي هذا اليوم. ظلَّ الشرطي يكتب الاتهامات الموجّهة لي، وأنا أنفيها وأردُّ بنبرةٍ رافِضة: لا .. لا، قالتْ: «ما يفيد وياها الكلام». جاء أمرٌ تلقائي، أتى لي ثلاثة رجال، واحدٌ منهم أعرفه لو أراه ثانية أُميّزه، انهالوا عليّ بالصفعات كيفما اتفق في كلِّ مكان، ثم أرجعوني إلى الزنزانة، وصعقوني بالكهرباء.

كانتْ الشيخة نورة تأتينا الساعة 3:30 فجرا لتضربنا من جهة، كما تُحاول أن تضرب بعضنا ببعض من جهةٍ أخرى، أنا مع النزيلات الأخريات، كأنْ تقول: فُلانة قالت عنكِ كَذا وأنّك فعلًا كذلك، وتُواصل: «بس أنا ما يهمني إذا هم قالوا أنك كذا»، أي أنها تفتعل تُهمًا وتنسبها لأخريات، وهي تواصل الضرب.

امرأةٌ لم تتكلّم

في إحدى الليالي جاءتْ امرأةٌ تتفقّد النساء المُعتقلات، لم تنبِس بأيِّ كلمة، لم نرها نحن الثلاث حيثُ كُنّا معصوبات العيون، عرفتُ أنها امرأة مُنذُ دُخولِها علينا، من خطوات كعبها، من حفيف ملابسها، وخَشْخَشَة أساورها، ومن عطرِها الذي ضجَّ به المكان. كانتْ تتكلَّم باحترام شديد، وكلُّ كلمة توجَّه لها تسبِقها كلمة «سيّدي». قالتْ لها الشيخة نورة: سيّدي، هذي رولى الصَفّار، وهذي نهاد الشيراوي، وهذي ندى ضيف. وانتهتْ الجلسة. خرجتْ بصمتِها مثلما دخلتْ. من هي تلك المرأة؟ لا أعلم، لكنّ إحساسي يقول أنّها شيخة لها منزلة كبيرة بينهم.

نورة الخليفة مرّةً أخرى

لا نعلم من أين ستأتينا الضربات والصفعات، أذكر أنّ أول كف «صفعة» جاءني أُغمي علي، ولمّا أفقت أُطبِقتْ على أُذُنيَّ بقوّة يدان في باطنهما جهازَي صعقٍ بالكهرباء. هذا الصعق الغادر يُفاجئنا

من ورائنا، طبعًا كلُّ شيَم الغدر تأتي من الخلف، فيُحدثُ رنّةً قويةً في الأُذُن، وتدخل في رأسي ذبذبات تيّار الكهرباء كأزيز الطائرة، بشكل قاس ومؤلم حدَّ الموت، فأسقط في غيبوبة قصيرة. حين أُفيق أشعر بالتيه، لا أذكر أين أنا، ولا لماذا أنا هُنا، ولا ماذا قلت، لا شيء. هو نوعٌ يُسمّى في دراسة علم الطوارئ (Concussion)، وبالعربية «ارتجاج»، وفي هذه الحالة يهتزُّ الرأس، وتليها هزّة عظمة الجُمْجُمَة، ويتبع ذلك هزاتٌ في لفائف المخ، فتؤثّر سلبًا على وظيفة المخ بالنسيان والتيه الذي ذكرتُ. وبالكاد أُفيق من الصعق الكهربائي ومما أنا فيه، لأسمع الشتائم البذيئة. بعد هذا الحال تأخذني الشيخة نورة بنفسها إلى مكتبٍ عُلوي، كانت تدفعني دفعًا على الدرج وهي تُعنِّفني قائلة: «الله يعلج إن شا الله مثل ما عليتِ قلبي»، ثم أسمع في حضورها صوت رجل قبيح اللسان والخُلُق يُهدِّدني بالاغتصاب، أسمع لأوّل مرّة مُفرداتٍ سُوقيّة، ومن أين لي معرفتُها وهي قذرةٌ ووقحةٌ حد التقزّز؟

يَسقط عليّ الضرب بالأيدي، بأيدٍ كبيرة وثقيلة تَنزل كالجُثّة على جسدي. ولمزيدٍ من التحقير والألم، أُضرب بالأحذية. كلُّ هذا ليس كافيًا، هذا العناد يُراد له بصقٌ أيضًا، لا يُفيد البصق، لم تنهزم أو تتوسّل، يأتي التحرّش الجنسي، (عُذرًا أخجل أنْ أصوّر المشهد)، ومن ثمَّ التهديد بالاغتصاب، يبدر من رجلٍ تقول حواس السمع والشم والإدراك عندي أنه رجلٌ ضخم البُنية، مُخيف، تصدر عنه روائح الكحول مُختلطة برائحة السجائر. مفعول الخمر ما زال يعتملُ فيه، يتبيّن ذلك من ثقل لسانه الذي يتفنّن في قذف كلام سافل، داعر، فاحش لأقصى الحدود. يأتون بهم واحدًا تلو الآخر يتنافسون في أدوار قبيحة، مع ذلك شعرتُ أنّه مُجرّد تهديد ولم يُخِفني.

في مكتب الضابط بن حويل

في إحدى الجلسات التي كانت في النيابة العامة، في مكتب الضابط مبارك بن حويل، تفاجأتُ به يضربني. قلتُ له: ألم تعِدني بأنّك لن تفعل، لن تضربني، فردَّ غاضبًا: «بضربج وبقتلج بعد إذا ما تتعاونين معانا»

وفي جلسة أخرى سمعتُ وشوشةً بين رجلين دون علمهما بمدى سمعي، فعادةً تقوى حاسة السمع حين يُعطَّل البصر بعصابة العين، قال أحدهما للآخر: «عطني إياها بس ليلة وحدة» ردَّ عليه: «لا هذي مرَة عودة خلها .. جايين بنات صغار» هُنا عرفتُ أنهم سيأتون بطالبات المدارس والجامعات. وللعلم، الضابط بن حويل عذّب وحقّق وكان شاهدًا على كلِّ انتهاكٍ جرى هُناك.

هدية

ذات يوم غمرتني غِبطةٌ لذيذة، كان قلبي المُتعب يغشاهُ بلسم، رغم أنّني في غرفة التعذيب، حيثُ قادوني إلى غرفةٍ كي يُسمعوني استجوابًا لطبيبين، كان هذان الطبيبان هما الدكتور محمود أصغر والدكتور علي العكري. موضوع الاستجواب هو أنا. يهدِفون لانتزاع اعتراف يقول أنّني القائدة المُتسبّبة في الفوضى العارمة في المُستشفى، والمُشاركة في احتلاله. سمعتُ أحدهما يقول: «هي قيادية بالدرجة الأولى، هي تقول والناس تسمع، هي تأمر والناس تُنفّذ، لها كاريزما خاصّة بها، حين تحضر تملك المكان والمكانة».

احتضنتني السعادة، ليس بسبب الإطراء، لكن لأنّي علمتُ في تلك اللحظة أنّهما على قيد الحياة، لم يموتا، حيث اعتُقلا قبلي في 17 مارس/آذار، وكُنّا في غياهب السجن نجهل ما يحدث حولنا، وما يُمكن أن يحصل لزملائنا، الموت هو الحاضر الوحيد والمُحاصِر في ذلك الوكر الوحشي. كنتُ خائفةً عليهم، خصوصًا أنّي سمعت في الأسبوع الأوّل بقسم التحقيقات الجنائية صُراخ إبراهيم الدمستاني، وعلي العكري، وعبد الخالق العريبي، سمعتهم يتعفّرون ألمًا تحت سياطهم الهائجة بلا هوادة. كما علمتُ بعد السجن أنّهم سمعوا صُراخي أيضًا. أيُّ قلبٍ يحتمّل ظلمًا بهذه القساوة بدلًا عن التكريم؟ آه، هل أنسى مرارة الدكتور العكري وهو ذاهبٌ للوضوء يُردد: أنت العالم يا الله، أنت الأدرى.

درس سهى بشارة

اعتدتُ التعذيب رغم أنّه سبّب لي عَرَجًا في قدمي اليُمنى وقتها، لكن صارت لي طريقتي في التعامل مع أي وضع ويُسمى(copying mechanism) أو آلية التأقلم أو التكيّف لأتماشى مع أيِّ حالة، واعتبرتُ نفسي في مغامرةٍ خطيرة، ومُضطّرةً أن أعيش الدور مدفوعةً بالتحدي والخلاص من هذا الهلاك، تمامًا كالمُغامَرات التي نُشاهدها في الأفلام، وكيف ينجح الأبطال في الانتصار فيها. حين ينتهي وقتُ التعذيب، أستعيدُ درس سُهى بشارة. أُمرِّن ذاكرتي خَشية النسيان. أُردّد على نفسي: أنا رولى الصفار، تُهمتي كَذَا، قلتُ في التحقيق كَذَا وكَذَا، جئتُ هُنا مُنذُ خمسة أيام. أُركّز، أُعيدُ تذكُّر كلَّ ما جرى، وما قيل، وما قُلتُ، وأُردّده كالدرس المطلوب حفظه حتى أتأكّد أنّ عقلي سليم، ووعيي حاضر، أُثابر على حمايتهما وسلامتهما، ففي العقل حرّيتي التي أبيتُ أن يغتالوها، والتي أحتاجها للدفاع عن نفسي.

إشارات العيون

حين أخذوني إلى قسم التوقيف بمدينة عيسى تعرّفتُ على المُعتقلات الأُخريات، كنَّ محبوساتٍ

في غُرفٍ ذات نوافذ صغيرة، وحين ذهابي للحمام ومروري على الغرف بنوافذها الصغيرة نظرتُ عبرَها فالتقت عيوني بعيون جليلة السلمان. طالعتني بتعاطفٍ وود، سلّمتُ عليها بإيماءة وعيوننا تُرسل إشارات تقول: صمود، لا عليك. وعبر النافذة الأخرى رأيتُ صبيّةً جميلة، هكذا وجدتُها وعيونُها تتساءل: من أنتِ؟ كانت تلك آيات القرمزي. وحين حيّت عيوني ندى ضيف أرسلتْ عينُها سؤالًا ثانٍ: بعد انتين اهني؟ «أنتِ أيضا هنا؟».

وهُنا تمَّ نقلي، مع الدكتورة زهرة السمّاك، إلى زنزانة فضيلة المبارك. يا لفضيلة المسكينة، نائمةٌ على الأرض مع سجينةٍ أخرى تُدعى أم علي. كُنّا 25 امرأة من الطواقم الطبّية وبعض المعلمات. تمَّ ترحيل ثلاث نساء، موظّفات حلبة الفورميلا. فرُغَت الزنزانات إلا من جليلة السلمان، وآيات القرمزي، ونجاح الحداد، ورجاء كاظم، وفاطمة البقالي. عشتُ معهن أطول فترة في السجن، ولهُن في نفسي معزةٌ خاصّة. كلّهن كوادر غير عادية، أستاذات، مُثقّفات، مُتعلّمات، لكنّني تفاجأت أنّ كلّهن شيعة، كلٌّ من صادفتهن شيعة، كنتُ ولا زلتُ أرفض الطائفية، وأذكر أنه كان يتردّد على الخيمة الطبية في الدوار سنّة وشيعة، فتوقّعت أن أرى خليطًا من الاثنين، إلا أنني لم أرَ مُعتقلةً سنّية إلا نهاد الشيراوي.

قلبٌ واحد..

خلال فترة الاعتقال التقيتُ بـ 200 إلى 250 معتقلة بحرينية، منهن طالبات مدارس إعدادي وثانوي، وربّات بيوت، ومُدرّسات، وطبيبات. كأن الله أراد أن يُكرمني بالتعرّف إلى بعضٍ من خيرة النساء خلال حجزي هناك. السجن ليس كذلك إذا كان مع هؤلاء. كنّا في رحلة من العمر، نعيش معًا 24 ساعة، لا أذكر أنه صدر من إحداهن تصرّفٌ غير لائق أو مزعج. صرنا أسرةً مُتماسكة، نتعامل بودٍّ وإخلاص، وقلبٍ واحد. لا أنسى موقفًا شهمًا من أم علي، تلك التي سحبوها من رضيعها قبل أن يُكمل رضاعته. طلبتُ منها أن تتصل بزوجي حيثُ مضى عليّ أكثر من ثلاثة أسابيع دون أن يعرف عني شيئًا، وذلك خلال مدّة مُكالمتها، وهي عشر دقائق فقط. قلُت لها قولي له: (Lulu is fine) وأقفلي الخط، وهو سيعرف. وفعلَتْها من أجلي.

قبل أن أجتمع مع جليلة السلمان وآيات القرمزي، نزلتْ معي وداد البناء ثلاثة أيام، وهي زميلة في كلّية العلوم الصحية. هذه الوداد كأنها ملاك، لفرط طيبتها ورقّتها، جاءتني كي لا أنام وحدي، مرّت عليّ كنسمة ربيع. بعد نسمة وداد كافأني الله بملاك آخر، بعمتي، نعم عمّتي (تضحك)، لا يعلمون ولم يعلموا أنّها عمّتي سحر الصفّار، وهي مُعلّمة في مدرسة طليطلة، كانت ضمن المُعلّمات اللاتي جرى عليهن الظلم، حلّت عليّ كهديةٍ من ربِّ العالمين لتؤنس وحشتي وتُطمئن الأهل عني،

وبعد ثلاثة أيام غادرتني.

تصوير الاعترافات

في يوم 16 مايو/أيار، رأيتُ فريق التصوير كاملًا، كانوا يحاولون أن يداروا وجوههم ببكوفيّة، أو قبعة، أو لثام. هكذا رأيتُهم، أوّلهم مخرجٌ بحريني مشهور كان مُلثّمًا لكن شكله وقوامه واضحان للعين البحرينية، بل بالأحرى كانوا ينادونه بالاسم. جاء مع فريق عمله، معه ممثّلٌ بحريني معروف، ومدير تلفزيون سابق، وصحفي، ومذيع مشهور في برنامج يدعو للطائفية والتحريض، وكذلك شخصٌ حقوقي من جهة حكوميّة. صوّروني بعجالة حسب ما رُسِم لي، أردّد إملاءاتهم المُقرّرة لي سلفًا، مختومةً باعتذاري للملك. كلُّ فردٍ له اعترافٌ مُختلَق مُختلِفٌ قليلًا عن الآخر. حين جاء دوري للتصوير، وكنتُ الأخيرة في المجموعة، أنجزوا مهمّتهم على عجالة، حيث كانوا يسابقون الوقت للّحاق بمشاهدة مُباراة ما وقتها، لذا نسوا أنفسهم، فسقطت أقنعتهم الوهمية، ليتكشّفوا لي فردًا فردًا، بَيْدَ أنّني اليوم أتحفّظ عن ذكر أسمائهم خشية أن يؤثّر ذلك سلبًا على زملائي العالقين في محكمة التمييز، ولكن سيأتي يومٌ أفضحهم فيه.

عيادة السجن

كنتُ طبيبة السجن، مرّت عليّ أكثر من سبع حالات أسعفتُ فيها نزيلات بالإسعافات الأوليّة حتى تصل سيّارة الإسعاف. واصلتُ عملي في السجن، أُقدّم المساعدة الطبية لأيِّ إنسانٍ كان. ذات مرّة سقطت نزيلة مُغمىً عليها فطلبتُ الإسعاف من شرطية السجن، ردّت علي باستهانة واستهتار، صرخت في وجهها: اطلبي الإسعاف حالًا وإلا إذا ماتت «فموتها في رقبتك» لم تشأ مُعاندتي.

عاينتُ أطفالًا رضّع ولدوا في السجن، وساعدتُ أمهاتهن لمعرفة كيفية الرضاعة الطبيعية، وغسل الوليد وتنظيفه. هؤلاء الأمهات مومسات، لكن هذا لا يهمّني لأنّ الواعز الإنساني والأخلاقي هو شيمتي، والمسؤولية الطبّية هي واجبي قبل أن يكون قَسَمي الطبّي الذي أقسمتُ عليه.

سألتُها: سمعنا عن تدهور صحة جليلة السلمان في السجن، وأنّها تشكو من مشاكل في القلب. كيف تصرّفتِ معها؟ ردّت: نعم، أُغمي عليها مرّتين أو ثلاث هناك، وكنت أسعفها بقياس ضغطها وغيره. هُناك مُمرّضة في السجن لكنّها ليست أهلًا لمهنتها، فكنتُ أستعين بأجهزتها فقط. كانت جليلة تحت إشرافي، وكانت تحت إشرافي أيضًا إحدى سجينات السلامة الوطنية، امرأةٌ حامل في الشهر السادس، أشفقتُ عليها واعتبرتُها كابنتي وتابعتُ صحّتها. خرجتْ قبلنا واليوم أودُّ لو أراها، مُشتاقةٌ لها.

ذاتَ مرّة، استشارتني شرطيّة سيّئة الأخلاق معي، ومعنا، حيثُ كانتْ خائفة وتشكُّ بإصابة ما في الثدي، ففحصتُها، وطمأنتُها بسلامتها مما يُخيفها، ونصحتُها بزيارة طبيب مُعيّن، لكنَّ ذلك لم يُغيِّر من مُعاملتها. كذلك شرطياتٌ أخريات كنّ يستشرنني في مشاكلهن الصحيّة أو حتى مشاكل أهاليهن، أصفُ لهُنّ الدواء أو أكتبه، وأعطيهن النصيحة بكلِّ أمانة، لا أفرّق بين الناس، طالما أنّهم يحملون صفة البشر، لا أتنصّل من هكذا مسئوليات أينما كنت، وفي أي ظرف حللت. عملتُ أنا والكادر الطبّي كمُستشارات لكلِّ حالة مرضية تُعرض علينا، حتى استطعنا أن نكسب احترام بعض الشرطيات. هُناك عرفتُ أنّ الأطباء والمُمرّضات جنسيتهم سورية أبًا عن جد، أو مُجنّسين باكستانيين وهنود ذوو مستوياتٍ مهنيّة مُتدنّية، بل مُضحكة لشدّة ضحالتها.

نافذة الحرية تُعلن المطر

حين أسمع الأذان، أنزل من سريري العلوي، أهرع للنافذة، أمسك قُضبانها بتلاليب قلبي، أرفع عيوني للسماء، تأسرني الزرقة المُربّعة عبر النافذة الصغيرة، وقلبي يتّسع خارجًا إلى رحابة السماء. أُناجي ربّي وأبتهلُ بحُرقة، أدعوهُ بالفرج للزملاء والأطبّاء، أبكي حُبًّا للبحرين . هُناك لا يمرُّ الأذان عابرًا أبدًا، لا أفوّتُ على نفسي هذا الطقس أبدًا. أمّا الصلاة فهي فرضٌ ننتظر وقته ونؤدّيه بملء جوارحنا.

أطلقنا على تلك النافذة: نافذة الحرّية. ذات نهار، تناهى إلى سمعنا مطرٌ غزيرٌ يتساقط، تلقائيًا ركضنا جميعًا نحو نافذة الحرّية، مددنا أيادينا للمطر، تشاركنا مع الناس في أجمل ما يُمكن أن يحدث خارج القضبان، في البلل الذي روّى أرواحنا بالرحمة والأمل، الأملُ بلقاء أهالينا وأحبّتنا. كان المطر يهطلُ في الخارج، وعيونُنا تهطلُ في الداخل، بقينا ملتحمات مع بعض، سعيدات، تشدّنا إلى بعضنا البعض المؤازرة والتعاضد والتلاحم، وأيدينا تستحمُّ بمرحٍ في ذلك الهطول الجميل. هذا المشهد الأثير لا يُنسى.

خلوة روح..

ينتابني شعورٌ أنني أقبعُ في مكانٍ ما ولكن ليس في البحرين. لا يُمكن أن يكون ما يحصل لي ولغيري من الصديقات يحدثُ فعلًا في البحرين. هذا الوجه القبيح لا يتناسب مع طيبة البحرين وأهلها. دائمًا أقول للزميلات سوف تخرجن جميعًا، وسوف تبقى اثنتان فقط، أنا واحدةٌ منهما. كثيرًا ما أُمازحهن باختيار الشريكة التي ستبقى معي، وأنا أضحكُ معهن، أُشاكسهن فأختار شريكةً أخرى، ثم أبدلها بأخرى، وأتضاحكُ معهن في ردّات الفعل، أقول لهن: سنبقى مدّةً طويلة، فلنعتبرها

فترة استجمام، خلوةً روحية وتأمُّل، بعيدًا عن الحياة اليومية الاعتيادية، بعيدًا عن ثرثرة التلفون والمسؤوليات العائلية والواجبات الاجتماعية، بعيدًا عن فضاء النت، عشنَ في فضاء الروح، اغتنمن هذا الوقت الكثير، واعتبرن أنفسكن في سفرٍ وسوف ينتهي هذا السفر ونعود جميعًا إلى بيوتنا.
لقد صدق حدسي، أُخلي سبيلُ الجميع وبقينا وحدنا، أنا وجليلة السلمان، تفاجأتُ بأنّ الأخيرة كان حدسها يتّفق معي، حتّى قبل أن تأتينا من زنزانةٍ أخرى وتشاركنا المكان.

ابتكار أشكال الحياة

في شهر رمضان، وفي الساعة 11 مساءً، أستنهِضُ الزميلات، أدعوهنَّ لمُمارسة الرياضة البدنية، وهنا يحضر طيف سهى بشارة (كانت تُمارس رياضة الأيروبك في زنزانةٍ ضيّقة، فقد عزمت ألا تخرج من السجن ضعيفة البنية والصحّة، وكان لها ما أرادت)، أقول لهن بمُزاح: «يلا قوموا يا الخيّب، ما إلك إلا رولى» على غرار البرنامج الرياضي في إحدى القنوات اللبنانية «ما إلك إلا هيفا». أقودهن لممارسة التمارين وكنَّ يحترمنني ويتّبعنَ نصائحي إلى حدٍّ كبير. وبما أن المعتقلات من خيرة المجتمع توزّعنا الأدوار، عملنا صفوفًا لتعليم تجويد القرآن، خصّصنا دور مُفتي الزنزانة لنجاح الحداد (طبيبة)، وصحّة الأسنان من اختصاص رجاء كاظم (طبيبة أسنان). ذات يوم فتحنا عيادتها، أحضرنا كرسي من المطبخ وأخذنا أدورانا عليه وهي تفحص أسناننا. كنّا نُحاول أن نبتكر حياةً لائقةً بنا في الداخل ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، تعويضا عن الحياة الناقصة المُجبرات عليها. دوري يتعلق بالصحّة والرياضة والترفيه، وأحرص ألا ينام أحد وهو مكدر الخاطر، أُمسّيهن بنكتة وأوقظهن بضحكة.

آيات القرمزي أخذتْ دور تلاوة القرآن، وهي تتمتّع بصوتٍ صافٍ وعذب وتجويدٍ مُتقن، حتّى أنّ إحدى الشرطيات طربت لصوتها حيث اختبأتْ ذات يوم وراء النافذة تُصغي لها حتى نطقتْ: «إش هالصوت ذي من وين لكم؟»، ولصوت د. رجاء كاظم أيضًا لونٌ آخر في التلاوة والتجويد. أيّامنا هناك تكثر فيها الصلوات والأدعية وسرد قصص الأنبياء. تمضي الأيام رتيبةً مُملّة، لكنّنا نُخفّف عن بعضنا وطأة المحنة بالدعم النفسي والصمود. كلُّنا أخواتٌ مترابطات، نُدافع عن بعضنا البعض في الخلافات التي تحدث مع الشرطيات ومعاملتهن السيّئة، نُناقش مشاكلنا الاجتماعية، نتضاحك ولا نسمح لأحدٍ أن يَسقط في الاكتئاب، نستنهضُ المعنويات العالية دائمًا في ظلِّ الوَجَلِ والرعب، والتكهنات التي لا تُفضي إلا إلى مجهولٍ قاسٍ حدَّ الموت، فنمسي على بعضنا قبل النوم: تُصبحن على فرج.

حضن البياض..

أحيانًا لا أشعر بنفسي وقد أخذتُ على عاتقي رعاية الجميع. ذاتَ مرّة شعرتُ أن خلود الصياد (طبيبة) مُتواريةٌ عنّا، ليس لها حس، ذهبتُ لها فانفجرتْ باكية، حضنتها وطمأنتها: «لا تخافين بتطلعين». أحيانًا أسمع بُكاء ندى ضيف (طبيبة أسنان)، أو زهرة السمّاك (استشارية تخدير)، أو نهاد الشيراوي (استشارية العناية المُركّزة) وغيرهن، أحتويهن، أحتضنهن. كنتُ الحضن الدافئ في المُستشفى والزنزانة -تبتسم رولى- تمامًا كما قالت مرآة البحرين: حضن رولا الصفار فيض بياض.

أصنع البهجة لنفسي وللآخرين باغتنام الفرص والحيل قدر ما أستطيع. ذات يوم برقت عندي فكرة، عرفتُ أنّ في الطابق الأول توجد طالباتُ التمريض، ولم يُسمح وقتها بالاختلاط بالنزيلات في الأعلى، وعرفتُ أنّ في مطبخهن تتوفّر الغسّالة. تذرّعت للشرطية بطلب غسل ملابسي هُناك مع أنني أغسلها بيدي عادةً. وافقتْ الشرطية، صعدتُ السلّم ودخلتُ عليهن في المطبخ، التفتن لي فلم أسمع إلا صرخة المفاجأة : «رولى .. أنت عايشة .. أنت هنا ولا نعلم». اششش .. نصحتهن : أخفضن أصواتكن كي لا تسمع الشرطيات فرحنا. عانقتهن وقبّلتهن واحدةً واحدة، كنتُ في غاية السعادة وأنا أرى لهفة الفرح في عيونهن، ثم ودّعتهن بسرعة، اسمحن لي : لا أستطيع أن أقضي معكن وقتًا أطول.

ننفض الألم بخلق أجواء ترفيهية، ولآيات دور في ذلك، وهي مُبدعة في قرض الشعر وفي تأليف الهوسات (والهوسة نوع من الأدب الشعبي العراقي). تختبئ في الحمّام ثم تخرج بابتكاراتها، تُنشدها لنا بشكل ساخر ومرح. وإذا غادرتنا أي زميلة، لا نزعل ولا نحزن، بل على العكس نعمل لها حفلة وداع، نُصفّق ونُغنّي جميعًا بفرح : « شيلي قشك شيلي قشك طلعي عن بيتنا».

كنّا مصرات أن نعمل من عنبرنا جنّةً، كي نستطيع مُواصلة الحياة القاسية والبخيلة، في كلِّ شيء، في نظافة مكاننا ومرافقه، وفي طقوس الذّكرِ وتلاوة القرآن، فيما الوفاء عنواننا جميعًا.

العنبر والزنزانة..

ما الفرق بين الزنزانة والعنبر؟ هل هي زنزانةٌ كبيرة مُقسّمة إلى عنابر؟ أم هو عنبرٌ مقسم إلى زنزاناتٍ صغيرة؟ اختلفنا في التسميات أنا، وجليلة السلمان، وآيات القرمزي، ورجاء كاظم، ونجاح الحدّاد، وفاطمة البقّالي. انتهى الاختلاف إلى الاتفاق على تسميتها عنابر. شاء قدرنا البائس أن نُودَع سجيناتٍ في مركز مدينة عيسى للنساء، المدخل الرئيسي يُفضي إلى بهوٍ صغير، على جهة

اليمين كرسيٌّ طويلٌ يشغل ثلاثة أنفار، بعده سلمٌ يؤدّي إلى الطابق الأول، في الطابق الأول مطبخ وبه الغسالة وعنابر أخرى، وتحت السلّم بساطٌ تنام عليه الشرطيات المُناوبات في الليل.

أمام السلّم بمسافة صغيرة يرتفع (كونتر) عليه جهاز كمبيوتر. على نفس جدار المدخل الرئيسي، يسارًا، يرتفع عاليًا مكيّف هواء، ثمّ تتوسّط الجهة اليُسرى من البهو البوّابة الحديدية ذات القضبان التي تؤدّي إلى العنابر، ولنفس البوّابة أيضًا باب (جرّار) من البلاستيك (المغبش) يغطّيها بالكامل في حال دخول زوّار، أو مُعتقلات، وخصوصًا مُعتقلات السلامة الوطنية، ونميّزهن عن غيرهن بعصابة العين وقيود اليدين.

من البوّابة الحديدية ندخل إلى العنابر، أبوابها معنونة بالأرقام وتتوزّع على الجانبين، جهة اليمين المطبخ، يليه عنبر 3، بعده مكتبٌ للشرطيات به خزاناتهن الخاصّة وحمّام، وفي الزاوية عنبر5، جهة اليسار تصطف العنابر 1، 2، و4، والعنابر بمساحات مُختلفة، وفي الغالب تتكدّس بالنزيلات بأكثر من طاقة استيعابها، وهذا أمرٌ مألوف، كلُّ الأمور تجري غير مألوفة، لكنّا من نجعلها مألوفة كي نتعايش معها. في نهاية الممر بابٌ خشبي مُغلقٌ على الدوام ومنه نخرج إلى ملعب صغير نتمشى فيه مرّةً في الشهر، ومنه أيضًا نذهب إلى العيادة الجديدة التي جُهزّت، على عُجالة، بأدوات جديدة قبل زيارة بسيوني، وإلا قبل ذلك كانت العيادة في الطابق الأعلى، وتفتقدُ إلى أبسط معايير النظافة والأدوات الطبّية التجهيزية، فحين قدمنا لم تكن موجودة أصلًا لكنهن اضطررن إلى توفيرها بسبب الحاجة الماسّة لعلاج المعذَّبات القادمات من التحقيقات.

كانت إقامتنا المؤقّتة في عنبر 2 مساحته 3X4 متر، حين تدخله يُقابلك في الزاويتين سريران ذوا طابقين بينهما نافذةٌ صغيرة، تُطل على جدار سور المجمع، ويُمكننا رؤية السماء الشاسعة حين يرتفع النظر للأعلى. على اليمين يقع الحمام، به حمام إنجليزي، و(دش)، ومغسلة، وبين تلك العنابر الخمسة يُوجد ممر هو فُسحتنا الصغيرة هناك. أعطينا تلك العنابر أسماءً مثل عنبر الصمود، عنبر الحب، عنبر الأمل. كان عنبر 2 قريبًا من المطبخ ويُقابل مكتب الشرطيات، لذا فهو يكشف لنا حركة دخولهن وخروجهن وكذلك حركة الزوار، كما أنّه يضعنا تحت العين والمُراقبة الشديدة. وبالمبنى أجهزة المناداة (Intercom) وتتعمّد الشرطيات إزعاجنا من خلاله في التخاطب فيما بينهن في أمورٍ تافهة.

ولمزيدٍ من (التنغيص)، علينا أن نستجيب مُكرهات إلى أوامر الشرطيات حيث تجري العادة اليومية هناك بتفقد السجينات يسمى Names Checking تأتينا الشرطية في ثلاثة أوقات من

اليوم، الساعة السابعة صباحًا، والواحدة ظهرًا، والحادية عشر مساءً، تُنادي على أسمائنا، فنخرج في الممر واقفات في طابور بالوعيد والتهديد المتواصل علينا حيث تصرخ في وجوهنا: لا أريد أن أسمع غير كعب حذائي. تتركنا مُترنّحات نُغالب النعاس ولاسيما في الليل وتذهب لمكتبها. وبعد أن تكتفي من عذابنا تعود لتسمح لنا بالعودة لما كنّا فيه ونكون أنا وجليلة آخر ناس.

لكن الأدهى من ذلك هو تفتيشنا في كلِّ مشوار خارج السجن كالذهاب للمحكمة أو غيره، قبل الخروج وبعد الرجوع. تأخذنا شرطيتان تفتشاننا بتعريتنا بالكامل، ثم تأمراننا بثني الركبتين كوضعية الجلوس، لمزيدٍ من التأكّد من خلوّنا من حمل أي شيءٍ عالق، بل لمزيدٍ من الإهانات. ذات مرّة انتقدتُ شرطيةً شابّة على شتيمتها: «عيب، استحي على وجهك، أنا في عمر أمّك».

أسْبَحُ في عَرَقي

ذاتَ يوم من أغسطس/آب انقطع التيّار الكهربائي في الدور الأرضي مدة 24 ساعة، سُمح للجميع باعتلاء الدور الأول للهروب من الحر، إلا أنا وجليلة السلمان. من شدّة الحرارة كانت الأرض الإسمنتية تَرْشَح بُخارًا كأنّه صادرٌ عن حريق. أتعبني لافح الحر فنمت، هل نمتُ أم أُغميَ عليّ لا أتذكّر. تقولُ جليلة إنّها كانت تهزّني وتقول: «رولى قومي لا تموتين» وأنا أسبحُ في عرقي ولم أستيقظ، هل كانت تلك نعمة كي أغيب عن الحر؟

كنّا نعيش مأساةً حقيقة لكنّا نُحاول بتفاهمنا وانسجامنا الحدّ من بؤسها. عشنا خمسة شهور في هذا المكان الصغير نفتقد الخصوصية. ليس هناك مكانٌ نهرب إليه بعيدًا عن الأعين، إلا الحمّام، وحتى الحمّام يجب أن نخرج منه بسرعة، أي أنّ الاستحمام له وقتٌ، وكمّية الماء تُصرف بحساب وإلا انقطع عنّا، فالماء شحيحٌ بالنسبة للعدد الكبير لمستخدميه، وإذا انقطع الماء ننتظر من ست إلى سبع ساعات حتى يعود.

الصلاة..

أعودُ للصلاة، وقتُ الصلاة طقسٌ مُقدّس، ننتظره بشوق، تتحوّل الأرضية إلى بساطٍ جميل من السجادات المُتراصّة. نشعرُ بحقيقة المِحنَة في لقائنا بربِّ العالمين، ويُخيّمُ الخشوع والصمتُ التام، ولو وقعت إبرة لسمعتُها. وهُنا يُسمع البكاء وقت القنوت أو السجود. كلُّ واحدة منّا تعتكف في مِحرابها الخاص جدًّا بها، هذا اتّفاقٌ تلقائي جرى بيننا، لا نتدخّل فيه، لكلِّ منّا الحرّية في مُمارسة طقسها، تُجهش بكاءً، أو تتوسل، أو تستعطف ربّها، أو تسترحمه، أو تواسي نفسها بنفسها، والله يتولّانا جميعًا، إنّه نعم المولى، ونعم المُعين.

ذاتَ صلاة سمعتُ زقزقة عصافير، نظرتُ للنافذة لا شيء هناك. تلفّتُ حولي لا عصفور تائه بيننا، ثم تبيّن لي أنها زقزقة بسملات وأدعية. إذن كانت تلك أصوات المُصلّيات ومناجاتهن، لكنّ مُخيّلتي تقول إنها عصافير الجنة. اعتدتُ على صلاة الليل التي تعلّمتُها من زهرة السمّاك، فكُنّا نؤدّيها ليليًا سويّةً، أنا والسمّاك وضيف. صِمْتُ هناك رجب وشعبان ورمضان، وأعدتُ صيام الثلاثة الشهور الثلاثة هذا العام أيضًا.

في حصار السجن والسجّانين ليس لنا ملاذٌ إلا الله، فحين سمحوا لنا بالكُتُب الدينية بعد انتهاء فترة السلامة الوطنية، صرنا نعقد جلسات ذكر، نختم القرآن بشكلٍ شبه يومي، نتقاسم الأجزاء فيما بيننا، وأحيانًا نقرأ أدعية، وأحيانا أخرى نطلب الذهاب للطابق العلوي كي نجتمع مع الزميلات النزيلات هناك لقراءة أدعية لمُناسبة دينية تمر. تتمُّ الموافقة على الطلب شرط أن نُنهي قراءتنا في ساعة واحدة فقط. نجتمع في عنبرٍ مساحته تقريبا 4× 5 أمتار، وعددنا يصل من 30 إلى 40، نجلس مُتراصّات، مُتكدّسات، مُتدلّيات من الأسرّة، هُناك أربعة أسرّة من طابقين، لا نشعر بالضيق أو الحر، ونكون سعيدات فرحات ببعضنا. يضيع بعض الوقت في تبادل السلام، لذا ونحن في عزّ القراءة، وقبل أن نُكملها تدخل علينا شرطية مُجنّسة بالصراخ بصوتٍ عالٍ : «يلا خلاااااص».

حديثُ الكساء

كُنّا نعشق قراءة حديث الكساء، ففيه من المؤازرة ما يُهدّئ لواعجنا، فنحاول أن نجعل من ذلك طقسًا روحانيًا مُميّزًا. نتخيّل أنّ العنبر كلّه مغطىً بالكساء المُبارك، ونتخيّل كيف جمع الرسول (ص) أهل بيته تحت ذلك الكساء، فنشعر أن وجودنا تحته آمِن، بل أكثر أمانًا من الخارج، وأجملُ من يتلو هذا الدعاء هي رجاء كاظم، تؤدّيه بصوتٍ رخيم، ولحنٍ مُميّز ينشر السكينة في قلوبنا، ويُشعرنا طوال الأيام هناك أنّنا تحت حمايته.

سألتُها: ما تأثير حراك الشارع عليكنّ هُناك؟ ابتسمتْ وقالتْ: ذاتَ مرة سمعتُ هُتافات من بعيد، قلتُ لهن : صه، اسمعن، إنها أصوات هُتافات ومُظاهرات، ولكن لم نُميّز مصدر المكان، أو من أي جهة قادمة تلك الأصوات، أسألهن هل تسمعن؟ يجبن: لا، لكنّ آيات القرمزي توافقني، نعم أنا أسمع.

قلتُ لهن : سيأتون لتحريرنا من السجن، وسوف نُحمل على الأكتاف باحتفاءٍ غير عادي. أنتُنّ بطلات ولا تدرين بأنفسكن. نعم سنخرج من تحت الكساء إلى فضاء السماء، مزجتُ خيالًا بخيال

وانطلقتُ بعفويةٍ وحماس أرفع المعنويات وأدجّجها بالأمل الأكيد كي لا نفقد الأمل بالخروج.

اللقاء الأول بالزملاء..

في 6 يونيو/حزيران أخذوني للمحكمة العسكرية، كنتُ بمعيّة شرطية، وطوال الطريق في السيارة وهي تصرخ عليّ : لا تتكلمي، لا تنظري من النافذة، أنزلي رأسك. لكنّ صُراخها لم يؤثّر في استمتاعي بالشمس والسماء والهواء والطريق والخضرة في الشارع، تكاد السعادة تطفر من عيني وتفضحني. يا الله كم هي جميلة حياة الحرّية، حُرمتُ منها أشهرًا، مرحى بالحَر، (حلو وبارد) على قلبي كما نقول، ما ألذّ الحرارة، ما أجمل الشمس الحارقة.

حين وصلنا ونزلتُ من السيارة، رأيتُ مجموعة رجال معصوبي العيون، ومُكبّلي الأيدي، ينزلون من سيّارة، يضربون ويُهانون. أتساءل مَن هؤلاء؟ تأمّلتُهم، صرخ قلبي فزِعًا : يا إلهي! إنهم زملائي، لقد كانوا الكادر الطبي. أوقفوهم صفًّا على جانب وهم مشبوكون ببعض بسلاسل من الخصور، واقفين تحت شمسٍ مُفترسة، والشتائم والضرب متواصلٌ عليهم. أسمع بكاءهم وقلبي يتفطّر عليهم، مررتُ على ذلك الطابور المُهان، وكان في خاطري أن أقول لهم: «صمود، اصبروا وصابروا»، ولكنّ التهديد الذي ينتابني أيضًا لم يجعلني أستطيع أن أنبِس بكلمة. لم نكن نعلم مآلنا إلى أين. دخلتُ مبنى، رأيتُ جهة اليسار نبيل تمام (استشاري الأنف والأذن والحنجرة) جالسًا على كرسي، نبيل زميلٌ عزيز، أعرفه مُنذ سنين، ما أن رآني حتى انتحب بصوتٍ عالٍ، طفرت عبراته تُغرق وجهه، سلّمتُ عليه بحرارة، صافحتُه بيدي، تشابكت أيدينا بحرارة، لا تُريد الفكاك، والدموع نهرٌ يجري بيننا، ثم تركتُه ودخلتُ غرفةً صغيرة حيثُ كانت هناك النساء من الكادر الطبي (اللاتي أُفرج عنهن قَبْلًا)، وهنا تفاجأن بسَحنتي الجديدة وهُزال عافيتي، حيث فقدتُ من وزني 20 كجم، رُبّما النظّارة ساهمت في تغيير شكلي. آه، أطبق الحزن علينا وتكالبت الهموم في تلاطم المحنة.

لم يَعرفني أحد..

جاء الأمر بالدخول إلى المحكمة. الأطبّاء أولًا، أدخلوهم من جهةٍ ثانية. رأيتُهم بسيماء البؤساء، بأثواب بيتٍ رثّة، (ببجامات) نوم مُتّسخة بعرقهم، بشعورٍ حليقة، ولحىً مُبعثرة، هزيلي القوام. أدخلوهم (ببهدلة) وإهانات شنيعة ليس لها مثيل. كانوا منكسي الرؤوس، ودموعهم تسيل على وجناتهم. عندما رآهم القاضي انزعج، واستهجن إحضارهم بهذه الحالة المُشينة، وقال: هذه آخر مرّة أراهم بهذا الشكل. وأنا كنتُ أول النساء الداخلات، فمررتُ بجانبهم فَرِحةً بهم لكنّهم لا ينظرون إلي، لم يتعرّفوا عليّ. مررتُ على إبراهيم الدمستاني لم يعرفني، (بكت رولى وهي تقول لم يعرفوني)، الوحيد الذي تعرّف عليّ هو نادر ديواني، دموعه الساخنة أعطتني الإشارة والتساؤل

الصامت: عرفتُكِ رولى، أهذه أنت؟ أخذنا نبكي معًا بصمت، وكل دمعةٍ تنزل تحمل معها ألف سؤالٍ وسؤال، ماذا سيفعلون بنا بعد؟ أمّا الأطباء الآخرون فقد تعرّفوا عليّ حين نادوا عليّ بالاسم.

رأيتُ زوجي وأخي، أرى عيونهم تفيض دمعًا وهما ينظران إليّ، فأستجيب لهما بعيونٍ سخيّةَ الدموع أيضًا، لكن هما يبكيان حالي، وأنا أبكيهما فرحًا (بشوفتهم) لأني افتقدتهما كثيرًا. أمّا المحامي حافظ حافظ فقد تفاجأ من شكلي، وأخذ يُشيح نظره الدامع عنّي حرصًا على مشاعري، خشية شعوري برثائه لي، بَيدَ أنّ الحقوقي محمد الصميخ، عضو الأمانة العامة بجمعية البحرين لحقوق الإنسان، لم يستطع أن يُغالب دموعه.

عرضتْ محكمة السلامة الوطنية الاتهامات الجاهزة الجائرة وهي: حيازة سلاح بغير ترخيص، احتلال مركز السلمانية الطبي، الترويج لقلب وتغيير النظام والاستيلاء على المعدّات الطبّية، ثم قرّرت هيئة المحكمة تأجيل القضية بناءً على طلب المحامين للالتقاء بموكّليهم والحصول على نسخ من أوراق الدعوى.

ضاع صوتي

بعد المحكمة يلتقي السجناء بأهاليهم مدّة ربع ساعة. جلستُ بين زوجي وأخي ملتصقين، متشابكي الأيدي، أكلّمهما عن التحقيق وما حدث لي، لكنّهما لا يسمعانني، انحبس صوتي فلا يسعفني في البوح. زوجي يُحاول أن يسمعني: ارفعي صوتك رولى، لا أسمعك؟ أخي أيضًا لا يسمع. كنتُ متلهفّة لمعرفة ما يجري في الخارج، وفي نفس الوقت أحاول أن أقول لهما بإيجاز ما حدث لي، لكنّ مُغالبة الغصّة وحشرجة العبرة تخنقان حنجرتي، فأعجز عن طمأنتهما أنّني بخير، فقلت بدون انتباه: صعقوني بالكهرباء، فصُعق أخي: «ويش؟» فأردُّ عليه بسرعة: «بس أنا أوكي أوكي» وفي حصار ضِيْقِ الوقت أُجاهد في الكلام بحيث أكون (على راحتي)، لكن مع كلّ تلك المشاعر المُختلطة المُضطربة ضاع صوتي منّي. آثرتُ الصمت. لبثنا كلّنا صامتين.

في المحكمة الثانية

في اللقاء الثاني بالكادر الطبّي في المحكمة لم أحتمل السكوت، يكفي إهانة، مشهدهم المُزري المُتكرّر أغضبني، فصرختُ فيهم: «ارفعوا راسكم. انتون ما سويتون شي، احنا لازم نكون شايفين حالنا على الكل». الكل رفع رأسه واعتدل في وقفته، وقفة صمود.

حين نادوا على علي العكري، استشاري العظام، صرخ فيهم: «أمضيتُ بالإكراه». كان القاضي لا

يُريد أن يسمع شيئًا عن التعذيب. يُريدُ سماع قول غير مُذنب فقط، لكن، وحين جاء دوري احتججتُ أيضًا: أنا غير مُذنبة، لقد عذبوني وانتزعوا منّي الاعترافات تحتَ التهديد والتعذيب، وبالمثل فعلتْ زهرة السمّاك فطردتَها المحكمة.

تقويمي الخاص..

كيف تعرفين التواريخ؟ سألتُ رولى. أجابت: حين توفّرت لي علبة محارم ورقية، بسطتُ الكرتونة ورسمتُ عليها تقويمي الخاص الذي بدأ من يوم الاثنين 4 أبريل/نيسان 2012، ثم رسمتُ المربّعات وملأتُها بالأيّام حتى وصلتُ لليوم الذي أنا فيه وأخذتُ أشطبُ اليوم الذي يمضي وهكذا.

قررنا أنا وجليلة السلمان الإضراب عن الطعام في نهاية يوليو/تموز، أردنا أن نوصل للخارج والعالم إعلان احتجاج ضدّ السجن وسوء المعاملة. اعتمدنا في التغذية على الماء فقط، فسقطتْ جليلة أكثر من مرّة، وكانت تُنقل إلى المستشفى، وتعود مواصلةً الإضراب و أنا معها أشجّعها، وأشدُّ على صبرها، وأُداريها، فأقوم بتنظيف العنبر وهي نائمة، كي أحدّ من إجهادها، لا سيما وهي تشكو من مشاكل في القلب، ثم توقفّنا عن الإضراب بعد اليوم العاشر، حين قرّرت إدارةُ السجن عمل زيارة لأهالينا، ولمسنا تحسّنًا في المُعاملة، كما أثمر الإضراب نتيجةً أخرى وهي أنّ الرسالة وصلت لفريق لجنة بسيوني الذي زارنا في السجن، وبعد أسبوع زارنا السيد بسيوني نفسه.

زيارة بسيوني

عرفنا أن السيّد بسيوني سوف يزورنا حين تمّ نزع الأعلام البحرينية والسعودية التي كانت تغزو المكان، نزعن من الجدران مُلصقات الملك عبد الله أو «بو متعب» كما يُسمّونه، وباشرن حملة تنظيف في العنابر نقوم بها نحن السجينات. وذات مرة قلن إنّ «بو متعب» سيزور البحرين فوزّعنَ علينا حلويات مُغلّفة باللونين الأحمر والأخضر يرمزان في ذلك للوني العلمين البحريني والسعودي، لم نأكلها.

تهيّأتُ وجليلة السلمان لزيارة السيد بسيوني. في الليل تحصّلنا على ورقة وقلم، سجّلنا كلّ الانتهاكات، أخبرناه بها حين التقيناه، فوعدنا بالخروج نحن والكادر الطبّي الرجال أيضًا. بعد تشكيل لجنة بسيوني في 26 يونيو/حزيران بدأت تطرأ تحسيناتٌ عندنا، مثل توفير بطّانيات جديدة، حيث كنّا قبل ذلك نلتحف فوطنا الخاصة، وبعدها أعطينا بطّانيات مُتّسخة، عَفِنة، مُستخدمة من قِبَل نزيلات تركنَ السجن.

روايات باولو كويلو

في أغسطس/آب بدأنا نتنفس بعضًا من الانفراجات الأخرى حيث سُمح لنا بقراءة الصحف المحلّية التي تَرِد السجن مثل الوطن، والبلاد، وأحيانًا أخبار الخليج، لكنّ الوطن هي الرئيسة. ذات مرّة أحضر زوجي صحيفة الوسط لكنهنّ منعنها عنّي، يستحيل أن تدخل الوسط هناك. بينما سمحن لي بقراءة روايات باولو كويلو، وبعض روايات غابرييل ماركيز الصادرة بالإنجليزية، التي طلبتُها من زوجي، من مكتبتي الخاصة في البيت. بدأتُ بقراءة: (Witch of Portobello) (ساحرة بورتوبيللو) كنتُ أقرأ الرواية في وقت قصير وباستمتاع وشَغَف كبير، خصوصًا وأنّ كويلو مولعٌ بالأمل والتجارب الروحية. كنتُ أضع خطوطًا تحت الجُمل التي تستوقفني، وإذا ختمتُ قراءة الكتاب أكتب في الصفحة الأولى: التاريخ/ عنبر 2 / السلامة الوطنية، قبل أن أرجعها لزوجي، لكن المُصلحة الاجتماعية اعتبرت أنّ تلك الخطوط شيفرات لرسائل مُعيّنة، واحتجّتْ أيضًا على ذكر السلامة الوطنية فأغضبتني، قلتُ لها: وماذا في ذلك بالله عليك، الاسم متداول، صار بديهي وطبيعي؟ لم أحتمل انتزاع شيءٍ معنوي بالنسبة لي، فمزّقتُ الصفحة الأولى في وجهها ورميتُ الكتاب.

في أواخر يوليو/تموز، أيام الإضراب، جاءت شرطية ودخلت علينا العنبر لتسأل: «وين رولى الصفار؟» أجبتُها: «أنا رولى، نعم؟»، سألتْ: «أنت زينة؟» رددتُ: «نعم أني زينة الحمد لله». عادتْ بسؤالٍ آخر: «صحتك أوكي؟» أيضًا أجبت: «الحمد لله». ثمّ مضتْ. هذه الشرطية جديدة علينا منقولة إلينا من مركزٍ ما.

قبل خروجي بثلاثة أيام جاءتني نفس الشرطية، لتعترف لي: في مايو/أيّار جاءني أمرٌ باعتقالك، فذهبتُ إليكِ في كلّية العلوم الصحية فقيل لي: إنّك مُعتقلة من زمان. كنتُ وقتها أريد أن آخذك إلى مركز الرفاع بناءً على شكوى ضدك من أحدٍ ما في الرفاع الشرقي. حمدتُ الله أنّني لم أمرّ بمركز الرفاع، لأنّه حسب علمنا أن التعذيب المُميتَ يقع هناك. هذا المشهد أشعرني أنّني في مكانٍ آمن، أنّني فعلًا تحت حماية حديث الكساء وأمانه، وأيُّ أمان!

حريتي .. أخيرًا

في قانون السجن عادةً الإفراج يكون يوم الأحد أو الأربعاء. ويوم الأحد 21 أغسطس/آب 2011 جاءت لي شرطية وقالت: سوف نأخذك للقضاء العسكري. رفضت: ما بطلع. تركتني ثم عادت: سوف نأخذك للمحكمة العسكرية. أصررتُ على رأيي: لن أخرج بدون محام. قالت: يمكن إفراج؟ وأضفتُ شرطًا: وبدون جليلة لن أخرج أيضًا، اذهبي لأكبر مسؤول قولي له لن أتحرّك من هنا بدونها. ذهبتْ الشرطية ثم عادت: ستخرجان معًا. فرحنا لكنّنا اشترطنا توكيل محامٍ، لأنّنا لا نعلم

ماذا قد يحدث لنا، خشينا أن نعود إلى نقطة الصفر. من يدري؟ ثم اتصلنا بأهالينا والمحامين. أُخذنا إلى مبنى المحاكم العسكرية وهناك ألقوا علينا محاضرةً طويلة من النواهي، واللاءات، والتعّهدات: لا تتكلما في الفضائيات ولا تصرّحا في الصحف وغيرها. وأمضينا على أوراقٍ بتلك التعّهدات. وقالوا لنا: اضحكا سوف تخرجان. لم نُصدّق أنّنا نقف أمام عدسة كاميرا تصوّرنا في فضاء الحرّية. (تلك الصورة التي تصدّرت خبر الإفراج في أون لاين صحيفة الوسط). بعدها نُفاجأ بحشود الناس في ظهر رمضان القائظ واحتفائهم بنا في الخارج، وما زلتُ عند عتبة باب السجن حتى يأتيني أحدهم بهاتفه لأستقبل أوّل تهنئة من غزة من د. يوسف موسى، ثم تهنئة أخرى من مصر، من العزيزة خولة مطر، ومن البحرين أيضًا هنّأني الشيخ علي سلمان.

شعري الأبيض..

كنتُ أعلم أنني فقدت كثيرًا من وزني، وانطلق بياض شعري على سجيته، ففي ذات مرة في مركز الشرطة حانت فرصة أن أرى نفسي في لمحة سريعة في مرآة هناك، ولكنّني حين قابلتُ مرآتي في البيت تفاجأتُ من جسدي النحيل، من شكلي الجديد عليّ. أهذه رولى؟ رأيتُ نفسي امرأةً كهلة كبُرتْ سنينًا في ظلام السجن، كنتُ أعلم أن شعري تخلّله البياض ولكن ليس بتلك الكثافة، لكنّي أيضًا أحسستُ أن شكليَ الصادم لكلِّ من رآني ما هو إلا انعكاسٌ لقلبي وللآلام التي تجرّعتُها. ألمسُ جسدي، أتفقّد عضلاته التي اعتقدتُ أنّني بنيتُها بالتمارين الرياضية، هي موجودة ولكنّها شحيحةُ اللحم. أمّا الوجه فيقول: نفس الوجه، الحمد لله لم يتغيّر، وهج الصمود بارقٌ على محياي، وهذا ما جعلني فخورةً به، يمكن أن العينين منطفئتانِ قليلًا لا بأس، كل ذلك يعود طالما عادت الحياة. لم أخجل من شكلي أو شيبي ولم أجدْ ذلك عارًا أُخفيه، هذا الوجه الجديد الذي خرج لكل الناس والتقطتُه عدسات الكاميرات أعتزّ به كثيرًا، لأنّه بالنسبة لي ترجمةٌ لآلامي وصمودي داخل السجن.

تصدّرت رولى 13 بحرينيًا كانوا ضمن أقوى 500 شخصية عربية للعام 2012، وذلك بحسب ما أعلنته مجلة «أريبيان بزنس» أمس الأحد (10 يونيو/ حزيران 2012). تقول عنها: بمُناسبة احتفاء الناس بي بهذه الجائزة، أحبُّ أن أهدي هذا الفوز للكادر الطبي البريء، وللشعب البحريني، وللثكالى أمّهات الشهداء (تلمع عيونها، ويحمرّ وجهُها، ويتهدّج صوتها وهي تواصل الإهداء بحرارة وصدقٍ كبير) لزملائي المعتقلين، للرموز المغيبين، للأرامل وأطفالهن اليتامى، إلى الذين قُتلوا عُنوةً بفعل التعذيب، فأنا هُم، وهُم أنا. كما أُهدي هذا الفوز للمُعتقلات حيثُ تعلّق قلبي بهِنّ جميعًا ولا سيما جليلة السلمان وآيات القرمزي.

لقد قطعتُ على نفسي عهدًا وأنا في السجن أنّني سوف أسرد للأجيال القادمة قصّة كفاحنا جميعًا

ومُناهضتنا للظُلم واللا إنسانية، فمثلما قرأ الناس سيرة سُهى بِشارة في مُقاومتها الباسلة، سوف نقرأُ نحن أيضا نصرًا مُدوّيًا، مُدوّنًا بحروفٍ ذهبية، مثلما تُدوّنُ مرآة البحرين الآن نضال شعبٍ حرٍ في سيرة ثورة 14 فبراير/شباط 2011.

نصيحة

صدفة اللقاء مع سهى بشارة في جنيف تعلّمنا في السِجْن فنّ الصبر والإيثار في كل شيء، كُنّا واعيات أن الهدف من سجننا هو كَسرُ إرادتنا، هذه الغاية الرئيسة لدى السجّانين ووظيفتهم لكننا خرجنا مثلما كنّا، بل بإرداةٍ أصلب وأكثر عِصيانًا على الكسر، رأيتُ ذلك على الأقل في السجينات القريبات مني، أنا وجليلة السلمان وآيات القرمزي وغيرهن. أقسى ما يواجهك هناك هو أوّل صفعة، حين تهوي على وجهك يدٌ ثقيلة، ضاربة، حاقدة، مشحونة بالشتائم، هُنا يصعب عليك استيعابها وتحمّلُها، هذا فضلًا عن الإغماءة التي تليها، يتفوّق الألم النفسي على العضوي في تلكَ اللحظة، حين تُهان الكرامة، بالاعتداء عليك من سافلٍ ومُنحطّ، من مجرم سافلٍ ودنيء. أوّل ضربة حقًا مُؤلمة، لكنْ بعدها نعتاد على الضرب أينما كان، نتجاوز الإهانة النفسية، ونبدأ بانتشال أنفسنا بأنفسنا، ننظر للكأس الممتلئ بالحرّية في الخارج، هذا مكان الإنسان الطبيعي، نواجه التجربة بطريقةٍ إيجابية، بالإيمان القوي بأنّ اللّه حقٌ ومطلبَنا حقٌ، بالصلوات، ولا سيما صلاة الليل، بتلك الطقوس الروحانية التي ذكرتُ، وذلك من أجل أنفسنا ولأنفسنا، وربّما قد لا ننسى الألم فقط لأنه قاسٍ بما يكفي لحضوره أحيانًا، لكننا لا نجترّه، كي لا نغرق في رثاء أنفسنا وينتصر علينا الظلم، ونخرج مكسوري الجناح، فنحقّق للسجّان، وللنظام مرادَه.

رسالة إلى السجينة سُهى بِشارة

أوجّه اليوم تحيةً خالصة صادقةً إلى الصامدة الحرّة سُهى بِشارة. كم أنا اليوم مُشتاقة للقائها، كم أتمنّى أن ألتقيها كي أشكرها (غصّتِ الكلمات في حنجرتها ولمعت عيناها وهي تتكلم) أريد أن أراها وأقول لها إنك أنقذتِني من الموت، لأني مَشيتُ على هديك ونهجك في سجنك المرير، إنّني سعيدة ومحظوظة لأني قرأتُ كتابك قبل أن أدخل السجن بسنتين فقط، لذلك كان حاضرًا في ذاكرتي بما يكفي لاستعادة المشاهد منه، والاستفادة من التجربة أيّما استفادة .. فإذا قرأتِ هذه السطور من فضلكِ اسألي مرآة البحرين عني، عن سُهى بِشارة البحرين .. كم يُشرّفُني لقاؤك.

رولى الصفار، مواليد يناير 1962، بكالوريوس في التمريض، جامعة تكساس للنساء الأميركية (أول ممرضة بحرينية حاصلة على شهادة تمريض في أميركا)، 1989. شهادة الماجستير في الطوارئ والعناية القصوى، جامعة وايدنر في ولاية بنسلفانيا، الولايات المتحدة، 2000. شهادة التمريض العائلي المتقدم (أول بحرينية حاصلة على شهادة التمريض العائلي المتقدم)، 2000، جامعة وايدنر. حازت على المرتبة 11 ضمن أقوى 500 شخصية عربية للعام 2012، وذلك بحسب ما أعلنته مجلة «أريبيان بزنس».

ابراهيم الدمستاني:
مكسور الظهر مرفوع الهامة

في المؤتمر الصحفي الذي أعقب إصدار حكم الاستئناف باتهام 9 من الكادر الطبي وتبرئة 9 آخرين بتاريخ 24 يونيو 2012، قال ابراهيم الدمستاني ساخراً من الحكم، وممازحاً زميلته رولى الصفار: "من المضحك أن يتم تبرئة رئيستي المباشرة التي أأتمر بأمرها، وأدان أنا المأمور"، ضحك الجميع فيما لمعت دمعة في عيني رولى الصفار، أخفتها سريعاً، فالدمستاني القريب جداً منها، هو نائبها في جميعة التمريض أيضاً، وخاض معها حروباً طويلة في دفاعهما المستميت عن كادر التمريض قبل أعوام، وكان الدمستاني بمقولته تلك، يسخر من الأحكام التي كان واضحاً أنها صيغت على مقاس ما تريده السلطة، لا على مقاس ما يقتضيه القضاء النزيه.

من يجلس مع الدمستاني ولو لوقت قصير، يلمح سريعاً جانبين ملفتين في شخصيته: المرح والمشاكسة، سيبدوان واضحين من خلال سرده لتفاصيل تجربته في المعتقل، ومن خلال ما سرّب أثناء فترة اعتقاله لـ(مرآة البحرين) من رسائل وبيانات عن الكادر الطبي، والتي تم نشرها حينها في وقتها. ورغم الوصف الذي خصته به مرآة البحرين: "مكسور الظهر مرتين"، مرة عندما قُتل ابنه علي، ومرة عندما كسر الجلادون ظهره من التعذيب، إلا أن هذين الكسرين لم يمسحا من روحه أن تحتفظ بصمودها المشاكس والمرح..

في 1 أكتوبر 2012، صدر حكم محكمة التمييز بسجن الدمستاني لمدة 3 سنوات، هو الآن داخل السجن مرة أخرى، لكن حكايته التي رواها لنا حرّة طليقة، وستظل تروي لنا تفاصيل تجربة المعتقل كما عايشها..

الدمستاني قبل 14 فبراير

في 18 مارس/آذار 2010 حُبس الدمستاني7 أيام على ذمة التحقيق. القضية: علاج مصاب بطلقات الشوزن في بيته. المنطقة: كرزكان. التهمة: استغلال الوظيفة والتستر على مصاب متهم بتجمهر غير مرخص. لكن منظمة الإسعافات الطبية في أمريكا، كرمت الدمستاني لإنقاذه حياة مصاب كرزكان.

يعمل مشرفاً للتمريض في مركز شركة ألبا الطبي. آخر شهاداته الرخصة الدولية في مجال الإسعافات الطبية الأولية من منظمة الإسعافات الطبية الأمريكية من (Medic First Aid International)، وهو ثاني من يحصل على هذه الرخصة من الخليج، الأولى رولى الصفار.

شغل منصب رئيس نقابة عمال ألبا (2002 – 2005). وهو مدرب مدربين دولي مرخص من قبل

منظمة الإسعافات الطبية بالولايات المتحدة الأمريكية منذ نوفمبر/تشرين الثاني لعام 2007. درب آلاف المسعفين منذ العام 1991. لا يزال قبل أن يعاد إلى السجن، يواصل التدريب لتنفيذ مشروع "مسعف لكل بيت" وهو أحد مشاريع جمعية التمريض البحرينية وجمعية الهلال الأحمر البحريني الذي بدأ قبل 14 فبراير/شباط 2011.

مفجر الرأس مقيد اليدين..

في 11 فبراير/شباط 2011 نفذ الدمستاني مع علي العكري دورة تدريبية في الإسعافات الأولية في قرية الديه، "استشفينا من خلال حملات الدعوة للثورة ضرورة التدريب على الإسعاف" يقول الدمستاني. ثم بعد تصاعد وتيرة الأحداث واعتصام المحتجين في دوار اللؤلؤة في 1 فبراير/شباط "ارتأيت مكاني الطبيعي هو الخيمة الطبية وكان معي الأطباء علي العكري وصادق العكري. في البدء لم تكن الخيمة مرتبة، ولم تجهز تجهيزا جيدا وكانت تشرف عليها ندى ضيف".

يكمل الدمستاني:"يوم الأربعاء 16 فبراير/شباط ليلاً كنت في الخيمة الطبية، قمنا بالمبيت أنا مع أولادي علي وجعفر، في الساعة 2.30 بدأ تحرك سيارات قوات الأمن حول الدوار، وتمركزها في أماكن معينة عند أسواق المنتزه وكذلك على إطلالة الكوبري. الساعة 3.15 فجرا بدأ الطلق والقصف فتراكضت الناس إلى داخل الخيمة الطبية معتقدين أنها مكان آمن. بدأنا نختنق وليس لدينا كمامات. خرج علي العكري بالروب الطبي الأبيض لم يعتدَ عليه، لكن داخل الخيمة اعتدت قوات الأمن على الطاقم الطبي منهم الممرضة زينب، وتحرشوا بالنساء، ثم انطفأت الكهرباء"

انشغل بالي على ولدي (علي) و(جعفر)، حيث كانا في خيمة قريبة من المنتزه، كنت خائفاً عليهما سيما (علي) لأنه يتعذر إيقاظه من النوم بسهولة. عرفت من جعفر أنه هرب جهة البرهامة واختبأ في أحد المنازل، أما علي فاتجه صوب المنامة ليختبأ في منزل شرطي باكستاني. يا لحظه العاثر، لكنه استطاع أن يفلت من يده هاربا إلى محطة النقل العام الواقعة في طرف شارع الشيخ حمد بالنعيم، جلس مع الآسيويين المنتظرين النقل العام متظاهرا أنه واحد منهم.

بعد عناء شديد أخذت سيارتي متجها إلى مجمع السلمانية الطبي فصادفني رجل مسن عند إشارة القفول الضوئية يريد الذهاب للسلمانية، أخذته في طريقي. في السلمانية ركبنا إحدى سيارات الإسعاف إلى الدوار ثانية. منعتنا قوات الأمن من الاقتراب. كانت الساعة حوالي السابعة. كنا خائفين أن تكون الخيم قد هوت على أطفال أو أو أن يكون هناك مختنقون يحتاجون إلى إنقاذ، عدنا إلى السلمانية.

رأيت بأم عيني الشهيد علي خضير في الطوارىء كان مقيد اليدين وكانت قدمه بجورب وحذاء، والأخرى عارية، ويبدو أنهم لم يمهلوه أن يلبس الفردة الثانية، كبلوه ثم أطلقوا النار عليه، قيل إه كان يحاول حماية عائلته.

يوم قتل ابني (علي)..

13 مارس/آذار، اقتحم البلطجية جامعة البحرين، أعلن ذلك في الدوار. ابني (علي) أخذته الحمية فذهب ورفاقه إلى الجامعة. ذهبتُ بعدهم مع الإسعاف. اعتدى البلطجية على الكوادر الطبية، وقوات الأمن حاصرت الجامعة فاضطررنا الذهاب إلى دوار 17 بمدينة حمد، كان الجرحى ممددين على الأرض.

عدنا إلى البيت أنا وعلي، تناولنا الغداء، بعدها ذهبتُ لمركز السلمانية الطبي وعلي ذهب ثانية إلى الدوار. الساعة 7 مساء وصلني الخبر بأن علي قد تعرض لحادث سيارة. كان ذلك أثناء خروجه هو ورفاقه من الدوار متجهين لقرى البديع للتصدي للبلطجية الذين راحوا يعتدون على قرى الدراز وبني جمرة.

أثناء خروجه بالسيارة وبالقرب من مجمع الدانة فاجأتهم سيارة قادمة أمامهم، فصدمتهم وتركز الاصطدام على جهة علي. وقع الحادث الساعة الخامسة مساء وبلغني الخبر متأخرا ساعتين. ذهبت إلى مستشفى البحرين الدولي، أمسكت عن نفسي عواطف الأب وأطلقت وظيفتي. كان يشكو من نزيف داخلي وإهمال في العلاج، أنبوب الرئة (Tube) غير مثبت بشكل جيد. كان إنعاش القلب الرئوي غير صحيح فساهمتُ بعمل الإنعاش رغم النزيف الحاد الذي أصابه. لم يعطَ قطرة دم.

أخذناه إلى السلمانية فاستقبلنا علي العكري وأشرف عليه، وضعوا عليه الأجهزة لكن فرصة النجاة قد ضاعت في المستشفى الأول، فخلايا الدماغ أتلفها النزيف ولا يمكن إعادتها للوضع الطبيعي، يمكن أن يتحرك القلب بالمنشطة لكن ذلك لا يكفي، لو أخذ مباشرة إلى مستشفى السلمانية لأنقذت حياته.

الدكتور علي العكري خشى علي من الانهيار. رغم أني تعاملت مع حالة ابني وكأنه حالة مصاب يحتاج إلى إسعاف، تعطلت مشاعر الأبوة أو تأجلت لا أعرف كيف حدث لي ذلك. أخذوا جثة علي

بعد تصاعد وتيرة الأحداث واعتصام المحتجين في دوار اللؤلؤة
ارتأيت مكاني الطبيعي هو الخيمة الطبية

إلى المشرحة وأنا تناولت جرعتين من مصل (Haloperidol وValium) أعطاني إياهما العكري أغرقاني في نوم يحميني من الانهيار.

تجربة السجن

اعتقلت من المركز الطبي بمستشفى شركة "ألبا" حيث أعمل، كنت ذاهبا لنوبتي ظهرا، في الساعة الثانية والنصف من يوم الاثنين 4 أبريل/نيسان 2011. منذ أن أركبت السيارة بوغت بهذا السؤال:" كم راتبك؟" أجبت بصراحة: "يفوق الألف دينار". وصلت التحقيقات وأعيد نفس السؤال. هناك توافق عجيب بين الضباط والشرطة على إلقاء هذا السؤال. وقد تم تكراره أمامي طيلة أسبوع، من السجان إلى الشرطي الباكستاني إلى الضابط. هل هذا معقول؟ جميعهم متفقون على إلقاء السؤال نفسه.

منذ أن أركبوني السيارة، وحتى قبل أن نغادر شركة ألبا، جرى تعصيب عيني، كما كبلت يدي خلف ظهري. لديهم أسلوب حقير من أجل الإمعان في الإذلال، تسمع أحدا يوصي بالرأفة بك: "لا أحد يضربه أو يصفعه"؟ لكنني سرعات ما تباغتني رفسة من أحدهم. شعرت أنني واقف في ممر لغاية الساعة الرابعة والربع. أدخلت على الضابط مبارك بن حويل لأنه المسئول عن ملف الكادر الطبي

فواجهني بالتهديد المباشر: "يا الدمستاني خلص نفسك واعترف أحسن لك، خلص نفسك مثل عبد الخالق العريبي".

تأتي دائما الأسماء عارية من لقب الدكتور! ربما أخصائي أمراض الروماتيزم الدكتور العريبي لم يعترف بشيء أصلا لكنه يوهمني أنه فعل كي تصيبني عدوى الانهزام. قبل أن أرد وزنت كلامي وركزت انتقاداتي على وزير الصحة، التي لا يريدونها على أية حال، مرّرت بين الكلام إشارات إدانة، قلت: "لدينا خلافات قديمة بين وزير الصحة وجمعية التمريض البحرينية منذ أيام مطلب الجمعية بتطوير الكادر التمريضي. وصلت الخلافات إلى المحكمة". ثم عرجت على القضية الأم: " صارت اعتداءات على الطواقم الطبية ووزير الصحة لم يأخذ قرارا، ولم يحرك ساكنا لا في المسئولية القانونية ولا حتى في المسئولية الأدبية، كما أن سيارات الإسعاف تم منعها من قبل وزارة الداخلية".

انزعج بن حويل وصرخ: "روح عدل كلامك". حين أرجعوني إليه مرة ثانية، قلت : "خرجنا في مسيرة ضد وزير الصحة بسبب منع الإسعافات". قال: "ما زلت تكابر بعد ثلاثة أيام، غصبا عنك ستعترف".

أخذت إلى غرفة التعذيب. شعرت أنني أقف في مكان أشبه بمخزن أخشاب أو شيء من ذلك، فيما انهار السُباب والنعت التحقيري علي: "خونة، روافض، متآمرون، أذناب إيران، مجوس، أولاد المتعة". كان معي استشاري جراحة العظام الدكتور علي العكري الذي سمعت صراخه من الألم، كذلك أخصائي جراحة العظام الدكتور محمود أصغر، والشهيد علي صقر. هناك لم يفعلوا بي شيئا لكنهم أسمَعوني صراخ المعذَبين. ثم جاءت نورة آل خليفة أيضا وتلفظت علينا بكلام بذيء. ظللنا واقفين، جاءني شرطي يمني زيدي طيب القلب، متفهم لما يجري لنا سألني: "أكنتَ في المستشفى؟ الله يسهل عليكم". أتى بكرسي وأجلسني عليه".

هناك جميع الجلادين بحرينيون، جاءهم بن حويل وأمرهم أن يلصقوا أوراقا على ظهورنا مكتوبا عليها إهانات وتشبيهات بالحيوانات، مثل : "الدكتور الفلاني حمار وغيرها".

هكذا انتزعت اعترافاتنا

كانت الغاية من التعذيب تركيعنا وجعلنا نعترف أن لدينا أسلحة، أو القول إن الدكتور الفلاني كبّر الجرح، أو أن اختصاصي جراحة العيون والشبكية الدكتور سعيد السماهيجي قام بقلع عين جريح،

أو أننا أخذنا مصابين باكستانيين كرهائن، وما إلى ذلك من ترهات وخزعبلات.

كان يتم إبقاؤنا في حالة وقوف متواصل، فرصتنا الوحيدة في الجلوس هي وقت الوجبة، حيث ترفع العصابة قليلا لغاية الصحن الذي نأكل منه، وليس مسموحا لنا أداء الصلاة. كنا نحتاج الحمام بشدة ونحصل عليه بمذلة. كنت في مكان التعذيب مع أربعة أطباء، شعرت أن المكان أشبه بغرفة صغيرة فيما كان التعذيب ينهال علينا بالدور، أنا مع الدكتور محمود أصغر، الدكتور علي العكري، والشهيد علي صقر مع آخرين صاروا معنا لاحقا في سجن الحوض الجاف.

استمر حالنا ثلاثة أيام ثم نقلنا إلى مكان أكبر أشبه بالصالة، كنا خليطا مهاناً من المعذَبين، معنا استشاري أطفال حديثي الولادة والخدج الدكتور نادر ديواني، ورئيس مكتب المراجعة الطبية للمراكز الصحية الدكتور أحمد العمران وسائق الإسعاف أمير الهملي، إضافة إلى جماعة "العرين" الذين اتهموا بالذهاب إلى جامعة البحرين في 13 مارس/آذار، فاعتقلوا من محمية "العرين" مقر عملهم.

عادة ما يبدأ التنكيل من الساعة 6 صباحا إلى الساعة 6 مساء، لكن أقسى التعذيب يبدأ حين يدخل منتصف الليل، وتبدأ السهرة علينا. كانت متعتهم تتوفز في الليل، غايتهم أن يخمدوا فينا نار الصمود الوقادة، ويتركونا أجسادا منكسرة خائرة ومفرغة من مشاعر العزة والكرامة، هذا هدفهم. يمارسون حقدا كان مضمرا في قمقم، ثم وجد الفرصة السانحة كي ينهض في وجوهنا كوحش كاسر ناشرا شره وبشاعته. حين يسألونك: "كم راتبك؟" كي يقارنوا بينك وبينهم، بين من يدعون أنهم حماة الوطن والملك الذين يتقاضون رواتب شحيحة، وبين أعداء النظام المترفين برواتب لا يستحقونها، لأنهم ينظرون إليها كأعطيات ومكرمات، لا جزاء عمل وخبره وعلم وسهر مكلل بشهادات أكاديمية عليا.

لقد أراد النظام بذلك أن يكرس لديهم الفرق في الرواتب لا المرتبات، ليتحول ذلك الفرق إلى حقد يغلي في صدورهم ومن ثم يجرعونا إياه، كي لا تأخذهم بنا رحمة أو طرفة ندم.

يتلذذون بإهاناتنا الشخصية، بإهانات طائفية مهينة في حق الأئمة من آل البيت. كأن يقول لك أحدهم "خل المهدي يخلصكم ألحين". إلى ما إلى غير ذلك من استهزاء مستميت بالكادر ومنزلته. كانوا يريدون سحق مكانة الكادر الطبي وفق عقليتهم المريضة، معتقدين أنهم بالطريقة المهينة قادرون على هدم المنزلة والمنازل، منازل العلم وصروح الطب التي رفعها هؤلاء الأطباء

الأذكياء الأكفاء. لذلك يكرهوننا على عمل تهريجات مخجلة، بتقليد أصوات الحيوانات، تأدية رقصات خليعة، إجبارنا على شتم الشيخ عيسى قاسم، الأستاذ حسن مشيمع، والشيخ علي سلمان، أو أية شخصية دينية أو سياسية محل تقديس أو توقير.

وأهون الإذلال هو طلب ترديد النشيد الملكي، لكن أغلبنا لا يحفظه، ومن يحفظه وينشده يحصل على مكافأة جلوس 5 أو 10 دقائق تنتهي بزجرة : "قوم". تلك محنة وقعنا فيها، كيف لنا الانعتاق منها!

مستشفى القلعة

أشرقت شمس اليوم السابع وما زلنا وقوفا بدون استحمام، بدون نوم، بدون اتصال بالمحامي. طلبونا إلى التحقيق مرة ثانية، من أجل زيادة جرعات التعذيب والترهيب. يأتي الضرب بقبضات اليد على الظهر ويتواصل بالصعق الكهربائي على الأذنين، ضرب الركب والأرجل بالكابلات، يختارون أماكن حساسة وموجعة، حتى يسيل دمي على جلد مزرق ومنتفخ، فلا أستطيع أن أطأ على الأرض لتأثر العصب الذي يغذي الرجل. ضربت على عظمة العجز (coccyx bone)، فانكسرت وانفصلت لكثرة الرفسات والركلات المركزة عليها. كنت في ردة فعل الألم أجمع جدعي ويديّ للأمام فيبرز ظهري فيمعنوا في إصابة المكان.

لم أحتمل شدة الألم، لم تقوَ رجلاي أن تحملاني فسقطت أرضا. طلبت الذهاب إلى المستشفى فلم يكترثوا، لأن ذلك يعتبرونه تظاهرا بالألم وهروبا من التعذيب، فتظاهرت بشيء آخر، بضيق التنفس، افتعلت حركات اختناق فأخذت لمستشفى القلعة. في الطريق صافح جسدي سطوع الشمس وحرير دفئها اللذيذ، أتزود منها وأستنجدها أن تأخذني تحت كنف ضوئها على الدوام.

في عيادة القلعة، كان هناك شخص بحريني أقل ما يمكن وصفه به، هو اللؤم، حتى إنه يلقب بـ "شارون" لبشاعة خُلُقه. رافقني من التحقيقات إلى مستشفى القلعة، لم يسمح لي بالاستلقاء على ظهري، يتدخل حتى في مهام الأطباء، أخذوا لي أشعة لكن لم يشخص الطبيب حالتي ولم يعطني أدوية أو أي شيء. لكن أشفق علي شخص "سلفي" كان مرافقا لشارون، أتاني بأقراص (Voltaren) المسكنة من بيته.

سيد الإرهاب

كنا معصوبي الأعين، يقودونا كالعميان بإرشادات معنفة: "امش .. أمامك عتبة". أو يجروننا جراً

قائلين "اركض" ولكن لياقتي الجسدية تخونني فلا أقوى على الركض. أخذت لمكتب الضابط بن حويل. عرفته من خلال التبجيل والتوقير الذي لا يوصف، من طغيانه الطافح، وتعرفت على شكله لاحقا في محكمة السلامة الوطنية عندما جاء بصفة شاهد إثبات علينا. إنه سيد الإرهاب والقابض على كل الفظاعات والانتهاكات، صاحب اليد الطولى في الإجرام، يد من حديد يطلقها على رقاب العباد. ونحن تحت عتمة العصابة حيث البصر معطل، والبصيرة تائهة، والحواس مرتبك، والإحساس مهان فما الذي بقي من الكرامة تحت أيدي بشر منزوعي الإنسانية والضمير؟ كأنهم جبلوا على هذه الأخلاق، كأن هذا النوع من الخلق أقنعة يلبسونها لهذه المهام الآنية؟ يمررونا على طابور من الجلادين لنأخذ نصيبنا، بين ضارب وصافع وشاتم.

كنا نحرك أصابع اليدين لأن الرسغين يئنان تحت رزح القيد، فكلما حركنا الأصابع بطريقة قبضها وفتحها فذلك يزيد من حركة الدورة الدموية ويخف الألم قليلا. كما كنا نستعين بالأدعية. الدعاء يشعرنا بقوة الله وبعدالته. تشعر كأن أحدا يمسح على قلبك الموجوع فيمنحك ذلك الصبر.

بعد هذا الإرهاق المتواصل تضطر إلى أن تستسلم فكاكا من هذا الهلاك، فتقول الذي يجبرونك عليه. حسبتُ الأمر في الأخير "أنا ليش أعور راسي" فليسمعوا ما يريدونه، في النهاية لن يستفيدوا منه قانونيا بسبب غياب المحامي، فهناك محكمة وكل ما قلته قابل للإنكار طالما خرج تحت لهيب سياطهم.

صراخ المعذَّبين

بعد جولة التعذيب بصحبة بن حويل تم أخذنا إلى محقق آخر لم نستطع التعرف على اسمه. مهمته أن يسمِّعنا صراخ الكادر الطبي تحت التعذيب. أسمع صراخ رئيسة برنامج تمريض الطوارىء رولا الصفار الصامدة. أقاطعه: "كيف يكون صمودها في هذه الحال؟"، فيقول: "كانت تتلوى من الضرب لكنها لا تعطي إجابات، تتكرها بالقول: لا أدري .. لم أسمع بذلك .. إلخ". بعد كل جرعة تعذيب تتم إعادتنا إلى بن حويل لاختبار مدى صبرنا وصمودنا.

جلست معه ثلاث أو أربع مرات، وكان يقف على رأسي شخص من أشد المعذبين، جلافة، مهمته أن يباغتني بضربة ثقيلة على الرقبة عقابا على إجابة لم تعجبه، ثم يمضي مهدداً: "بجيك ضربة ثانية إذا حاولت الكذب مرة ثانية". يتواصل الضرب كلما جاءت الإجابات غير التي ينتظرون. فاضطررت إلى القول: "رأيت أسلحة في سيارات الإسعاف عرضها تلفزيون البحرين، وتلفزيون البحرين لا يكذب!". وأيضا في قسم الطوارىء، قلت "تم وضع جهاز لاسلكي موصل بالسفارة

الإيرانية، ورأيت رولى الصفار تسكب أكياس الدم على الجرحى، كل ذلك بقصد إثارة الرأي العام من أجل إسقاط النظام".

هذه الاعترافات الباطلة وغيرها السابقة أثناء التعذيب التي أرغمت عليها جاءت في 40 ورقة طلبوا مني توقيعها.

في اليوم الثامن من الاعتقال وضعوا تحت يدي الاعترافات والإفادات ورفعوا العصابة قليلا بحيث تسمح لي برؤية مكان التوقيع فقط من أجل إرسالها إلى النيابة العسكرية. وبالمناسبة إن مكاتب النيابة العسكرية والتحقيقات الجنائية قريبة من بعضها البعض. لاحقا بعد أن استقرينا في السجن أيضا أخذونا للتحقيقات أربع مرات للتوقيع على اعترافاتنا المعدلة، في كل مرة يعدلونها بحيث تتطابق فيما بيننا، وكيفما رُسمت لنا، فلا نتردد في التوقيع طالما التحقيق في الأساس باطل.

في النيابة العسكرية كنت أسمع صراخ الدكتورة رولى الصفار والدكتور محمود أصغر والدكتور علي العكري. وكان المحققون يقولون لي "سامعهم؟ تبي مثلهم؟". لا أعرف هل صراخهم الذي يفطر القلب يعزي نفسي المبتلاة مثلهم، أم أنه يزيد من لوعتي عليّ وعليهم! في هذا الوقت وبعد أن أمضني الإرهاق والإنهاك ليس ثمة مجال للتفكير الصحيح أو تدارك الأمر كأن تغير إفادتك. تأتيك فرصة صغيرة لالتقاط الأنفاس حين يتم السماح لك بالجلوس. سألني أحدهم: "هل تريد ماءً أو سيجارة؟"، وفعلا يتم إحضار الماء لك، وحتى السيجارة في حال كنت مدخنا من أجل أن تعيد الاعتراف نفسه. وليس ذلك إلا خدعة توحي بنهاية العذاب. ذلك أن الجلادين مازالوا ينتظروننا في قاعة التعذيب.

لاتقربوا القفل.. إنه كاميرا

حين دخلت زنزانة «7» رأيت الشباب لكني لم أميزهم جيدا، حيث للتو رفعت عنا عصابات الأعين فتأثر النظر بذلك سلبا. لم أتعرف بسرعة إلى استشاري جراحة العظام الدكتور باسم ضيف لذلك السبب، وبسبب آخر أيضا أنه كان أصلع الرأس. كان مستلقيا منهكاً من التعذيب والجميع كذلك، الممرض إبراهيم الدمستاني الـ (Duplicate)، وأيضاً محمود القطري وعماد العصفور، وهما من نشطاء المواقع الإليكترونية. كانوا كلهم من شدة الإنهاك والأوجاع والقيح غير قادرين حتى على الوقوف للسلام والمصافحة، لذا راحوا يستعيضون عن ذلك بالإشارة.

لكن الكتور ضيف تأثر نظره أكثر منا، خصوصا وأنه من لابسي النظارات الطبية، فكان يحذر

شركاءه في الزنزانة من تجاوزات الحديث خشية تصويرهم من خلال كاميرا مثبته في الباب. كان يقول لهم:»لا تكلموني، لا تجون صوبي فيه كاميرات مراقبة»، كان يهيأ له أن قفل الباب هو كاميرا. هكذا كان الحال.

نظرا لإصابتي، فقد أخذت إلى عيادة سجن الحوض الجاف، وكنت مصمد العين، فضلا عن تكبيل يديّ. كان يفترض وأنا مع الطبيب أن تهطل علي الرحمة، ألست في حضرة ملائكة الرحمة! لكن رجال المخابرات الذين عادة ما يرافقوننا في هذا النوع من المشاوير يمنعون الأطباء من ذلك، بل يتم تكريمنا بالإهانات والضرب. في اليوم الثاني من ذهابي إلى سجن الحوض الجاف جاء ضابط بلباس مدني وأمر بأخذي للمستشفى، وترك لي الخيار في الذهاب إلى المستشفى العسكري أو مستشفى القلعة، لكنني فضلت الأخير لأنني عرفت المكان وفيه الدواء متوفر.

جغرافية السجن

يقع سجن الحوض الجاف في فضاء مفتوح، وهو ذو مرافق متعددة. بعد البوابة الرئيسة، تسير بك السيارة في شارع داخلي مسافة نصف كيلومتر تقريبا، فترى على يسارك كبائن متفرقة مخصصة للزيارات، تليها عنابر جديدة متركزة في الزاوية. يليها على جهة اليمين تقع ستة عنابر مملوءة بالنزلاء. عنبر 1 لسجناء قضايا الهجرة والجوازات. عنبر 2 لسجناء المخدرات. عنبر 3 لسجناء المراكز من السياسيين، أي القادمين من مراكز الشرطة. عنبر 4 ينزل فيه سجناء المراكز غير السياسيين والمحولين أيضا من مراكز الشرطة. العنبر 5 الذي جرى إنزالنا فيه أولا. ثم العنبر رقم 6 الذي قضينا فيه بقية المدة. وهذان العنبران الأخيران خصصا لنزلاء التحقيقات الجنائية.

على الجهة اليسرى من الشارع في قبال العنابر الستة تقع عيادة السجن. والعيادة هي الأقرب لواجهة العنبر 5 فيما تمتد مظلات من طرف سقفي عنبر 5 و6 إلى طرف سقف العيادة. أمام واجهة العيادة من جهة أخرى يقع الملعب، حيث يسمح لسجناء العنابر بالتجول فيه، في أثناء استراحات النزلاء بمدد متفاوتة. وإذا تجولت في الملعب بحيث يكون خلفك العنابر الستة ترى أمامك خمسة عنابر أخرى ينزل في بعضها سجناء أمن الدولة كالذي جرى فيه إنزال أمين عام جمعية العمل الإسلامي «أمل» الشيخ محمد علي المحفوظ وبقية نشطاء الجمعية، وذلك قبل أن يحاكموا ويتم نقلهم إلى سجن جو. ثم هناك عنبر آخر لسجناء الشرطة العسكرية.

عنبر رقم 5 ولياليه

ما إن تدخل إلى العنبر 5 حتى تستقبلك بوابة بها فتحة صغيرة للاستئذان كفتحة محلات الصيدلة

عادة ما تستخدم للكلام وتوجيه الأوامر. حين تدخل البهو ترى على جهة اليمين غرفة تسمى غرفة الحلاقة، في الزاوية اليمنى من الغرفة طاولة وأمامها مرآة وكرسي للنزيل المراد حلق شعره، ويتم حلق الشعر مرة واحدة أسبوعيا. ويحاذي الطاولة من جهة الجدار كرسي طويل يسع 3 أشخاص وترتفع فوقه رفوف ممتلئة بنسخ من القرآن الكريم. مقابل الباب تقريبا يقفُ فرن عالٍ متعدد الطوابق للتسخين والخَبز، وفي الزاوية اليسرى تقع الثلاجة.

على جهة اليسار من البهو يقع مكتب الشرطة، تدخله فترى أمامك الشرطي المناوب جالسا أمام طاولته. على يساره ترتفع رفوف عادة ما تستخدم لوضع عليها الهواتف النقالة (المغلقة) خشية تصوير شيء ما هناك. في الزاوية اليسرى من جهة الباب تقع الثلاجة وفي الزاوية الأخرى التي تقابلها يقع باب الحمام. ثم تأتي البوابة الرئيسة ذات القضبان الحديدية التي تفضي إلى داخل العنبر. يأخذك منظر القضبان الحديدية إلى ممر ضيق عرضه 5X6 قدم تقريبا.

توجد في العنبر سبع زنازن تبدأ أرقامها من اليسار إلى اليمين بشكل متعرج (Zigzag)، فجاءت الأرقام الفردية يسارا، والأرقام الزوجية يمينا.

أبواب الزنزانات مؤلفة من قضبان حديدية كأقفاص الحيوانات، لكنها رحبة قليلا. ورغم أن تلك الأبواب غير متقابلة تماما إلا أنها تسمح برؤية بعضنا البعض من خلالها كما تكشف حركة الممر. استثناء الزنزانتين 6 و 7 حيث لبابيهما نافذتان صغيرتان بسبب التصاقهما بدورات المياه. هاتان الزنزانتان تقعان في نهاية العنبر، تليهما من جهة اليمين حمامات الاستحمام، ومن جهة اليسار حمامات المراحيض. وكلها مراحيض عربية ماعدا حماماً واحداً انجليزياً مخصص لمرضى الظهر.

بعد الحمامات، أي في الزاويتين تمتد أحواض المغاسل. يقطع الأحواض باب أخير يفضي إلى الخارج حيث ساحة مظللة تمتد بها الظلال إلى خلف العنبر 6 أيضا. في هذه المساحة المظللة خلف العنبرين شُدت حبال لنشر الثياب، كما خصصت للتدخين.

في هذا العنبر تحديداً توزعنا نحن الأطباء في زنزاناته السبع، كل عشرة أشخاص في زنزانة واحدة. يمكن تقدير مساحة الزنزانة بحوالي 3x4 متر مربع. حين تدخل الزنزانة من الباب الذي عادة ما يكون في الوسط، ينتصب على اليمين سريران، وعلى الجهة اليسرى ثلاثة أسرّة. وجميع الأسرّة من فئة الطابقين بحيث يسع المكان عشرة نزلاء. كنا ننام على فرش تبسط على الأرض، لكن الفرش تغيرت بحيث تم جعلها ترتفع عن الأرض بعد التحسينات التي أجريت عقب تقرير بسيوني.

أعلى الجدار يوجد مكيف هواء، وفي أقصى اليسار نافذة صغيرة ذات قضبان يرشح منها الضوء أو الهواء المحمّل أحيانا بأصوات الطيور، وكذلك صوت الأذان. الشيء الغريب أن صوت الأذان لم يكن يريحني، كان المؤذن يشعرني أنه لا يختلف عن السجّان. فكل شيء صادر عن إدارة السجن لا ترحب به نفسي ولا تستسيغه، وذلك من جهتي على الأقل.

نزلنا في تلك الزنازين السبعة حسب التوزيع التالي:

زنزانة 1: الدكتور علي العكري، مجموعة من نشطاء الـ(IT) وعدد من مجموعة العرين، إضافة إلى آخرين من قضايا أخرى.

زنزانة 2: استشاري جراحة التجميل الدكتور عبد الشهيد فضل والطبيب المقيم الدكتورعبدالله الدرازي ومسئول الإسعافات سيد مرهون الوداعي وسائق الإسعاف عبد الحسين الغنـّامي، إضافة إلى عدد من مجموعة العرين أيضاً وآخرين.

زنزانة 3: استشاريا جراحة الفك والفم الدكتور عارف رجب والدكتور غسان ضيف والدكتور عبد الخالق العريبي وطبيب العائلة الدكتور أحمد عمران ومعهم بعض سواق الإسعاف.

زنزانة 4: الدكتور سعيد السماهيجي ومدير مستشفى المحرق للولادة يونس عاشوري، مع بعض من مجموعة العرين.

زنزانة 5: الدكتور نادر ديواني والصيدلاني علي جعفر مع بعض من مجموعة العرين. إضافة إلى هاني أبو عباس وهو مصمم موقع إليكتروني باسم المنار اختص بأخبار حزب الله والسيد حسن نصر الله مما أوحى للنيابة أنه مرتبط بحزب الله.

زنزانة 6: الدكتور باسم ضيف والدكتور محمود أصغر واستشاري جراحة المخ والأعصاب الدكتور نبيل حميد، إضافة إلى مجموعة من سواق الإسعاف، ومجموعة نشطاء المنتديات الإلكترونية، وآخرين بقضايا أخرى.

زنزانة رقم 7: وضعت فيها شخصياً مع إبراهيم الدمستاني الـ(Duplicate) والدكتور باسم ضيف الذي نقل فيما بعد إلى الزنزانة 6. وكان معنا أيضاً سائقا الإسعاف أمير الهملي وحسين الصايغ ومساعد ممرض حمزة الجمري. ثم التحق معنا فيما بعد الدكتور صادق عبدالله والدكتور صادق جعفر، والاستشاري رئيس قسم العناية المركزة الدكتور حسن التوبلاني، إضافة إلى عماد العصفور رئيس شركة لتصميم موقع بوابة البحرين الإلكترونية، ومحمود القطري وهو شاب في الثانوية له اهتمامات بتنظيم وبيع مساحات لمواقع الكترونية بشكل غير رسمي.

إفراجات وإعادة توزيع

بعد انتهاء السلامة الوطنية، والإفراج عن متهمي الجنح من الكادر الطبي في 28 يونيو/حزيران وكذلك الإفراج عن سجناء آخرين تم نقلنا إلى العنبر 6. نقص عدد الكادر الطبي من 28 تقريبا إلى 11 شخصاً فقط. وضعونا في زنزانتين. هندسة هذا العنبر تختلف قليلا عن الآخر الذي أقمنا فيه بادىء ذي بدء، فهناك كانت الأبواب عبارة عن قضبان حديدية، لكن هنا الأبواب عادية وبها نافذة صغيرة مساحتها 6x10 بوصة. لكل زنزانة حمام خاص بها، وأضيف إليه في التحسينات «البسيونية» صنبور ماء بارد للشرب.

ثم بعد ذلك أخذت أنا والدكتور علي العكري والدكتور نادر ديواني والصيدلاني علي جعفر إلى الزنزانة رقم 1. ومعنا كان مصطفى من مجموعة العرين، وجعفر النكّال المتهم بمساعدة زوج أخته في طلب رافعة لسيارته في يوم الهجوم على سترة، ولاحقا انضم إلينا يونس عاشوري (قبل أن يحاكم وينقل إلى سجن جو). وكان هذا الأخير في زنزانة 3 لكنه اختنق من المكتئبين فيها فهرب عنهم من أجل معنويات أفضل، كما قال لنا.

أما زنزانة رقم 2، فقد ضمت كلا من : الدكتور حسن التوبلاني والدكتور باسم ضيف والدكتور غسان ضيف والدكتور محمود أصغر والدكتور عبد الخالق العريبي والدكتور أحمد عمران وورئيس الإسعاف سيد مرهون وسيد هادي المتهم باستخدام سيارته الخاصة في نقل المصابين.

ونزل الدكتور سعيد السماهيجي في الزنزانة رقم 3 مع سجناء آخرين، ثم فرغت في الأيام الأخيرة من شهر رمضان وخصصت للتلفزيون. وفيها تمت لقاءات السيد بسيوني. فيما وتوزع بقية السجناء في الزنازن السبعة. وقد اكتشفنا، لكن متأخراً نوعاً ما، أن هذا العنبر كان مخصصاً للسجينات المحكومات. عرفنا ذلك من خلال بعض المتعلقات النسائية التي تركنها هناك.

مركز الإعلام في الزنزانة 7

كنت مع د. صادق عبدالله وآخرين في الزنزانة 7 نمثل مصدرًا للخبر في العنبر. كنا نلتقط الأخبار من هنا وهناك، تسريبات من العنابر الثانية، ومن ترددات الكثيرة على المستشفى للعلاج، نجمعها ثم نصوغها بشكل إيجابي لرفع المعنويات المتهالكة عند عموم السجناء. سمعنا عن وفاة الشيخة موزة، والدة رئيس الوزراء وجدة الملك، نقل لنا هذا الخبر أحد المترددين على العيادة من معتقلي المراكز، أشعت الخبر من خلال نافذة الزنزانة الصغيرة: "اسمعوا يا شباب.. في عزاء جدة الملك، استقبل الملك الشيخ علي سلمان بالأحضان، هناك بصيص أمل إذًا".

كنا نحاول خلق جو من المرح يخفف الهم الجاثم على الصدور. أحيانًا أصرخ وأنا خارج من زنزانتي: " اللهم أدخل على أهل السجون السرور"، فأسمع الزجرات من الشرطة : "دمستاني لا تتكلم"، فأجيبه بدعابة: " هذا الدعاء أوصتني أمي بقراءته كي أخرج من السجن". نضحك. ذات مرة تجرأت في ممر العنبر قائلًا: "منصورين والناصر الله". كان الكلام ممنوعًا نعاقب عليه بتنظيف مكان أو عمل شيء آخر.

المحكمة العسكرية

أخبرونا مساء الأحد ليلة الإثنين، الموافق 5 يونيو/ حزيران، أن استعدوا غدًا بعد صلاة الصبح. نستعد لماذا؟ إلى أين؟ لا نعلم. الخبر الناقص الغامض جعلنا أسرى في مهب الأفكار المتضاربة بين الإيجابية والسلبية. هذا الغموض لم يُرحني لكن البعض وضع له تصورات إيجابية، خصوصًا د. سعيد السماهيجي وغسان ضيف وصادق عبدالله، أن (يا جماعة) تفاءلوا بالفرج، غدًا الإفراج والخلاص.

تلك الليلة لم ينم السجناء، الفرحون منهم والقلقون. بدأ استعدادنا، بعضنا بالاستحمام، بعضنا بإعداد لباسه وغيره. بعد صلاة الصبح خرجنا من زنازيننا. جاءونا في العنبر كي يتأكدوا من قوائم الأسماء، بعدها فصلونا إلى مجموعتين، هنا بدأت أتشاءم، صدق حدسي حين بدأوا يضربوننا، وازداد ضيقي عندما سمعت صوت الأصفاد وهي تطوق أيدينا. دفعونا بقوة فصدم د. عبدالله الدرازي بباب الباص فجرح أنفه ونزف.

وزعونا في باصين أو ثلاثة إلى مركز إيواء المساجين بأسري لتناول الفطور. هناك وضعونا جميعًا، أصحاب الجنح والجنايات، في غرفة صغيرة، وما زال كل واحد منا يتخيل مصيره الذي يمليه عليه إحساسه. لكن د. صادق عبدالله ما فتئ يقاوم اليأس ويطمئن الآخرين كي يرفع المعنويات. أسماه السجناء بـ "الأب الروحي" لأنه دائمًا يرسم سيناريوهات إيجابية ويجعلهم يصدقونه. ربما لأن مظلوميتنا الاستثنائية جعلته يفكر كذلك فلا يكف عن التخمينات المبهجة. لكن هل سيصدقونه بعد أن صمدوا أعيننا قبل أن نركب حافلتين كوستر؟

في الطريق بدأنا نفكر ونخمن إلى أين المسير؟ هل وجهتنا إلى سجن القرين أم إلى السعودية؟ أم إلى أين؟ الدرب كان طويلًا والهم أطول، والعسكريون يغرقوننا في الغموض. وصلنا.. عرفتُ أننا في المحكمة العسكرية لأني رأيت من خلال العصابة أحذية قوة الدفاع.

بدأوا بمناداتنا. جاء اسم: علي عيسى منصور.. أجاب. عندما انتهوا من الأسماء سألوا: "وين العكري؟" فأعاد الإجابة : نعم، لم يميزوا الاسم بدون اللقب. مجرد أن عرفوه أمطروه بالإهانات: "يا العكري عكّرت جو البحرين".

أوقفونا لمدة طويلة في الشمس خارج قاعة المحكمة. كنت أتخيل منظرنا وهم يقودوننا مع صوت السلاسل كأننا مقطع من فيلم هوليوودي. أدخلونا قاعة المحكمة، وعندما رفعوا عنا العصابات رأينا نساء الكادر الطبي المحاكمات بقضايا الجنح والجنايات. في القاعة كان موجودًا السيد بوسنر، مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشئون حقوق الإنسان، فرآنا والتعب والإرهاق باديان علينا من جراء الوقوف في الشمس خارج قاعة المحكمة، ورأى هندامنا المزري، أثار استياءه واستياء القاضي أيضًا، الذي أمر بألا يرانا على هذه الحال في المحاكمات القادمة.

تلى القاضي جملة الاتهامات. كأنها تتلى ضد عصابة مسلحة: احتلال المستشفى، الترويج لقلب النظام، حيازة أسلحة بدون ترخيص، الاستيلاء على المعدات الطبية. ثم قدم المحامون طلبا بلقاء موكليهم فوافق القاضي، وقررت هيئة المحكمة تأجيل الجلسة لأسبوع، حتى لقاء المحامين بموكليهم، وأيضًا لحين استكمال إجراءات تعتبر بَدَهِيَة ومن صميم أدبيات المحاكمات والمرافعات.

كانت أجواء المحكمة رهيبة ومهينة ختمت بلقاءات الأهالي. التقيت بالأهل باسمًا مستبشرًا كي أطمئنهم. وهنا ميّزت رولى الصفار التي هالني شيبها ونحولها، شعرت بأسى تجاهها، لقد كبرت سنينا دفعة واحدة.

بعد عودتنا من المحكمة سقط الغالبية في وجوم وإحباط شديدين. محمود أصغر وأحمد عمران وقعا في صدمة نفسية. غسان ضيف أصيب بتذمر نفسي. حسن التوبلاني سقط في اكتئاب ملحوظ، كان يصمت كثيرًا، ويأكل قليلًا. لم تكن للتوبلاني تصريحات أو مشاركات في المسيرات والدوار، كان يرى دوره في رعاية الجرحى بقسمه في العناية المركزة، حاول إنقاذ حياة الشهيد علي المؤمن. فكان جزاؤه الجناية. بادرتُ مع د. صادق عبدالله لمساعدته، خاطبنا المسؤول، ناشدناه، فسمح له، كحالة استثنائية، بالتشمس مدة ساعة واحدة يوميًا.

العبادة والصفاء الروحي..

يمنح السجن فرصة الاختلاء والتأمل والعبادة. غالبية السجناء صار يؤدي صلاة الليل ويداوم

عليها.. توزعت الأدوار بين رفقاء الزنزانة الواحدة. اهتم الدكتور صادق جعفر بتدريسنا تجويد القرآن. استثمرنا الوقت في ختم القرآن كل ثلاثة أيام بمشاركة عشرة أشخاص، بحيث كل شخص يقرأ جزءًا واحدًا في اليوم ونُهدي ثواب الختمة إلى جميع الشهداء، سنّها الدكتور نادر ديواني وأشرف عليها.

صار لدينا درس ديني في شرح المسائل الفقهية يختص به الصيدلاني علي جعفر، وهو أيضًا من يؤم بنا صلاة الجماعة، وبعد الإفراج عنه ناب عنه ديواني. أما علي العكري فتخصص في شرح قصص الأنبياء.

ذات جمعة طلبنا من الدكتور باسم ضيف أن يصلي بنا جماعة صلاة جعفر الطيار، وهي من الصلوات الطويلة المعروفة، جلسنا نؤديها بإمامة باسم الذي كان يحفظها كاملة. كنا 8 أشخاص في الأثناء دخل شرطي باكستاني سيء المعاملة وهو أحد مسؤولي العنابر، رآنا نصلي فمضى، ثم عاد ثانيةً وما زلنا في الصلاة فانزعج، لأن الصلاة الجماعية في السجن تعتبر نوعًا من التجمهر غير المسموح، أمر بنقل ضيف إلى زنزانة أخرى وأتوا بصادق عبدالله مكانه.

في 13 يونيو/حزيران، قبل موعد المحاكمة الثانية، وقبل المشوار، جاءنا الشرطي السيء المعاملة علي زيد، ليتفقد لباسنا ويتأكد أنه لائق ولن يثير استياء القاضي مرة أخرى. في هذه الجلسة حضر الضابط سيء الصيت مبارك بن حويل ضمن شهود الإثبات. وكانت أطرف كذباته التي تورط فيها عندما اتهم العكري بحيازة الأسلحة، مدعيًا أن المتهم الأول علي الصددي هو من اعترف عليه، في حين أن الصددي لم يقبض عليه حتى الآن ولم يحقق معه.

بداية التحسينات..

بعد الجلسة الثانية تحسنت ظروف السجن بأدوات الحمام الجديدة مثل توفير نوعية جيدة من صابون الاستحمام، كما وفروا لنا أكواب شاي(Mugs). سمحوا لنا بقراءة القرآن الكريم من خلال نسخ القرآن المركونة في غرفة الحلاقة، ثم شيئًا فشيئًا سُمح لنا بالكتب الدينية وكتب الأدعية. وسمحت لنا تلك الانفراجات فيما بعد بالتحادث مع الشرطة والحراس.

في أواخر يوليو/تموز سمحت لنا إدارة السجن بالتجول في الملعب في استراحة نصف ساعة بواقع مرة في الأسبوع، كما سمح بالتدخين في ساحة منشرة الثياب، بحيث يسمح لنزلاء الزنزانة الواحدة بارتيادها مدة ربع ساعة، أي كل مجموعة على انفراد، وذلك بواقع يوم ويوم.

أيضًا، صار السجن يوفر لنا وجبات مميزة، ففي يوم الأحد صالونة دجاج، وفي يوم الثلاثاء برياني دجاج، وفطور الأربعاء بلاليط (شعيرية) بالبيض المقلي.

السجناء تفننوا في ابتكار المتعة لأنفسهم، خصوصًا بعد انتهاء فترة (السلامة الوطنية)، البعض صنع أحرازًا فنية جميلة وشيش التدخين، مستخدمين المتوفر من بين أدوات مهملة، مثل قناني المياه الفارغة وعلب بلاستك اللبن الرائب وغيرها.

كما حرصنا على مزاولة الرياضة البدنية مدة نصف ساعة يوميًا، كنت أتولى قيادتهم في الزنزانة بينما يقوم رئيس الإسعاف سيد مرهون بقيادتهم في ساحة منشرات الثياب، كما نتسلى بألعاب ترفيهية مثل لعبة "بدون كلام" المعروفة بـ (Charades) .

مرض السماهيجي..

دخل الدكتور السماهيجي في حالة عصبية مع أحد الضباط الذي تعمّد الاستفزاز. قبلها كان يشعر بزغللة في العين، وآلام في الرأس مع استفراغ. لم يتمكن أطباء العيادة الطبية من تشخيص مرضه رغم امتلاكهم المعدات والأجهزة! الدكتور التوبلاني، (رفيق الزنزانة (حينها، (ورئيس قسم العناية القصوى (قبلها، عمل فحصًا إكلينيكيًا في العين للسماهيجي. تبين أن بؤبؤ العين متضيق وثابت في تضيقه، في حين أن بؤبؤ العين الطبيعية يضيق في حال الضوء ويتوسع في العتمة. استنتج من ذلك أن هناك نزيفاً في المخ، لأن خلايا الدماغ لا تعمل بالكفاءة الطبيعية. نقل السماهيجي إلى المستشفى في 9 أغسطس/آب، وكان تشخيصًا دقيقًا من طبيب لا يمتلك الأجهزة، لكنه يمتلك المهارة والكفاءة المسجونتين والموقوفتين عن الاستخدام حتى الآن.

أما أنا فقد كنت أتعالج في مستشفى القلعة تحت إشراف الدكتور باسم ضيف. كان هو طبيبي الحقيقي، بينما طبيب مستشفى القلعة كالممرض الذي ينفذ الأمر فقط، وذلك اعترافٌ، ولو متوارٍ، بكفاءة الكادر المظلوم. أخذت أمصالًا مسكنة معالجة، وتبعها فيما بعد أقراص (Prednisolone)، أخذتها على جرعات مدة ثلاثة أسابيع، تخففت الجرعات من أسبوع لآخر وحصلت على فائدة كبيرة في البداية، ثم واصل ضيف بوصف فيتامينات(Neurbion B1، B6، B12) للتوصيلات العصبية.

بقيت على وصفة باسم ضيف في الأدوية، لكن بعد أربعة أشهر لم أحتمل وضعي الصحي، فأضربت

عن تناول الأدوية، بسبب حرماني من الذهاب إلى الطبيب المختص بالكسور. فاستجابوا لي خشية من انتكاسة صحية تدينهم أكثر. أخذت إلى مستشفى القلعة لأخذ أشعة فقط، وحين زارتنا لجنة بسيوني، أوصلت شكواي، فتواصل علاجي الطبيعي مرتين في الأسبوع. في هذه الفترة رفعت العصابة عن عيني أثناء ذهابي للمستشفى، وكان ذلك من حسنات وجود بسيوني ولجنته حينها، حتى وضعت إرشادات تنبيهية عند مداخل المستشفيات تبين رسم وجه بالعصابة يقطعه علامة X.

الإضراب يفشل..

بعد انتهاء السلامة الوطنية قررنا الإضراب، وأن نعمم الفكرة بنشرها إلى باقي السجناء في الزنازين والعنابر الأخرى. لكن بعض أفراد الكادر الطبي لم يكونوا متفاعلين، يخشون أن ينقلب الأمر إلى تشديد جديد، وعذاب جديد.

في السجن تشكل فريقان. فريق لديه تحفظات من اتخاذ خطوات إجرائية، وغالبيتهم من الكادر الطبي. وفريق مع المبادرة باتخاذ خطوات إجرائية، وغالبيتهم من السجناء الآخرين.

تجاوبت أنا وعلي العكري مع الإضراب، وكان معظم رفقاء زنزانتنا متحفظين. غسان ضيف، الذي أحبط كثيرًا من البقاء في الحبس بعد خروج معظم رفقاء زنزانته، في 28 يونيو/ حزيران أتانا قائلاً: الليلة نبدأ الإضراب! لكنه عاد بعد يوم واحد وقال لنا: يفضل عدم الإضراب لأن الإفراج قريب. وذلك بعد أن التقاه أحد الموفدين من الداخلية ووعده بذلك. أُجهضت الفكرة منعًا للخلاف.

لكن إعلان الإضراب وصل للسجناء العسكريين، فتجاوبوا وبدأوا في تنفيذه، ولم يكن سهلاً الوصول إليهم لفك إضرابهم وقد سقط بعضهم متأثرًا، وكان ذلك مزعجًا لنا جدًا.

عريضة ضد التمييز..

عندما تصدر إدارة السجن قرارات بعمل زيارات لفريق الكادر الطبي فقط دون غيرهم، فذلك إجحاف في حق الآخرين، لذا رفضتُ شخصيا هذا التمييز ورفضتُ إحدى زيارات أهلي تعاطفًا معهم.

بدأ العمل على العريضة من أجل إلغاء التمييز، الذي خلق مشكلة وحساسيات بين السجناء، مستندة إلى مشروعيتها في مخالفة لوائح السجن، كان ذلك في بداية شهر رمضان، صادف بداية أغسطس/آب، استطعنا أن نجمع 80 توقيعًا. انزعج بعض الأطباء وشعروا أن العريضة ضدهم،

في حين هي ليست لمنع الامتيازات عن أحد، بل ليتمتع الجميع بنفس الامتيازات، وهي موجهة إلى إدارة السجن.

العريضة تضمنت المطالبة بالتقاء السجناء بلجنة بسيوني، وفتح أبواب العنبر 6 في شهر رمضان، وزيادة عدد مرات الاتصال بالأهالي كما حدث مع الكادر الطبي، وكذلك الزيارات، والزيارة المسائية في رمضان، والحق في ممارسة الشعائر وممارسة العبادات الجماعية، خصوصًا في شهر رمضان، وهي من الأمور التي سُمح للكادر الطبي بها.

أرسلنا العريضة معززة بالتواقيع إلى الضابط الملازم محمد الأنصاري ونسخة منها إلى كل من : مسؤول العنبر، وقسم التحقيقات الجنائية، ووكيل وزارة الداخلية، ومكتب وزير الداخلية.

نتائج العريضة

ما إن وصلت العريضة حتى جاء الأنصاري متهجمًا ومهتاجًا: وصلني أنك أنت من كتب العريضة.. كنت حينها أصلي فتعمدت إطالة الصلاة. بعد أن طويت السجادة قلت له : نعم في السجن تمييز ظالم، هل من المعقول أن تكثر من زيارات الكادر الطبي والباقي لا شيء، هل هذا عدل؟ قال بحدة أقل: " إحنا مقررين من بكرة نعطيكم 5 دقائق للمكالمات وبشكل يومي وللجميع، وأي شيء في إيدنا راح نسويه لكم بس خلكم من هالحركات والعرايض".

توالت التحسينات فصارت الزيارات ومدتها واحدة للجميع، ما عدا الاستثناءات، أي المصابين بالاكتئاب. فتحوا الأبواب قبل أذان المغرب بنصف ساعة وكل واحد يستطيع زيارة الزنازين الأخرى. صارت بعد ذلك الزيارات تتم بعد الفطور فيما قبل تتم في صباح رمضان القائظ. كما سمح بإدخال المأكولات، فغمروهم الأهل من أكياس رقائق البطاطس، إلى أنواع متعددة من الكاكاو إلى معلبات الفاصوليا والتونة وغيرها. وسمح فيما بعد بإدخال المأكولات المطبوخة من البيوت.

من الإنجازات الرائعة السماح للأهالي بإحضار صحيفة الوسط. ما قبلها كانت صحف السلطة هي المسموحة فقط: الأيام، أخبار الخليج، الوطن. نسخة واحدة من كل عدد لجميع نزلاء العنبر. كنا نتحاشى قراءة صحيفة الوطن لأنها تجلب الغم بسبب خطاب الفتنة والتحريض.

بعد أن تقرر لنا الاتصال يوميًا مدة 5 دقائق مع السماح بإطالة بعض الوقت، تواصلنا مع بعض الزملاء الذين سبقونا بالخروج، أوصلني بعضهم إلى صحفية تعمل مع موقع (مرآة البحرين)،

نقلتُ إليها عن إصابة ظهري، كما سربت إليها أيضًا رسالة خطية عن طريق زيارة الأهل، فنشرت تقريرًا خاصًا تحت عنوان: "إبراهيم الدمستاني مكسور الظهر مرتين". فكانت (مرآة البحرين) حاضرة معنا في السجن، وتنقل تسريباتنا التي نحتاج نشرها إلى العالم الخارجي، وقد حدث ذلك غير ذات مرة.

المغيبون عن الضوء..

في سجن الحوض الجاف هناك سجناء مغيبون عن الضوء. تركز التعاطف الدولي والحقوقي الواسع مع الكادر الطبي وأهمل آخرين. هذه حقيقة. المتهمون بقطع لسان المؤذن لا أحد تكلم عنهم، كذلك معتقلو المنامة لم يلتفت إليهم أحد حتى فريق لجنة بسيوني جاء خصيصا فقط لمساعدة الكادر الطبي. بينما هؤلاء لم يروا أهاليهم لأكثر من شهرين أو ثلاثة حتى بعد قدوم بسيوني. شعر هؤلاء بالإحباط والتذمر. اشتكوا.

انتقل ذلك التذمر بين النزلاء وبعد لقائهم بالضابط محمد الأنصاري طلبوا انتدابي كممثل عنهم في كتابة قضاياهم وشكواهم وتقديمها إلى لجنة بسيوني التي ستزورهم في 24 أغسطس/آب. وافق الضابط. تشكل فريق مكون من عشرة أشخاص يطالب بإنصافهم أسوة بالكادر الطبي. انتدب شخصان من كل واحدة من الزنزانات التسع للالتقاء ببسيوني. أبو غايب مثـّل زنزانته مع مجموعات معينة. همستُ في أذن السيد بسيوني أن ادعم هؤلاء بأوامرك كي يحصلوا على فرصة من التحسينات، فما يصدر عنك ينفذ.وافق بسيوني على البقاء فترة أطول للاستماع إليهم. طلب أبو غايب من السيد بسيوني إبعاد الشرطي كي يأمنوا من تلصصه عليهم. زجره بسيوني: "اطلع" فامتثل للأمر مرغما. لكن القاضي المصري الجنسية، رئيس فريق التحقيق انزعج من موافقة بسيوني. نال أبو غايب فرصة سانحة كي يشرح قضيته قائلا: "أنا متهم باختطاف الباكستاني وقتله بينما كنت أحاول فض الأيدي عنه لحمايته من القتل" استطاع أبو غايب توصيل رسالة ساعدته فيما بعد بالبراءة والإفراج.

بعد شكوى السجناء للسيد بسيوني من معاملة بعض أفراد الشرطة، تم توجيههم إلى ملاطفة السجناء. وهذه التحسينات استفاد منها جميع السجناء، لذلك كنا نجتمع في ليالي شهر رمضان حول سحور جماعي من أطباق (المجبوس) التي يحضرها لنا الأهالي بعد الإفطار.

ابني (علي) ..

كان الهدف من إقامة تعزية وفاة الإمام علي، هو إعادة اللحمة بين السجناء بعد الحواجز التي

نشأت بفعل التمييز. أعددنا برنامج العزاء: اليوم الأول أقرأ أنا القصيد في البداية، والأستاذ محمد من السنابس يقرأ الموضوع، والعكري يقرأ الأبيات القريبة من المصرع. في اليوم الثاني يقرأ التوبلاني الموضوع، والرادود أبو غايب الزيارة ثم اللطمية، متخذين ساحة منشرة الثياب مكاناً لحقلة العزاء. في اليوم الثالث شاركنا أحد سجناء قضية المنامة في القراءة، واستعنا في ذلك ببعض الكتب الدينية المسموحة مثل كتاب "الجمرات الودية لملا عطية".

أثناء اللطم على الصدر تذكرت ابني الشهيد "علي"، شعرت بحزن فادح تجاهه، اشتقت له حد البكاء، لم أستوعب غيابه وخاطري لم يسكن بعد من فرط البلاء الذي حل بالوطن وبنا، حل عليّ طيفه وضج حضوره في وجداني حين جاءت هذه الشعيرة لتؤجج حزني عليه، ذكرتني بمشاركاته في العزاء في مأتم الدراز ومآتم المنامة، تذكرت طلباته بإصرار لمشاوير المنامة وكان وقتها لا يملك مواصلات. رحمة الله عليك يا بني، يا علي.

قرار الإضراب

في منتصف أغسطس/آب تناهى إلى سمعنا إضراب رولى الصفار. كيف برئيستي في جمعية التمريض البحرينية تأخذ قرارا أشجع من الرجال، تعلن الإضراب ونحن نتراجع فيه؟ هذه المرة قررنا إضراباً مدعوما ببيان. قررنا أنا والعكري وديواني إصدار بيان إضراب في خطوة تصعيدية بحيث نوصل صوتنا للأهالي والناس في الخارج. سألنا باقي الأطباء. كان هناك تحفظ. قررنا أصدار البيان بأسمائنا فقط. بعدها قرر الجميع المشاركة.

ملخص البيان الذي سرّب إلى مرآة البحرين ونشرته حينها: "بعد المحاولات الجادة والمساعي الحثيثة التي بذلها الموقعون على هذا البيان مع إدارة السجن والمسئولين بوزارة الداخلية لإيجاد حل لقضية الكادر الطبي، ونظرا لعدم استجابة النيابة العسكرية للمطالب العادلة في الإفراج مع ضمان محل الإقامة، وإسقاط التهم التي انتزعت منا تحت التعذيب، وإعادة التحقيق لهذه التهم فإننا نعلن الإضراب عن الطعام ابتداءً من أول أيام عيد الفطر المبارك احتجاجا على كافة الإجراءات التعسفية التي تمارسها النيابة العسكرية وإدارة التحقيقات الجنائية"[2].

بدأ الإضراب في31 أغسطس/آب. الاكتفاء بالسوائل والماء. تشجع آخرون. بدأ المضربون يتساقطون ويؤخذون إلى عيادة السجن. التقى مفتش السجون اللواء إبراهيم حبيب الغيث بمجموعة منا: أنا والضيفين وعمران وأصغر والعريبي وديواني. انفعل ديواني وواجهه بالانتهاكات وبأكاذيب بن حويل في المحكمة.

في هذا الوقت تحديداً، كان أحد المضربين قد رفض أخذ المصل المغذي، فأغلقت الشرطة أبواب الزنازين على السجناء ودخل الشغب العنبر هذا ونحن بعيدون عنهم لا ندري ماذا يجري عندهم. ثم لم نسمع إلا تراشق الصحون على الجدران والصراخ على الشغب لأنه اعتدى بالضرب على أحد السجناء في الممر، طارت الصحون تتراشق على الشرطة حين رأوا زميلهم السجين ينداس تحت أرجلهم. خرجنا وخرج معنا اللواء الغيث مذعورا ولاذ بالفرار من العنبر. تدخل فريق بسيوني في القضية، فعادت الأوضاع إلى سابق عهدها، فتحت الأبواب ثانية وتواصل الإضراب.

إفــراج وحفل زواج

أخذنا إلى المحكمة في 7 سبتمبر/أيلول. كنا ما زلنا مضربين عن الطعام. في هذه الجلسة لم يكن النائب العام متصلباً على عادته. امتدت الجلسة حتى المساء. دعينا في الاستراحة إلى مكتب النائب العام العسكري لتناول حلويات. كان التعامل معنا على غير العادة، لكني لم أشعر بشيء. قبل أن ترفع الجلسة تكرر الطلب المتعلق بإصابة ظهري وعرضي على الطبيب الشرعي. لم نكن متفائلين وغير صاغين لتلاوة قرارات المحكمة، من تلك القرارات فقد تقرر عرضي على الطبيب الشرعي ثم تلا الفقرة الأخيرة : "تقرر الإفراج عن جميع المتهمين بضمان محل الإقامة".

كانت المفاجأة التي لم نتوقعها أو لم أتوقعها أنا على الأقل. صخبت القاعة بفرحة عارمة. أخذنا ثانية إلى سجن الحوض الجاف لفحصنا فحصا طبيا، ولأخذ أغراضنا، في هذه الأثناء أنشد أبو غايب قصيدة من تأليفه في زفة جميلة داخل العنبر. والأجمل من ذلك بالنسبة لي أن في تلك الليلة حيث خرجنا في مغربية ذلك المساء وكان ينتظرني حفل زواج أختي الذي استأذنتني في إقامته سابقا، فجاءت الصدفة الرائعة ليكون مساء جميلا لاستقبال المهنئين بي وبزواج أختي.

مع السجانين..

الصورة الحقيقية للكادر الطبي ليست تلك التي تفبركها السلطة، بل ما يراها السجانون ويتعاملون معها، هم الآن لا يتعاملون مع المجرمين والسراق ومدمني المخدرات، بل كبار الاستشاريين والجراحين ونخبة من الكادر الطبي. يقول الدمستاني: زار زنزانتنا رقم 7 الملازم محمد السعيدي، وهو أول مسئول يزورنا ويتحدث معنا. قال: «أنا بسوي ليكم غسيل مخ». كان يشرب شايا ويدخن سيجارة، يرافقه شرطي يلبي أوامره. كانت خيوط الدخان تمر على أنوفنا نحن المدخنين، تدوخنا. طلبنا السماح لنا برشفة سيجار. قال رافعا أنفه: انسَ.

تحدث عن المجريات. انتقد المعارضة لتضييعها فرصة الحوار. ثم انتقل لموضوع تجمع الوحدة الوطنية وكان له رأي نقدي حوله. رد عليه الدكتور صادق عبدالله : «هذا شأن سياسي لا يخص الكادر الطبي، نحن نتحمل المسئولية الإنسانية والمهنية تجاه الجرحى فقط، فحدثت فبركات وتلفقيات صارخة تجاه عملنا وذلك غير صحيح».

كلما حاول السعيدي جرنا معه في الشأن السياسي، أعاده (عبدالله) بلطف إلى الزاوية التي تخصنا. استمر النقاش لمدة ساعة ونصف. فنّد (عبدالله) الكثير من الإدعاءات ضد الكادر الطبي. إلى أن عرج السعيدي على جماعة خلية الحجيرة وانتقد الحكومة التي أفرجت عنهم أيام الدوار. فرد عليه: «هذي غلطة الحكومة، ليش سمحت لهم يذهبون للدوار وبعدين تعاقبهم وتسجنهم؟ إذا كان في نيتها القبض عليهم لماذا تفرج عنهم في الأساس؟» هنا استغرب السعيدي وكأنه أصيب بصفعة وعي.

في أثناء الجلسة طلب السعيدي كوبا آخر من الشاي فأخذ د. صادق عبدالله كوب الشاي الذي أفرغه السعيدي ورفعه للشرطي قائلا: «هاك خذ هذا وياك؟» فلم يشأ الشرطي الصارم بوجهه المتجهم ألا يفعل في حضور الملازم الذي لم يعترض. هذه الحركة كسرت الحاجز بيننا وبينه. خلقت فيما بعد علاقة جيدة معه حتى كثرت زياراته لنا في الزنزانة 7، وصار الحديث يطول معه حتى إن الآخرين كانوا يتساءلون عما يدور بيننا.

من خلال تكرار زيارتي إلى مستشفى القلعة لأخذ العلاج الطبيعي، كان يأخذني شرطي يمني الجنسية، طيب الخلق وكان يُدهش حين ألتقي الطبيب وألقنه وصفة العلاج (التي آخذها عن باسم ضيف) وبأسماء الأدوية التي أحتاج وهو يستجيب لي بدون استهجان أو سؤال خصوصا وأن هذا اليمني يحب تعلم اللغة الانجليزية ويسعد حين أكلمه بها. هنا يتساءل هذا الشرطي :»أمعقول هذا المصاب المتعلم والطلق في الانجليزية والذي يملي على طبيب الوزارة الوصفة يكون مجرما حقا؟».

السماهيجي وحواريوه

في ذهابنا للمحكمة العسكرية وبالذات في المرة الثالثة، لاحظنا أن هناك ودا لطيفا في العلاقة بين السماهيجي وبين الحراس، رغم أنهم أقسى في التعامل من حراس السجن. في استراحة المحكمة كان الحراس الآسيويون يلتفون حول السماهيجي صاغين مستمتعين. خيّل إلي أنه بشيبته الوقورة ولباسه البسيط وكأنه النبي عيسى مع حوارييه.

سألته فيما بعد: «ما سر انجذاب الحراس لك؟» رد مبتسما: «تدرج التحادث معهم شيئا فشيئا لأحكي لهم أنني كنت من ضمن خريجي طلبة الاتحاد السوفيتي لعام 1987 والتابعين لجبهة التحرير. وكنا منبوذين وقتها بسبب مواقفنا السياسية فتعثر توظيفنا في القطاع العام بسبب ممانعة وزارة الداخلية فعملت مع مقاول بحريني يبيع أخشابا، ويتعامل رب العمل مع شركات أخشاب في لاهور بباكستان، وكان يتكرر سفري إلى لاهور كمنتدب من قبل الشركة وتصادف أن هؤلاء الحراس الباكستانيين قادمون من نفس المنطقة التي أتردد عليها هناك، لذا أخذنا نتحدث عن الأمكنة التي نعرفها في لاهور.

وبعد أن سألوني لماذا أنت هنا؟ استغربوا أشد الاستغراب حين علموا أنني جراح عيون، وأن هؤلاء جميعهم أطباء، وأن تهمتنا الوحيدة أننا عالجنا جرحى مصابين». هم من جانبهم أيضا راحوا يشكون حالهم: «نحن نتقاضى 160 دينارا شهريا مقابل 12 ساعة يوميا ومأمورون في التعامل معكم بغلظة، وهذا إجحاف في حقنا فاشتكينا إلى قيادة السجن في باكستان عن قلة الراتب دون جدوى» كما اعترفوا: «إننا لم نأت هنا لإهانة الناس». لذا تعاطفوا معي بالشكل الذي رأيت.

عبد الشهيد فضل كان يناقش أحد السجانين البسطاء، وهم في الغالب كذلك، فيبهره من تقدم العلم القادر على زرع شعر الرأس وتعديل الأنف وغيره، ويقول له: «أنا بإمكاني أن أجري لك عملية تجميلية بما تريد»، ولأنها أمور جديدة عليه فينجذب إليه بالإصغاء ثم بالاحترام.

النقيب حمد الخياط، مسئول الخدمات في السجن، عرفني بنفسه وعن والده محمد الخياط الذي كان يعمل في جمعية الهلال الأحمر البحريني بصفة الأمين العام المساعد للشئون الخارجية كما يشغل منصب رئيسي في الطب الشرعي بوزارة الداخلية. هذا النقيب دربته على الإسعافات الأولية إبان رئاستي للجنة الإسعافات الأولية للهلال الأحمر، كان حينها صغيرا في الثانوية، أتاني ملثماً أول أيام التحقيقات، حينها لم أميزه لكنه عرفني بنفسه فيما بعد. لم تنفعني هذه المعرفة لكن على الأقل لم يكن فظا في معاملته معي كالآخرين.

وفاءً للطبيب

باسم ضيف كان يعالج الرياضيين، ومصابي الملاعب، له مرضاه من العسكريين أيضاً، فكان هؤلاء يعرضون عليه خدماتهم من توفير ماء أو غيره، بيد أنه يتعفف، فقط يشكرهم ويقول: «سأطلب منكم إن احتجت شيئا»

ومن أشد المفارقات، أن بعض هؤلاء الحراس، كانوا يرافقون السجناء في السابق إلى مستشفى السلمانية، وقد شاهدوا الأطباء في كامل شرف مهنتهم، وهم الآن يرونهم في كامل ذل وطنهم. فماذا يصدقون؟

إبراهيم الدمستانيّ، مواليد 1968، مشارك عام في العلوم الصحية (تخصص التمريض العام)، مشرف تمريض بمركز شركة ألبا الطبي، مدرب مدربين دولي مرخص من قبل منظمة الإسعافات الطبية بالولايات المتحدة الأميركية منذ نوفمبر/ تشرين الثاني2007. رشحه النادي الخليجي للتمريض بدول مجلس التعاون الخليجي نائب رئيس جمعية التمريض بمملكة البحرين عام 2005.

هوامش:

(1) رسالة الكادر الطبي لبسيوني.

http://bahrainmirror.com/article.php?id=1667&cid=73

(2) الكادر الطبي بعد خطاب الملك: سنضرب عن الطعام

http://bhmirror.no-ip.org/article.php?id=1748&cid=73

غسان ضيف، زهرة السماك:
من القفص الذهبي إلى قفص الجلاد

"هنا أدركت الأمر، لم يعد لدي خيار للهروب من تلك الحقيقة: أبي وأمي معتقلان ومفصولان عن العمل، أنا وإخوتي الآن بلا والدين، كنت في صدمة نفسية قوية بسبب هذه المحنه التي واجهتني، لا زلت أعاني من أحلام مزعجة وأجد صعوبة في التركيز على دراستي. رغم ذلك، لم يفتني يوم دراسي واحد، ولم أتغيب قط، فوالدي دائما يؤكد على أهمية التعليم، وأنه سلاحنا الذي لا يمكن لأي أحد أن يسلبه منا.

كفتاة في السابعة عشرة من عمرها، كان غريباً أن تصير لدي كل تلك المسؤوليات فجأة، كان علي أن أدير منزلاً بأكمله، وأعتني بجدتي المنكسرة، وأخويّ الصغيرين الفاقدين، وأقنعهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام في نهاية المطاف، وأن أدفع الفواتير، وأواظب على الذهاب إلى المدرسة، وأن أجتهد لأحافظ على نسبة تفوق تخولني لدراسة الطب الذي هو رغبتي وطموحي، وكان علي أن أشرح لأخوتي أن والدي أعتقلا دون أن يرتكبا أي جرم، وأننا لا نستطيع فعل الكثير لمساعدتهما" فاطمة غسان ضيف.

عائلة ضيف كان لها وضعها الخاص، اعتقال 3 أطباء من العائلة نفسها: غسان، وزوجته زهرة السمّاك، وأخيه الأكبر باسم. الجميع حوكموا عسكرياً. أطفال غسان وزهرة المدللون والمرفهون، وقعوا في تجربة أكبر من أن يتخيلوها فضلاً عن أن يعيشوها: أكثر من 3 أسابيع بلا أم ولا أب، وأكثر من خمسة أشهر بلا أب، وتجربة مرعبة لهم في مبنى التحقيقات، وترقب مجهول لم يكونوا يعرفون معه أي مصير ينتظر والديهم، لقد كبروا فجأة، وانكسر في داخلهم الكثير الكثير، عدا شعورهم بالفخر لما قام به والداهما، لا زال هذا الشعور يكبر كل يوم.

من أين بدأت الحكاية؟ وكيف عايش غسان وزهرة أحداث 14 فبراير؟ وكيف كان اعتقالهما؟ وما الذي تعرضا له داخل السجن؟ وكيف سارت فصول محاكمتهما؟ هذا ما تحاول هذه الحلقات أن تضعه أمامكم.

ذهبنا لنرى..

لم يكن غسان وزهرة استثناءً، مثل غيرهما سمعا عن 14 فبراير دون أن يتوقعا الكثير. لكن التوقعات ليست هي التي تصنع الأحداث الكبرى، بل الأفعال وردود الأفعال التي تكبر بها أو تحتويها، ما حدث في البحرين منذ 14 فبراير هو هذا تحديداً.

"سمعنا عن ثورة الغضب أو ثورة 14 فبراير عن طريق أطفالنا، جاءني ابني محمد ليخبرني

أن هنالك دعوة على الفيس بوك للتظاهر الحاشد في يوم 14 فبراير على غرار ما حدث في تونس ومصر، أخبرته أن ينسى الموضوع لأنها مجرد دعوات لن تتحقق" تقول زهرة، وتضيف: "كان غسان في العيادة وأنا في المنزل حين سمعت بمقتل الشهيد الأول علي مشيمع، أخبرته بسقوط شهيد ثم بدأنا متابعة الأخبار بشكل فعلي عبر الواتس آب والفيس بوك".

أما غسان المنصرف عن الشأن السياسي، والمغمور في حياته المهنية والأسرية، فكان مساء 15 فبراير هو أول فضوله: "زارني في العيادة بعض المرضى ممن كانوا في دوار اللؤلؤة، أخبروني أن هذه الرقعة صارت تزهو بالحرية والأمان، مكان يستنشق فيه المرء معنى أن يكون حراً يستطيع التعبير عن رأيه بكل جرأة من غير أن يمس الآخرين بالسوء، لم يرتفع بها إلا علم البحرين مرفرفاً، صادحا بالمحبة، ملوناً بالحرية" يكمل "لقد شاقني وصفهم لرؤية المكان".

في الوقت نفسه كانت زهرة تواجه إلحاحاً من ابنتها البكر فاطمة، للذهاب إلى المكان نفسه، سمعت أنه يعبق بالندى ورائحة العشب وأوكسجين الحرية، فتشوقت. توافقت العائلة على الذهاب بعد انتهاء غسان من عيادته، "كانت الناس تتنسم الحرية وكأنها تتصالح معها للمرة الأولى، العفوية التي عرف بها الإنسان البحريني، والسلام الروحي الذي يلف المكان، لم يكن هنالك ما يثير الارتياب أو القلق" تقول زهرة.

الخيمة الطبية نصبت في اليوم التالي، احتاجت لأطباء متبرعين، تردد غسان قبل أن يوافق، فقد كان يرى أنه لا حاجة لمثل هذه الخيمة ما دامت مستشفى السلمانية قريبة، لكنه سجل اسمه، فكر في المناوبة ليلة 17 فبراير، لم تحبذ زهرة الفكرة، غادر عند الساعة 11:30ليلاً.

وتحول العشب دماً..

في تلك الليلة استيقظ كالمعتاد لأداء صلاة الليل قبل صلاة الفجر، لكنها لم تكن ليلة كالمعتاد، أربك غسان اتصال من الطبيبة المناوبة في المستشفى، طلبته على وجه السرعة، لم يكن يعلم أنه على موعد مع أحداث ستغير مسيرة حياته، وفهمه لما يجري، واهتمامه السياسي.

يقول غسان: "سألت الطبيبة عن سبب الاستدعاء الطارئ، ولم أفكر أبداً أن السبب يتعلق بالدوار، أجابتني أنها لا تعرف ما يجري خارج المستشفى، لكن قسم الطوارئ يضج بالجرحى والمصابين!" أخبر غسان زهرة. قررت مرافقته فيما لو هناك حاجة لها، سبقها بسيارته ولحقته بسيارتها "طوال المسافة التي قطعتها من البيت للمستشفى كنت أهيئ نفسي لما سأراه، لكن لم أتصور أن ما

سأراه سيكون بهذه البشاعة. أخيراً وصلت المبنى الخارجي للمستشفى، حاولت إيقاف سيارتي في مواقف الطوارئ لم أستطع، توجهت لمواقف الفاتح، لم أجد موقفا خاليا، أوقفت سيارتي في مكان ما لم أدر ما هو، توجهت مسرعا إلى قسم الطوارئ".

"عندما دخلت كانت المفاجأة !" يقول غسان وهو يفتح عينيه على الصدمة: "لم استوعب ما رأيت، المستشفى مكتظ بالجرحى، أعداد المصابين كثيرة جدا، الجميع كان منفعلاً، الأهالي يبكون، الممرضات مندهشات، الواقفون على الجوانب يسربلهم الحزن، وأنت كطبيب تقف أمام هذا المنظر الذي لم تعتد رؤيته ولم تظن أنك ستراه يوماً، هل تتجه إلى قسم الطوارئ؟ هل تذهب إلى العيادات؟ هل تزور الأجنحة؟ هل تقف لتساند أهالي المرضى؟ هل تواسي الجرحى؟ هل تهدئ من روع وغضب المنفعلين؟ كان حمل ذلك اليوم ثقيلاً جداً، لكنني فعلت ما أملاه علي ضميري وواجبي المهني والإنساني".

زميلي مصاب..

يتنهد غسان ويكمل "لم أستفق من الصدمة حتى باغتني صوت أحدهم: "الدكتور صادق العكري مصابٌ هنا"، لم يدُرْ بخلدي لحظة أنني قد أصادف أحد أفراد الطاقم الطبي مصاباً، هل ضُرِبَت الخيمة الطبية وسط هذا الدمار؟ لا يعقل أن يحدث هذا بالطبع".

سأل غسان عن مكان تواجد زميله صادق، اتجه إلى جناح 11، كان الأمر كابوساً مزعجاً، عليه أن يتصرف بحكمة الرجل وسرعة بديهة الطبيب وإنسانية البشريّ، عاين زميله، اكتشفت أن به كسوراً في الوجه ولديه إصابة بليغة في العين وإصابة في البطن وأخرى في الصدر. طلب استدعاء طبيب العيون المناوب في الحال، فاتصل زملاؤه في الجناح باستشارية طب العيون المناوبة لكنها رفضت المجيء وطلبت منهم استدعاء غيرها!!

دهشة أخرى لا يستوعبها: زميل مصاب وفي حالة حرجة وزميلة ترفض أداء مهنتها وتتملص من أخلاقياتها وترفض مساعدته! لم يدرِ غسان حينها، أن الخذلان سيكبر ويصير (بطل) فترة السلامة الوطنية وما بعدها! يكمل: "في ذلك الصباح وصلتنا أوامر شفوية عبر صوتيات المستشفى بضرورة إغلاق كافة العيادات والتوجه لقسم الطوارئ. التعميم غير مكتوب باعتبار الحادثة وقعت فجراً ولا وقت لإصدار شيء مكتوب، اكتفت الإدارة بالإبلاغ الشفوي. توجه الجميع إلى الطوارئ، وهي النقطة السلبية التي اقترفتها إدارة المستشفى التي لم تعتد إدارة الأزمات، تسببت في إرباك القسم".

لم أتوقع أبداً أن يتم اعتقال زهرة. بقيت قلقاً عليها جداً،
لم أعرف كيف يمكن أن تحتمل مثل هذا الوضع

يسترسل: " كان صباحاً عصيباً جداً وطويلاً، حتى التاسعة كنا نستقبل الجرحى والحالات تتروح بين الخطير جدا والبسيط، نشاهد كل أنواع الإصابات في كل أنحاء الجسد، بعضهم بحاجة لعملية عاجلة وبعضهم بحاجة لعلاج في الطوارئ حتى إن المكان لم يتسع، البعض تلقى علاجه بطريقة بسيطة في ممرات القسم".

التاسعة إلا إسعافاً!

التاسعة إلا ربعاً، كان موعداً جديداً مع صدمة جديدة. مُنِعَ الإسعاف، وبدأ توافد الجرحى من الطاقم الطبي من المسعفين والممرضين وسائقي السيارات إلى المستشفى!

"هل يتصور عاقلٌ أن إسعافاً قد يُمْنَع عن جرحى ومصابين مهما كانت جريمتهم؟!" يستنكر غسان، "لا وقت للتفكير في تلك اللحظة! يقف المرء بين ألم ما يرى، وألم الحقيقة التي يخفيها الموقف، لكنه الواقع! مُنِعَ الإسعاف من الذهاب إلى الجرحى، فيما اعتدت قوات الأمن على المسعفين والممرضين المتجهين إليهم!"

"بعد نوبات الغضب التي عبر عنها الطاقم الطبي والأهالي، استطعنا أنا ومجموعة من الأطباء إقناع إدارة السلمانية المتمثلة في الوكيل المساعد لشؤون المستشفيات الدكتور أمين الساعاتي بالاتصال بوزير الصحة للتنسيق مع الجهات الأمنية ليسمحوا لنا بالذهاب إلى منطقة الدوار لإنقاذ من يمكن إنقاذهم، وبالفعل استطعنا الذهاب عند الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة" يكمل: "كنت في إحدى السيارات المتهجة هناك ومررنا بنقاط تفتيش كثيرة تعرضنا خلالها لإهانات بشعة، رفع رجال الأمن فيها الأسلحة في وجوهنا، استجوبونا، وعند وصولنا لشارع الملك فيصل بجانب الدوار رأينا المكان أشبه بساحة حرب: الطوب والحصى ملقى على الأرض، الخيم محطمة، كل المحتويات جرى تحطيمها، المأكولات منثورة على الأرض، والعشب، حتى العشب الأخضر انصبغ بالدم!"

يسرح بذاكرته وكأنه يعيش اللحظة المرعبة، المقلقة، المؤلمة، ويزفر: " كان منظراً رهيباً جداً جداً جدا"، ويكمل "واصلت سيارات الإسعاف جولتها في الدوار مروراً بمجمع الدانة وقرية السنابس، وعادت إلى المستشفى حاملة معها جراح ما رأى طاقمها!"

يعود غسان إلى المستشفى: "وسط كل الأحداث التي جرت أمام قسم الطوارئ، بدأ الأهالي يتجمعون في الساحة الخارجية للمستشفى بشكل عفوي وغير مخططٍ له".

طير علي المؤمن..

لم تكن صدمة زهرة أقل وهي ترى الجرحى والمصابين يؤتى بهم إلى المستشفى، "كنت في غرفة العمليات وكان الجرحى يردون الغرف كالطيور الذبيحة، لم يستطع المسعفون والممرضون حمل بعضهم على "ترولي" الإسعاف لأنهم لم يُنْقَلوا إلى المستشفى عن طريق الإسعاف بل بسيارت خاصة بعد أن مُنِع عنهم الإسعاف. ما لا يمكنني نسيانه هو منظر الشهيد علي المؤمن حين أدخلوه غرفة العمليات، كان محمولاً على الأيدي فانصبغ الممر بالدم. ولهول المنظر الذي رأيته أمامي لم أستطع الدخول معه إلى غرفة العمليات وانهارت قواي وانهار جَلَدي، اتصلت حينها بأمي لأعرف مالذي يحدث خارج أسوار المستشفى، فقد غادرنا البيت بهاتف مقتضب وفجأة أصبحنا في قلب الحدث دون أن نعرف ما يدور في الخارج".

طير عبد الرضا..

يوم الجمعة 18 فبراير، أكثر من 5000 من الكادر الطبي يعتصمون في باحة الطوارئ "لا هتافات سياسية ولا مطالبات بإسقاط النظام، فقط التنديد بمنع خروج الإسعاف والتعدي على الكوادر

الطبية. من حسن الحظ أنّا كنا متواجدين هناك. تم ضرب المحتجين الذين نزحوا إلى الدوار بعد الانتهاء من فاتحة الشهيد علي مشيمع" يؤكد غسان "لولا وجود هذا العدد من الكادر الطبي لصار عدد القتلى بالعشرات. عدد كبير من المصابين أُخذوا لقسم العمليات مباشرة. الشهيد عبد الرضا وصل غارقاً في دمه وفي حالة مريعة، الجميع في حالة هستيرية من هول الصدمة، جميع أفراد الكادر الطبي بذلوا محاولات حثيثة من أجل إنقاذ حياته، المرضون والاستشاريون والأخصائيون وفنيي الأشعة، كلهم بذلوا جهداً كبيراً. كنت مع الشهيد عبدالرضا منذ البداية حتى النهاية، أدفع العربة لنقله من مكان إلى مكان، أركض في (الكوريدور) لأحضر أكياس دم من المختبر، حاولنا بشتى الطرق إنقاذ حياته وحياة البقية، لم نفلح، كانت تجربة قاسية لا نستطيع نسيانها بكل ألمها"

يوم المرفأ والجامعة..

هدأت الأمور منذ انسحاب الجيش وقوات الأمن من ساحة الدوار في 19 فبراير بأمر من ولي العهد تمهيداً للحوار الذي لم يتم. عادت للاشتعال مع حادثة المرفأ والجامعة في 13 مارس، ومن يومها لم تهدأ "كنا نمارس عملنا بصورة طبيعية جدا داخل المستشفى، نقوم بدورنا المهني بكل أريحية حتى يوم الأحد 13 مارس، كان يوماً عصيباً أعادنا إلى 17 فبراير من جديد. منعت سيارات الإسعاف من جديد، الجرحى يتم إحضارهم عبر السيارات المدنية. خرجنا في سيارة إسعاف وتم منعنا، رأينا بعض الناس يركضون من جهة مركز الرازي الطبي، حملنا بعض الجرحى إلى المستشفى، كانت السلمانية مكتظة بالجرحى وأهاليهم والمتجمهرين، حالة يرثى لها" يقول غسان.

تكمل زهرة: "كنت في غرفة العمليات حينها، باسم ضيف يجري عملية للكتف، وأنا مع الدكتور محمد عقيل في عملية تبديل ركبة، بينما نحن في انتظار المريض التالي سمعنا أن الشوارع تم إغلاقها، وأن قوات الأمن أغلقت المرفأ المالي والشوارع المحيطة به وإن المرضى لا يتمكنون من الوصول للمستشفى، لم نكن ندري ما الذي يحدث في الخارج. نزلنا بعدها للطوارئ، وبدأت نداءات الاستغاثة تصلنا من المرفأ المالي ثم من الجامعة".

مضروباً بالسيف..

يضيف غسان: " أثناء نقلنا للمصابين من المرفأ المالي، تلقينا خبراً أن هناك إصابات كثيرة في الجامعة، توجهنا إلى هناك، كنا من أول فرق الإسعاف التي وصلت. تم التعرض إلينا والهجوم علينا وضربنا عند مدخل الجامعة وفي عدة نقاط. وصلنا إلى مكان رأينا فيه أحد الشباب يسبح في بحيرة دم. كان مضروباً بسيف وحوله ملثمون يحملون السيوف والهراوات والعصي والأدوات الحادة. حاولوا الهجوم علينا لكننا استطعنا رفع المصاب. نقلناه مع مصابين آخرين إلى السلمانية

قبل أن نعود مرة أخرى لإسعاف مجموعة جديدة. بصعوبة شديدة وبعد تدخل بعض رجال الأمن سمحوا لنا بالدخول. مرة أخرى أيضاً تعرضنا لهجوم من قبل البلطجية الذين يحملون الأدوات الحادة. تمكنا من نقل عدد آخر من المصابين. أنا بنفسي قمت بنقل 3 مصابين للإسعاف. أثناء توجهنا نحو بوابة الجامعة قام البلطجية المسلحون بإنزال أحد المصابين من الإسعاف وضربه أمامنا. كنا مرعوبين ولا نعرف ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء المسلحون. توجهنا بعدها إلى السلمانية ونقلنا الدفعة الأخيرة".

يكمل غسان: "في هذه الأثناء جاءني اتصال أن بعض الكوادر الطبية محاصرة في الجامعة وأنه تم الاعتداء عليها. توجهت من فوري إلى أمين الساعاتي الوكيل المساعد لشئون المستشفيات وأخبرته بالموضوع. في البداية لم يبد أي ردة فعل. لكن بعد إلحاحي ومجموعة من الأطباء توجه الساعاتي إلى الجامعة وتمكن من تخليص الكادر الطبي والعودة معه. كانوا مصابين، ضمنهم مجيد خلف وفاطمة حاجي ومجموعة من الممرضين والممرضات".

غزو البلطجية..

لم ينته هذا اليوم الطويل بعد، اليوم الذي أغرقت فيه البحرين بالبلطجية المسلحين، انتشروا في جميع المناطق البحرين بغية تحويل البلد إلى فوضى عارمة "وصلنا خبر هجوم البلطجية المسلحين على قرية دار كليب، ذهبت مع الإسعاف إلى هناك وأسعفنا عدداً من المصابين، ثم لم يلبث أن جاءنا خبر هجوم البلطجية على المنامة في المساء، أيضاً ذهبنا هناك، كانت المواجهات قد اشتعلت عندما انفجر الشباب غضباً وهبّوا بالدفاع عن مناطقهم، صارت مواجهات عنيفة مع المسلحين الذين كانوا من الآسيويين، حملنا المصابين من كلا الطرفين في سيارات إسعاف، عند مدخل الطوارئ كانت الحشود تهم بالهجوم على الآسيويين غضباً من انتشارهم في المناطق واعتدائهم على الأهالي، بصعوبة شديدة تمكنا من السيطرة على الوضع وإدخالهم للطوارئ لتلقي العلاج".

يكمل غسان: "في هذه الليلة قمت بنفسي بنقل كثير من الآسيويين وكذلك البحرينيين من مركز النعيم إلى مستشفى السلمانية، ومن فريق المخارقة إلى السلمانية، ومن منطقة النعيم إلى السلمانية، كنا نحاول إنقاذ الناس بشتى الطرق، سواء من الآسيويين أو رجال الأمن أو المواطنين والمتظاهرين".

البلطجية لا يزالون يغزون المناطق بتوزيع مدروس ومخطط له، "لم يلبث أن وصلنا خبر انتشار البلطجية في منطقة توبلي ثم منطقة عالي ثم العديد من المناطق التي يقطنها غالبية معارضة.

هكذا بقينا طوال هذه الليلة نجوب المناطق ونحضر الجرحى والمصابين. لم أنم هذه الليلة رغم تعب اليوم الطويل. قريباً من الفجر انهار جسدي بالكامل، لم أتمكن من المواصلة، غادرت".

صالح مشعان..

صالح مشعان هو الشرطي الآسيوي الذي اتهم غسان وآخرين باختطافه واحتجازه. ما حكاية مشعان؟

كان ذلك ليل الإثنين 14 مارس. المكان في منطقة سرايا. مشعان يهاجم أهالي المنطقة بالشوزن مع عدد آخر من البلطجية الملثمين بلباس مدني. طلقة شوزن تستقر خرطوشاتها في رأس الشهيد مجيد عبد العال الذي بقي ميتاً سريرياً حتى إعلان شهادته في 30يونيو. الشباب الغاضبون يعترضون طريق مشعان وينهالون عليه بالضرب الشديد قبل أن تسيل دماؤه ثم ينقل إلى المستشفى ويلقون به هناك. كل من غسان ضيف ونبيل عبد الحميد يعاينان حالته فوراً ويأمران بإدخاله المستشفى لأنه تعرض لضربة بالرأس تستوجب المتابعة " غادرت المستشفى بعد أن أوصيت بمتابعة مشعان، تولى علاجه في اليوم الثاني عارف رجب الذي بعثه للمستشفى العسكري حسب طلبه وبترتيب مع الإدارة. وكان جزاء علاجنا له أن اتهمت أنا وآخرون باختطافه واحتجازه" يضحك غسان بألم. كان حينها برنامج الراصد قد بدأ باستهداف الأطباء خصوصاً علي العكري وغسان ضيف.

يكمل غسان: " صباح الثلاثاء 15 مارس، اتصلت بالدكتور عارف رجب باعتباره رئيس القسم وأخبرته أني أحتاج إجازة لمدة ثلاثة أيام، كنت منهكاً جداً. بالفعل لم أداوم طيلة الأيام الثلاثة بما تخللها من وضع مأساوي في غاية الخطورة" يكمل: "وهذا يظهر سخافة تهمة الاحتجاز التي نسبت لي، إذ كيف أحتجز أحدا في المستشفى وأنا خارج المستشفى؟"

تضيف زهرة: "في هذا اليوم تم إعلان حالة الطوارئ. الجيش بدأ ينتشر في كل مكان وكذلك المدرعات. كنت قد انتهيت من دوامي وعدت المنزل عندما وصلت أخبار هجوم الجيش على سترة. بقينا نتابع الأخبار عبر وسائل التواصل المجتمعي والقنوات الفضائية التي تبث أخبار البحرين. لم أتمالك نفسي وأصبت بحالة هستيرية من البكاء. قلت لغسان أريد العودة إلى المستشفى وقمت من مكاني فأمسك بيدي ومنعني وقال لي: سيقتلونك!!".

يوم التطهير..

الثلاثاء 16 مارس. إنه يوم التطهير، هذا هو ما أطلقه البيان 3 لوزارة الدفاع: "قوات من الأمن

العام والحرس الوطني وبمساندة من قوة دفاع البحرين بدأت صباح هذا اليوم الأربعاء الموافق 16 مارس 2011م بعملية تطهير دوار مجلس التعاون والمرفأ المالي ومستشفى السلمانية وما حولهم" التطهير لا يذهب لمعنى أبلغ من الإبادة. بهذا الأفق تم استقدام جيوش درع الجزيرة، وبهذا الأفق أُعلن قانون الطوارئ الذي تطهّر من كل القوانين التي نصت عليها المعاهدات الحقوقية الدولية والعالمية التي وقعت عليها البحرين، وأبقى قانوني الاستباحة والغاب فقط.

قبل الساعة السادسة صباحاً، ذهبت زهرة إلى مستشفى السلمانية، وبقى غسان في البيت "في محيط المستشفى لم يكن هناك أحد، عندما دخلت موقف السيارات كانت طائرات الأباتشي تحلق فوق رأسي من علو منخفض. لم أعش حرباً من قبل لكن حتما ما كنت أراه تلك اللحظة ليس شيئاً آخر غير الحرب. كان داخلي منقبضا وثقيلا. دخلت مسرعة إلى قسم العمليات، الممرضات هناك أخبرنني أن الدوار قد تم الهجوم عليه منذ ساعات الصباح الأولى. بدأن يعملن على تجهيز غرفة العمليات لتلقي الإصابات، وذهبت أنا للطوارئ استعداداً لاستقبال الحالات. كان الأطباء في الطوارئ في حالة يرثى لها من التعب، أخبروني عن الحالات التي عايشوها في اليوم السابق جراء الهجوم على سترة. قال لي بعضهم: لو لم نكن موجودين لكان القتلى بالعشرات. لم يتمكن الأطباء من العودة إلى البيت لذلك بقوا في المستشفى حتى اليوم التالي، ومنها بقوا محجوزين هناك لمدة 3 أيام من الموت".

تطهير السلمانية..

تواصل زهرة: "بقينا ننتظر أن تصلنا إصابات، لم يصل شيء. سألنا عن سيارات الإسعاف، قالوا لنا إن في سترة 4 سيارات إسعاف تم استهداف عجلاتها بالرصاص، وأن باقي الإسعافات التي توجهت للدوار مُنعت. لم نلبث أن بدأنا نشاهد قوات الجيش تحيط بالمستشفى تدريجياً. ثم اقتحمت باحة الطوارئ وهاجمت أهالي المصابين المتجمهرين في الباحة منذ الليلة الماضية، دخلت إلينا حالات الاختناق بمسيلات الدموع. أخليت الباحة وبدأ تكسير كل شيء تصل إليه أيديهم. أغلقوا البوابات المحيطة بالمستشفى لمنع الحركة من الداخل والخارج. تم تحطيم الخيمة الطبية بكل محتوياتها التي تم تجهيزها بها قبل يومين، ثم تكسير السيارات في مواقف المستشفى وخارجها، ثم نُفِّذت مسرحية وضع الأسلحة وتصويرها، كنا نشاهد كل شيء من الواجهات الزجاجية المنتشرة على جميع طوابق مبنى السلمانية، الجميع كان يقف خلف الواجهات مشدوهاً ومذعوراً، لا يمكن أن يكون ما نراه غير حرب تطهير فعلاً، تطهير من كل ملمح قد يكون إنسانياً".

محاصرون حد الضرب..

بقي المستشفى محاصراً من جميع المداخل بقوات الجيش، لا أحد يستطيع الدخول أو الخروج، والقوات تعيث في باحة الطوارئ تحطيماً لكل شيء، ومنعاً لأي حركة هواء تتنفس، ونداءات الاستغاثة تصل من مختلف مراكز البحرين الصحية، والمستشفيات الخاصة، ولا إسعاف يستطيع أن يغادر بوابة السلمانية لإحضار المصابين. "سمعنا أن وزير الصحة حينها نزار البحارنة قد اجتمع برئيس الأمن من أجل السماح للإسعاف بالذهاب لإحضار الحالات الخطرة من المصابين. تصلنا مكالمات من المراكز الصحية عن حالات لا يستطيعون التعامل معها. هناك إصابات نزيف وبحاجة للدم والمراكز غير متوفرة على بنك دم. هناك جثث. الدكتورة خلود الدرازي كانت تتصل لنا من مركز البديع وتقول إن لديها حالة ولادة، وهي بحاجة لمعدات لتتمكن من توليدها هناك. لم يسمح لنا".

تكمل زهرة "عند الساعة 12 ظهراً، وبعد محاولات منهكة من وزير الصحة، سمح بخروج عدد من الأطباء لإحضار الحالات، لكن بشرط: الخروج في سيارات الإسعاف الخاصة بالمستشفى العسكري فقط. كان لدينا خوف شديد أن يكون في الأمر خدعة، الكادر الطبي من الرجال قالوا لنا لا تخرجوا أنتم النساء، سنخرج نحن الرجال فقط. وبالفعل تم ضربهم عند بوابة المستشفى وتوجيه الإهانات لهم. أحد الأطباء كسرت إصبع يده. ثم سمح لهم بالمرور بعد أن أتى أحد أفراد الجيش وقال لهم اتركوهم، لديهم إذن بالخروج. أول سيارة إسعاف نقلت 5 مصابين من مركز البديع".

دعنا نغادر..

تكمل زهرة: "أول حالة استلمتها وصلتني من مستشفى ابن النفيس، كانت سيئة جداً، نزيف شديد، نزل مستوى دمه إلى 3، أخذناه إلى العمليات لننقذ حياته وكان لديه ضربة في الشريان. الحالة الثانية جثة وصلت من مستشفى ابن النفيس أيضاً، بدأنا بمتابعة الحالات الحرجة التي تحتاج لعمليات، إحدى الحالات التي وصلتنا رصاصة في البطن في منطقة الأمعاء. كنا نعالج الإصابات ونحن محاطون بالرعب، وأصوات الطيارات فوق رؤوسنا، كان صبحاً خانقاً وموحشاً، بقيت في العمليات وكان معي أطباء وممرضون وطاقم التخدير، معظم طاقم التخدير أجانب".

"حاولنا ظهراً الخروج للذهاب إلى بيوتنا، أهلي وعائلتي في قلق شديد علي، لكن الأخبار تصلنا بأن كل من يحاول الخروج يتم ضربه. أعلنوا في أجهزة المناداة ألا أحد يغادر المستشفى وأن إدارة المستشفى غير مسؤولة عن سلامة من يحاول الخروج. اضطررت للمبيت في السلمانية تلك الليلة. صباح الأربعاء قررت الخروج عند الساعة الثامنة أياً كانت النتيجة. كنت أرى الجيش يقوم بتفتيش

كل من يريد الخروج ويطلبون بطاقتهم السكانية ويسألونهم عن عملهم ويسجلون أسماءهم قبل أن يسمحوا لهم بالخروج. كانت بوابة واحدة فقط هي التي يسمح لنا بالخروج منها وباقي البوابات مغلقة، هكذا غادرت"

تكمل زهرة: "كانت أول جملة قلتها لغسان بعد عودتي للبيت: ما رأيته في المستشفى اليوم لا يمكن احتماله، لا يمكن البقاء في هذا الوضع، دعنا نغادر البلد حتى تهدأ الأمور. كنت خائفة على غسان خصوصاً بعد أن علمت بإلقاء القبض على الدكتور علي العكري من غرفة العمليات، وبعد استهدافه من قبل تلفزيون البحرين"

أنا التالي..

كيف عايش غسان تلك اللحظات بعيداً عن المستشفى؟ "كنت قلقاً جداً على زوجتي وزملائي في العمل، وأموت في اليوم مائة مرة أني لا أستطيع مساعدة المصابين ولا الوصول إليهم، في الوقت ذاته أعلم أن اعتقالي على مسافة خطوات قليلة. صورتي نشرت في التلفزيون مع الدكتور علي العكري وكان مؤكداً أني سأكون التالي. لم نتوقع يوماً أن يعتقل طبيب أو مهني، لكنه حدث. علمت من البعض أن العسكر كانوا يبحثون عني في غرفة العمليات وفي الصيدلية والمخازن، أحدهم أخبرني أن عشرة من الجنود مع الكلاب بأحذيتهم وبأسلحتهم كانوا يكسرون الأبواب يبحثون عن غسان ضيف"

تضيف زهرة: اعتقل علي العكري يوم الخميس وندى ضيف فجر الجمعة، ولا أحد يعرف إلى أين تسير الأمور، الجميع في رعب المجهول الذي ينتظرنا وسط حرب التطهير المعلنة وحرب الإبادة التي بانت معالمها. سريعاً جداً قررنا السفر يوم السبت 19 مارس، لم نخبر أحداً، حتى عوائلنا، ما عدا باسم أخ غسان الذي يسكن لصيقاً من بيتنا، أخبرناه ليتولى أمر الخدم. ودع باسم أخاه غسان وبكى كثيراً، كان لديه إحساس بأن شيئاً ينتظر أخاه". تكمل زهرة: "وصلنا المطار وأدخلنا حقائبنا، عند الجوازات سأل: أنت غسان ضيف؟ أجاب: نعم، أخذوا جوازه إلى الداخل. حاول غسان تهدئتنا بأنها إجراءات روتينية، لكني كنت أعلم أن الأمر انتهى. استدعوه إلى الداخل وضممت أبنائي إلى حضني. بعد قليل جاؤونا واخذوا هواتفنا وحواسيبنا المحمولة. ثم بعد نصف ساعة جاءني أحدهم وقال: يمكنك السفر مع الأولاد، لكن غسان سيبقى معنا. قلت له: لن أسافر بدون زوجي، وسألته: ماذا حدث؟ صرخ في وجهي: انسي غسان انسيه. صرخت: لا أريد السفر أريد العودة إلى البيت. قال لي: سنرجعك نحن. أعادوا لنا أدواتنا وأخرجونا من باب خلفي للمطار وتفاجأت بالأعداد الكبيرة من السيارات والعدد الكبير من المقنعين وحاملي الأسلحة، أركبونا سيارة مدنية ومعنا

مقنعون مسلحون.

عندكم هالقصر وتعارضون؟

تكمل زهرة: "ابنتي لمحت والدها عندما كانت تركب السيارة، كان وجهه مغطى، أُركب في سيارة خلفنا، لم تخبرني إلا فيما بعد لأننا لم نستطع الكلام حينها. كان أبنائي فاطمة (17 سنة) ومحمد (13 سنة) ويوسف (9 سنوات) يرتجفون من شدة الخوف والهلع. شعرت أنه سيغمى عليهم من رعب الموقف الذي لم يتخيلوا أن يعيشوه يوماً.

لم نؤخذ إلى البيت كما وعدونا، بل إلى مكتب التحقيقات الجنائية ناحية الشرطة النسائية، عندما دخلنا كانت هناك غرفة مقفولة من الخارج، فتحوا الباب وأدخلونا، الحجرة مظلمة، في طرف الغرفة سيدة أو فتاة صغيرة الحجم معصوبة العينين مستلقية على كرسي خشبي طويل. لم أعرفها. حوالي 5 دقائق وأخرجونا من الغرفة: "هذي الغرفة ظلام تعالوا قعدوا بره". ثم أتوا لأخذي وحدي كي أدلهم على بيتنا من أجل التفتيش، قلت لهم لا أستطيع ترك أبنائي وحدهم وهم مرعوبون، قالوا لي لا تخافي هم مع الشرطة النسائية في أمان"

أخذوني أولاً إلى مركز مدينة عيسى للتزود بدوريات إضافية. وصلنا البيت ولم يكن معي مفتاح، كنا تركناه في بيت باسم. قالوا لي سنكسر الباب إن لم تفتحي، قلت لهم المفتاح عند أخيه وهو جارنا، طرقوا الباب وعندما رآهم باسم من النافذة خاف أن يكونوا قد أتو للقبض عليه فلم يفتح".

تردف زهرة "كسروا باب بيتنا ودخلوا. كانوا قرابة 20 ملثماً، وسيارات الشرطة محيطة بالمكان، توجهوا مباشرة لغرف النوم نبشوها بالكامل، أمروني بفتح الخزنة واستولوا على كل ما بداخلها من مبالغ نقدية ووثائق أراضي، كما استولوا على جميع أجهزة الحاسوب والهواتف والكاميرات، ثم نزلوا إلى الطابق الأرضي فكانوا يأخذون التحف الموضوعة فوق الطاولات ويقومون بتكسيرها، ثم أخذني اثنان منهم إلى غرفة المكتب، وأخذا في شتمي وإهانتي وفتحا تحقيقاً معي: ليش إنتو معارضين؟ عندكم هالبيت القصر وتعارضون الحكومة؟ وين درست وعلى حساب من؟ قلت أنا متفوقة ومن الطبيعي أن أحصل على بعثة وأدرس على حساب الوزارة. وزوجك؟ قلت: زوجي أيضاً، قالوا: كل هذا وتعارضون الحكومة؟ وتطلعون مظاهرات ضد الحكومة؟

ثم سألني عن باسم وكأنه التفت للتو: أخو زوجك شنهو يشتغل؟ قلت: طبيب. كأن هذه الكلمة كانت القاضية. عمل مكالمة: "يمكن يكون هذا بعد من المطلوبين وناخذه مرة وحدة"، وكان هذا ما حدث.

تواصل زهرة: "ثم استولوا على جميع سياراتنا (5 سيارات)، وكذلك فعلوا مع سيارات بيت باسم، وضعوني في إحدى سياراتهم، لم أكن أعرف حينها ماذا حدث لباسم، فقط رأيتهم ذاهبين نحو بيت باسم، ورأيتهم يأخذون سياراتهم بالكامل. في السيارة قلت لهم أنا خائفة على أبنائي لا أعرف ماذا حدث لهم، فصرخ علي أحدهم: سكتي لا ألحين أطفي الجكارة في عينك!!. عدنا إلى مبنى التحقيقات سألت عن أبنائي بقلق شديد، أخبروني أنهم أخذوهم للبيت، صرخت: لكن لا أحد في البيت، قالوا: بنتك كبيرة وراح تتصرف!!.

هل انتهت زهرة هنا؟ "أخذوني للتحقيق مرة ثانية وكنت أجيب بكل ما أعرفه، فيما المحققة تهددني بالضرب. لم أكن أستوعب ماذا يعني أن أُضرب وأنا طبيبة استشارية! بل لم أكن مستوعبة أن أُعتقل أو يعتقل طبيب فكيف بالضرب والشتم والإهانة!!

"دخل رجلان وبدءا التحقيق معي: زوجك اعترف عليك، لا داعي لأن تخفي شيئاً! قالا هذا قبل أن ينهالا علي بالأسئلة الوقحة: رحتي الدوار؟ تمتعت في الدوار؟ زوجك تمتع في الدوار؟ كم مرة رحتوا إيران؟ أخذني الاشمئزاز من مستوى هذا الوعي الذي يوجه أسئلة بهذه الوضاعة"

"بعد أن أخذ مني الانهاك كل طاقتي، أخبروني أنهم سيأخذوني للبيت، قلت لهم: أنا لن أركب مع رجال، أريد شرطيات. أركبوني مع شرطيتين، وصلت البيت كان الباب مكسراً ومشرعاً، دخلت مباشرة إلى بيت باسم، كانت العائلة قد اجتمعت هناك والجميع في حالة هستيرية، والدا غسان وأخوته وزوجة باسم، أخيراً احتضنت أطفالي".

فاطمة..

"كان الجميع في حالة مزرية، وأنا أحاول أن أقوي نفسي من أجل الأطفال، لم يكن سهلاً اعتقال أخوين من العائلة نفسها، كان والدا باسم وغسان منهارين. جاءتني ابنتي فاطمة تخبرني عما حدث لهم في غيابي: هل تذكرين الفتاة التي شاهدناها مستلقية في الغرفة المظلمة؟ لقد أخرجوها أمامنا وضربوها ضرباً مبرحاً حتى أغمي عليها من شدة الضرب!! كان من ضربها(رجال) يا ماما!! إذا كانت فتاة وحصلت على كل هذا الضرب أمامنا، ماذا سيحدث في البابا؟!!"

كيف عايشت فاطمة لحظاتها هناك مع أخوتها الصغار؟ تقول:"بدأت الصدمة تتزايد تدريجيا مع مرور الساعات، لم أستطع تصديق ما يحدث، أمسكت بيد أخي الصغير الذي كان يرتجف عندما دخلنا مبنى التحقيقات الجنائية في العدلية، أربكني الدخول إلى ذلك المكان، نحن لسنا مجرمين!!

أخذوا أمي بعيداً بينما جلست مع أخوي لمدة تقارب الساعتين. رأيت التعابير على وجوه أخوي تتحول من القلق الى الخوف والرعب، كان علي أن أتماسك لأجلهما"
تكمل فاطمة: "لم أنم تلك الليلة، كنت واثقةً بأن أبي وعمي سيعودان تماماً كما عادت أمي، بقينا جميعنا ننتظر على وجل لعدة أيام بعد ذلك، نقفز كلما سمعنا صوت جرس الباب"

نحن بخير..

لأكثر من أسبوع لم تعلم العائلة عن باسم وغسان شيئاً، اتصلا في الاسبوع الثاني كل منهما بزوجته في مكالمة مقتضبة: نحن بخير. انتهت المكالمة. كانت هذه المكالمة ضرورية فقط ليتأكد الجميع أنهم لا يزالون أحياء، لكن لا شيء آخر.

تكمل زهرة: "ذهبت مع عمي (أبو باسم) ومها زوجة باسم لمقابلة أحد الضباط في القضاء العسكري، كنا نريد فقط أن نأخذ لهم ثيابا، قال لنا: لا داعي كل شيء متوفر عندهم، ثم أخذ يطمئن عمي الذي كان منهاراً: "لا تخاف عليهم كل شي موجود عندهم وتعذيب ما فيه". لم نكن نتصور أن يتم تعذيب شخصيات مهنية مثل الأطباء، لكن كم كنا واهمين، لم يبق شيء فوق التصور إلا وحدث في البحرين. قصص التعذيب بدأت تتسرب لنا فيما بعد"

"اسبوعان مرا علينا في هذه الحال قبل أن يتم اعتقالي أنا أيضاً في الاسبوع الثالث منذ 19 مارس وحتى 11 إبريل. لم أتوقع اعتقالي على الإطلاق. هكذا بقى أطفالنا بلا أم ولا أب لمدة 3 أسابيع كاملة هي مدة اعتقالي.

اعتقال زهرة..

"كنت في العمليات عندما جاءني اتصال: مطلوبة في مكتب رئيس الأطباء" تقول زهرة "توقعت أن يجرى معي تحقيقاً لأن لجان التحقيق كانت قد بدأت. في طريقي إلى هناك رأيت الدكتور عبد الشهيد فضل. كان مطلوباً أيضاً. دخلنا مبنى الإدارة في مستشفى السلمانية التي تحولت إلى ثكنة عسكرية، عساكر عند كل باب وكل ممر. أتى 3 ملثمين ونادوا بأسمائنا أنا و4 زملاء آخرين منهم عبد الشهيد فضل ونبيل تمام. أخذوا هواتفنا وقالوا سنأخذكم للتحقيق نصف ساعة وسترجعون. سألنا كيف سنذهب؟ قالوا: بسياراتكم. لم تكن لدي سيارة، فسياراتنا تم الاستيلاء عليها بالكامل. ركبت مع نبيل تمام في سيارته ومررنا بنقاط تفتيش ثلاث. أحد العساكر عند الباب بصق علينا وقال: لعنة الله عليكم وعلى وجوهكم".

"دخلنا التحقيقات ونادوني، سمعت أحدهم يقول: وصلنا الأمر، من فورها قامت الشرطية بتصميد عيني وسحبتني وأركبتني سيارة، في الطريق كانت تنزل رأسي للأسفل كي لا يظهر أن هناك سيدة مصمدة عينها، سمعتهم يقولون أننا ذاهبون إلى عيادة القلعة. لم أفهم لماذا العيادة. هناك جاءت المرضة وقاست ضغطي وقالت حرارتها مرتفعة وتحتاج سيلان وأدوية وعلاج لمدة ثلاث ساعات. في الحقيقة لم يكن بي شيء. هل كانت تريد إبقائي في العيادة رحمة بي كي لا أُعذب؟ لا أعرف.

الشيخة نورة..

تكمل زهرة: "في العيادة تمت إهانتي وشتمي بكل الطرق: إنتو ما تستاهلون تكونون دكاترة. إنتو خونة وشهاداتكم هذي ما تستاهلونها يا صفويين يا مجوس. إحداهما كانت تستهزئ: ليش هذا السيلان حاطينه في الوريد، خله نبطله ونحطه في بوزها ونخنقها أسرع لنا. هذي ما سوينا فيها شي ومرضت الله يعين".

"لم أعرف لماذا هذه الفحوصات، ربما بسبب الشهداء الذين قضوا تحت التعذيب، فصاروا يفحصون المعتقلين قبل إنزال التعذيب الجسدي بهم. في التحقيق تعرضت للضرب على يد الشيخة نورة الخليفة. تضرب بمجرد أن تدخل. سألتني عن عدد الجرحى الذين عالجتهم وكنت أجيب بعفوية. كنت أشرح لها الحالات التي مرت علينا، ومنها إصابات الرصاص، فكانت تستنكر علينا إدخالهم العمليات، وتقول بأننا نتعمد فعل ذلك لكي نقول إن هناك إصابات خطيرة، ولكي نقول للعالم إن الحكومة قتلت وضربت، ثم ذكرت الشهيد عبد الرضا وقالت إنه قد تم توسيع جرحه وأنه لم يكن بحاجة لعملية. كنت مندهشة: هل من المعقول أن يكون هناك أناس يفكرون بهذه العقلية؟ أن يفعل طبيب مثل هذا؟ كانت تستمر في ضربي وتقول: شكلك ما بتتعاونين ويانا، بوديك حق ناس يعلمونك شلون تعترفين"

هراء جُهّال..

"أخذوني لغرفة في الأعلى. كنت أسمع أصوات رجال يتكلمون ويضحكون مع بعضهم، فجأة صرخ علي أحدعم: إنت زهرة زوجة غسان؟ قلت نعم، فأخذ يسب في غسان وقال كلاماً قذراً لا أستطيع قوله. ثم قال لي: نحن هنا 24 ساعة وليست لدينا مشكلة، وتعرفين جيداً ماذا يمكن أن يحدث لك إذا لم تعترفي. أنت متهمة بسرقة أدوية من العمليات وأخذها إلى الدوار. قلت له: لا يمكن، لأن الأدوية الموجودة في العمليات هي أدوية تخدير فقط، ولا يمكن استخدامها خارج غرفة العمليات لأنها تتسبب في موت المريض، خصوصاً إذا لم تكن هناك أجهزة تنفس. شعر أن ما يقوله هراء ينم عن الجهل، فقال للشرطية: بس خذيها"

تكمل زهرة: " أوقفتني في الكوريدور لفترة طويلة قبل أن تدخلني مكتب ما، سمعت صوت شخصين يتكلمان. شعرت بالدوار من شدة التعب. سألتهم إن كان يمكنني الجلوس لأني أشعر بالدوار. أجلسني أحدهما فصرخت عليه الشرطية: ليش تقعدها هذه ما تستاهل تقعد. أوقفوني مرة أخرى. ثم أخذوني لمكتب الشرطيات وتم إعادة التحقيق من جديد. تم توقيعي على أوراق لم أر منها إلا مكان التوقيع. ترفع العصابة من عيني وتضع إصبعها على مكان معين، وأنا أوقع".

"في اليوم الثاني أخذوني إلى تحقيق النيابة العسكرية، هكذا أخبروني، التحقيق يستغرق 2-5 ساعات أقضي معظمها واقفة. كانوا يريدونني أن أثبت تهماً على غسان، وكانوا يكتبون في المحضر عكس الكلام الذي أقوله، كنت أسمع أحدهم وهو يملي على الكاتب ما يريدون، أسمعه وهو يملي له يكتب عن اعترافي بأن غسان مسؤول عن الإعلام في المستشفى، وأننا نعالج المتظاهرين الذين ينادون بإسقاط النظام بأوامر من علي العكري. لم أكن أستطيع فعل شيء. في نهاية التحقيق سألني: هل هناك شيء آخر تريدين قوله؟ قلت : فقط أريد الإطمئنان على أولادي. قال: طيب. عندما أعادتني الشرطية وقلت لها هذا، قالت: ما عندنا أمر".

عفو ملكي!!

"انفرجت أساريري عندما قالت لي الشرطية: يالله شيلي شنطتك وأغراضك". تقول زهرة، "ظننت أني سأخرج وأعود لبيتي وأولادي، قلت للشرطية: لدي أغراض كثيرة هنا، هواتف وكومبيوترات وسيارات. ضحكت وقالت: ما عليه ما عليه. كانت معي الممرضة ضياء جعفر. أخذونا إلى مركز مدينة عيسى. كم كنت متفائلة!".

تكمل: "لم أتمكن من الاتصال بأولادي قبل عشرة أيام، كان ذلك عندما انتشر خبر عن زيارة "أشتون" للبحرين فصار الضباط يزورونا في الزنازين ويتكلمون معنا. ومنها سُمح لنا بالاتصال. لم أستطع معرفة أي شيء عن غسان. كنت قلقة عليه جداً. بقيت 25 يوماً قبل أن يخلى سبيلي".

"في يوم الإخلاء تم التحقيق معي مرة أخرى مع مبارك بن حويل. قال لي: هذا عفو ملكي جاينكم ولو أنا ما أطلعكم على هذي السوايا اللي سويتونها لازم تنسجنون. خرجنا على هذا الأساس، وظننا أن الأمر انتهى عند هذا الحد. لم تلبث أن وصلتنا إحضارية في 5 يونيو لحضور المحكمة العسكرية".

كسر الأبناء..

"خلال فترة سجني انتقلت والدتي للعيش مع أبنائي، أيضاً بيت عمهم حولهم وعائلة غسان ووالداه كانوا معهم معظم الوقت. كانوا يكتبون لي رسائل تصلني بعد فتحها وقراءتها. يطمئنوني أنهم أقوياء رغم افتقادهم الشديد لي ولوالدهم. يقولون نحن فخورون بكم ونعرف أنكم لم تفعلوا أكثر مما يمليه عليكم واجبكم المهني. كانت العائلة تحيطهم بكل الرعاية والحنان لكن غياب الوالدين انكسار كبير. أذكر أول مكالمة لي كان محمد يبكي بحرقة: ماما وين انتين ويش صار ليش؟ كنت أنهار بعد كل مكالمة مع أبنائي وأعود للزنزانة في حالة يرثى لها. كنت مطمئنة أنه لن ينقصهم شيء، لكن ما حال نفوسهم وهم يفكرون فيما قد يحدث لنا ولا يعرفون مصيرنا".

وجبر فاطمة..

فاطمة الابنة البكر، تروي كيف كبرت سريعاً بغير اختيارها، "بعد ثلاثة أسابيع من اعتقال والدي، عدت من المدرسة لأجد جدتي في المنزل، لم تكن أمي قد عادت من العمل بعد، رفضت ان أصدق أنها اعتقلت أيضا، كان هذا فوق طاقة احتمالي واستيعابي، ألا يكفي أبي وعمي؟ أقنعت نفسي أنها تعمل على حالة طارئة أو أنها تأخرت في المستشفى. كان هاتفها مغلقاً. بعد الاتصال ببعض الزملاء من المستشفى اكتشفنا أنها أخذت للتحقيق ولا أحد رآها بعد ذلك، ومع ذلك فقد أخبرنا مركز الشرطة حين اتصلنا نسألهم عنها أنهم لا يعرفون شيئاً".

"هنا أدركت الأمر، لم يعد لدي خيار للهروب من تلك الحقيقة: أبي وأمي معتقلان ومفصولان عن العمل، أنا وإخوتي الآن بلا والدين، كنت في صدمة نفسية قوية بسبب هذه المحنه التي واجهتني، لا زلت أعاني من أحلام مزعجة وأجد صعوبة في التركيز على دراستي. رغم ذلك، لم يفتني يوم دراسي واحد، ولم أتغيب قط، فوالدي دائما يؤكد على أهمية التعليم، وأنه سلاحنا الذي لا يمكن لأي أحد أن يسلبه منا.

كفتاة في السابعة عشر من عمرها، كان غريباً أن تصير لدي كل تلك المسؤوليات فجأة، كان علي أن أدير منزلاً بأكمله، وأعتني بجدتي المنكسرة، وأخويي الصغيرين الفاقدين، وأقنعهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام في نهاية المطاف، وأن أدفع الفواتير، وأواظب على الذهاب إلى المدرسة، وأن أجتهد لأحافظ على نسبة تفوق تخولني لدراسة الطب الذي هو رغبتي وطموحي، وكان علي أن أشرح لأخوتي أن والدي أعتقلا دون أن يرتكبا أي جرم، وأننا لا نستطيع فعل الكثير لمساعدتهما" فاطمة غسان ضيف.

برنامج الراصد

" قبل أيام من إعلان قانون الطوارئ، تم تنفيذ مخطط إعلامي كبير وخطير لتبرير ضرب السلمانية الذي من الواضح أنه بات مخططاً له. في برنامج الراصد بتلفزيون البحرين، تم اتهامي والدكتور العكري وعدد من الأطباء بأننا مخربون وإرهابيون، وأننا قمنا باحتلال مستشفى السلمانية واحتجزنا رهائن من الأطباء من الأخوة (السنّة) وأن الطائفة السنية في خطر، وأن هناك أسلحة وسيطرة على الأقسام، وغيرها من الأكاذيب، وبدأ الترويج الإعلامي لهذا بكل الطرق. تأكدت عندها أن هناك ما يتم تدبيره لنا للانتقام منا على معالجة الجرحى".

يكمل غسان: "قمت بالاتصال بالوكيل المساعد لشؤون المستشفيات الدكتور أمين الساعاتي في نفس الليلة، طلبت منه التدخل باعتباره مسؤولي المباشر، وأن كل ما قمنا به داخل المستشفى بعلمه وموافقته. لم يكترث، وتكلم معي بلهجة باردة: "ما عليك منهم، هذلين ما بسوون شي ولا عندهم سالفة". ثم أعطى الهاتف للدكتور عادل بوجيري رئيس قسم الأطفال في السلمانية، الذي حاول تطميني هو الآخر بأنه سيتصل بالتلفزيون وسيخبرهم أن المستشفى آمن، وأن ما يطرح عن هؤلاء الأطباء غير صحيح. لا أعرف ماذا حدث بالضبط، لكني سمعت أن الدكتور عادل حاول الاتصال فعلاً".

لهذا كله، طلب غسان إجازة 3 أيام ابتداء من يوم الثلاثاء 16 إلى الخميس 19 مارس، وبعد اعتقال العكري تيقن أنه هو التالي "عرفت أيضاً أن الدكتور محمود أصغر تم اعتقاله من مجمع السلمانية الطبي، أثناء تواجدي في المعتقل كان المخبرون والمعذبون، يقولون لي إنهم أرادوا اعتقالي متلبساً داخل المستشفى، لتثبيت تهمة الاحتلال علي كما فعلوا مع العكري، لكن عدم وجودي أربكهم"

"يوم الجمعة، بلغني أنهم هجموا على قسم العمليات. الدكتور عارف رجب يقوم باجراء عملية، وكانوا يظنون أنه أنا، فدخلوا عليه وهددوه بالسلاح، وحاولوا معرفة معلومات عني وهددوهم ليدلّوهم أين أختبئ في السلمانية، ذهبوا إلى الصيدلية، تم تكسير مجموعة من الأبواب ظناً منهم أني مختبئ هناك".

في المطار..

"هكذا قررنا السفر"، يكمل غسان، "في تلك الليلة ودعت أخي باسم، وحده من أعلمته بقراري، كانت لحظة الوداع مؤلمة وتحمل الكثير من الشعور بالفقد. خرجت من البيت، مررنا بعدد من نقاط التفتيش، لم يتم توقيفنا، مجرد أسئلة عادية. الأصعب كان الدخول إلى المطار، تفتيش

واطلاع على الجوازات والأوراق. لكننا عبرنا. انتهينا من الـ(check in)، أدخلنا الشنط، أخذنا بطاقات صعود الطائرة. عند الجوازات قدمت جواز ابني محمد: وين بتسافرون؟ لندن عن طريق أبوظبي. تم الختم. جوازي كان التالي. عرضه على الكومبيوتر، طالع فيه، سألني: أنت غسان؟ قلت: نعم. قال لي: تفضل على جنب لو سمحت. لم أكن خائفاً، كنت أحاول أن أكون قوياً فعلاً، وأن لا أبدو متوتراً أو مرتبكاً".

يكمل غسان "جاء مجموعة من الأشخاص بلباس مدني، اقتادوني إلى غرفة بجانب مكتب الجوازات، وهناك تم وضع كيس أسود على وجهي مباشرة، و(هفكري) من الخلف، وبدأ الضرب".

"حوالي ساعة كاملة، لم يكن شيئاً آخر غير الضرب في كل أنحاء الجسم: الوجه والرأس والرجل والبطن وكل مكان. الضرب كل شيء: بالأخشاب وبالهوز وبالأيدي، كانت مجموعة تدخل وأخرى تخرج، والكل يضرب".

الكيس الأسود..

"الشيء الوحيد الذي أثر فيّ وقتها هو الكيس الأسود، فأنا لدي خوف من الأماكن المغلقة، وكان هذا الكيس الأسود الخانق يرعبني. قلت لهم: ارفعوا هذا الكيس عن رأسي، أجاب أحدهم: سنقتلك قبل أن نرفعه، ستموت وأنت داخل هذا الكيس الأسود. قلت لهم: لماذا تفعلون بي هذا؟ أنا طبيب ولست مجرما هاربا، لقد خرجت من بيتي ولم أفعل شيئاً. كانوا يزيدون في الضرب"

يكمل غسان: "تم اقتيادي إلى خارج المطار، والكيس الأسود مازال يخنق رأسي ورقبتي، شعرت أني سرت مسافة ليست قصيرة قبل أن يركّبوني سيارة، تم إنزال رأسي للأسفل. قطعنا مسافة طويلة ثم وقفت السيارة في مكان ما، وبمجرد نزولي تم الهجوم علي بالضرب والركل والصفع من كل مكان وفي كل مكان، خلال دقائق فقدت وعيي وسقطت مغشياً عليّ".

يتابع: "لا أعرف ماذا حدث بعدها، لكن أتوقع أنهم خافوا أن أكون قد مت، استعدت وعيي وهم يرشون الماء على وجهي. من بين الأصوات ميزت صوت امرأة عرفت فيما بعد أنها الشيخة نورة الخليفة، كانت تقول لي: غسانو إنت تقدر تطيّح خليفة بن سلمان؟ كفو، وانهالت علي بالضرب واللكمات".

"أخذوني بعدها إلى مكتب مبارك بن حويل، وبدأ حفل الزار من الكلام السوقي والشتم والسب

واللعن والاستهزاء والسخرية وكل شيء: عائلتي أهلي ومذهبي ورجال الدين وحتى أهل بيت الرسول. كانت الأسئلة جميعها تدور حول علي العكري، وأنه المخطط لكل شيء، وأنني ظهرت على قناة الجزيرة بأمر منه وقلت ما قلت بتوجيهه. وأننا نحن من أدخل الإعلام إلى السلمانية، وأن عبد الرضا بوحميد نحن من وسّع جرحه وكسر جمجمته وقتله" يضيف غسان "التحقيق الأول لم يتجاوز الساعة. أخرجوني من غرفة مبارك بن حويل، وفي الطريق كنت أسمع صراخ باسم أخي وهو يعذب: "لا تضربوني.. لا تعذبوني.." كان وقع صوته علي مثل الصاعقة!! كيف اعتقلوا أخي ومتى؟!"

زيدوني ضرباً..

لم يتعرض غسان لتجربة اعتقال من قبل، لهذا لم تكن له خبرة في الآليات التي يستخدمها المعذبون في اللعب على نفسيات المعتقلين ومشاعرهم وأعصابهم، ولم تكن لديه خبرة فيما يقوله وما لا يقوله في التحقيقات. "كانت تجربة الاعتقال بكرا بالنسبة لي، لهذا كانوا يسألوني، وكنت أجيب بالحقيقة فيزيدوني ضرباً، في حين هم يكتبون ما يريدون. كذلك كان إسماعي لصوت أخي متعمداً، لكنه هزني بعمق وكسرني". يكمل غسان: " المهم أني مجبر، كنت أوقع على حزمة اعترافات لا أدري عنها شيئاً، طلبت محاميا، قالو لي: "لما نوديك القبر بيجيك المحامي هناك". تلك الليلة قضيناها واقفين بالكامل. لا أعرف أين كنت، لكن كان معي مجموعة من الأشخاص. لأنه كلما دخل واحد ضرب الجميع، وكنت أسمع أصوات المعذبين معي. عرفت أن باسماً معي في نفس المكان. بقينا على هذا الحال يوما كاملا بلا أكل ولا حمام ولا سماح لنا بالنوم.

بعدها نقلت إلى سجن انفرادي. مكان صغير جداً حوالي متر في متر ونصف. باسم في غرفة لصيقة لي. كنت أسمع صوته. قضينا فيها قرابة أسبوعين من الضرب والتعذيب القاسي القاسي جدا. في نفس الليلة وفي وقت متأخر جداً، دخل علي عدد من المعذبين، تبينت أن أصولهم غير بحرينية من لهجاتهم. يدخلون علي ويسألونني عن عملي وراتبي ويبدأ السب والشتم والإهانة. أخذني شرطي أردني إلى الخارج وهو يضربني. كنت أقع على الأرض من شدة ضرباته. أخذني لمكان ما، ونزع الهفكري. عرفت أنه سيأخذ بصمات. كل مرة يأخذ البصمات بالخطأ ويضربني: "إنت ما تبي تاخذ البصمات صح". أنا لا أعرف كيف يتم أخذ البصمات أصلاً، كان هو من يتحكم في يدي. بعدها تم تصويري وأخذني للحمام لأغسل يدي عن الحبر. لم يكن هناك صابون، وثمة زجاجة مكسورة. نزع عني العصابة لأغسل يدي. رأيت شكلي في الزجاجة. راعني شكلي من النفخ الذي صار فيه. هل هذا أنا حقاً؟!"

كان ممنوعا عني قضاء الحاجة. فقط غسل سريع لليد. بعدها أعادني إلى نفس الزنزانة. قضيت

الليالي السبع مصمد الأعين ممنوعاً من الجلوس، والكل يدخل يضرب ويخرج. ممنوع أن تجلس أو تستند على جدار. ولو دخل عليك وأنت مستند إلى جدار سيكون الثمن غاليا جداً. أحياناً كنت أنهار وأقع. وأشعر بدخوله فأحاول النهوض، فتزداد وجبة الضرب. لم نكن ننام ولم ندخل الحمام. كنا نقضي حاجتنا في ملابسنا، كان من الجيد أننا لا نأكل طعاماً وإلا لصار الوضع أسوأ مع حاجاتنا.

الآسيوي الرحيم..

في اليوم الرابع دخل شرطي أكثر رحمة ولباقة، تكلم بلهجة آسيوية، قال لي: أنا أشعر بك، أنا إنسان مثلما أنت إنسان، أجلس الآن وسآتي لك بالطعام. كنت أفكر: إذا أكلت كيف سأدخل الحمام؟ قال لي: سأتركك تدخل الحمام. قال لي بلكنة آسيوية: دقيقتين آني أبند باب، أشيل العصابة والهافكري، انت تاكل، دقيقتين وآني يدخل عليك"

يكمل غسان: " لم آكل شيئاً، فقط شربت بعض الماء، دخل علي بعد دقيقتين، وسألني: لماذا لا تأكل؟ قلت له: أنا أريد زوجتي وأولادي، أنا لم أفعل شيئا. قال لي: "ما يخاف إنت، أنت بس كم يوم ويروح البيت"، بمجرد أن قال لي ذلك انفعلت وبكيت. أخذني إلى الحمام وقال لي اغسل وجهك. أتى لي بصابون. سمح لي بالتبول. أعادني إلى الزنزانة وقال لي: كل شوية. أكلت قليلاً".

الاتصال الأول..

بعد أسبوع أخرجونا من الحبس الانفرادي،أخذونا إلى صالة، كنت أشعر أن أخي باسماً معي. قالوا لنا: "بنخليكم تتصلون لأهاليكم، فقط نصف دقيقة لا غير، أخبروهم أنكم بخير فقط، لا تتكلم عن ضرب ولا عن شيء وإلا سترون الأسوأ".

أخذونا لغرفة مظلمة، يقف معنا شرطي، أخذ مني أرقام الهواتف. جميعها لا يمكن الاتصال بها لأنهم استولوا عليها، أخيراً رن هاتف رفعته زهرة. طمأنتهم وسمعت صوت من كان موجوداً منهم وارتحت قليلاً.

لم يسمحوا لنا بالاتصال مرة أخرى طوال 21 يوما قضيناها في مبنى التحقيقات. كان الطقس بارداً ومع هذا يشغلون المكيفات ويوجهونها علينا بطريقة مهلكة. بعد أسبوع سمحوا لنا بالجلوس أثناء الوجبات الثلاث وشرب الماء والذهاب إلى الحمام. كان الحمام قمة في القذارة وفي الطريق إليه لا يصادفك أحد منهم إلا ويضربك بما لديه: بيده أو هراوته أو حذائه أو أي شيء تحت متناوله. لهذا كان الذهاب إلى الحمام انتحاراً بالنسبة لنا.

"من شدة التعذيب الذي تلقيته بالضرب على البطن والظهر، صار البول عندي والخروج مليئاً بالدم" يقول غسان، ويكمل "إحدى الليالي بسبب الآلام الشديدة في بطني وظهري أخذوني إلى عيادة القلعة. وهناك ذقت تعذيباً آخر من الممرضين والأطباء قبل أن يعيدوني، كان الذهاب إلى عيادة القلعة جحيما آخر".

"في التحقيق الذي يمتد لقرابة 3-4 ساعات نقضيها وقوفاً، اللغة الوحيدة المستخدمة هي الضرب والإملاء عنك بما لم تقله. ستأكل وجبات من الضرب بالأخشاب والأهواز والأحذية والصعق بالكهرباء والتهديد باغتصاب زوجتي، أختي، ابنتي، أمي.. الخ وعليك أن تلتزم الصمت. كانوا يعرفون كل شيء عن حساباتي البنكية ويخبرونني بها، عرفت فيما بعد من زهرة أنهم سرقوا كل وثائقي وأوراقي من الخزنة الخاصة بي في البيت" يكمل غسان: "الفكرة الوحيدة المراد تثبيتها من التحقيقات هي الاعتراف بالاحتلال والأسلحة والاحتجاز والتمييز وسرقة أكياس الدم".

يردف: "أكثر الاتهامات سخافة من تلك التي وجهت لي: الكلية اللي شلتها من بطن المريضة السنية وين وديتها؟؟ كنت أجيبه: أنا طبيب أسنان ولست جراحاً. يقول: بلى، لقد اعترفوا عليك، وزوجتك اعترفت، أنت فتحت بطن السنية وأخذت كليتها، أين أخذتها؟!!! اعترف فوراً.

أخي باسم..

"كان أكثر ما يهزني ويكسرني صوت صراخ أخي باسم وهو يتعذب" يقول غسان بتنهد منكسر. يكمل "يتعمدون إسماعي صوته وهو يتعذب. كنت أنهار من الداخل وأتمنى لو تبلعني الأرض. كانوا يركزون الضرب على رجله وركبته تحديداً. هل لأنه جراح ركب؟ تورمت رجله وتضخمت. لم أكن أرى لكني كنت أسمعه وهو يقول لهم: "إذا ما أخذتوني للمستشفى رجولي هذي راح تنقص". فهمت أن الأمر وصل إلى درجة خطيرة معه فهو متخصص في الركب ويعرف ماذا يقول، ومن المؤكد أنه يعنيها حين يقول (راح تنقص). كان يشعر بها ستنفجر من شدة التضخم الذي وصلت إليه. كان عجزي عن مساعدته أو الوصول إليه يقتلني.. يقتلني..

التحقيق الأخير..

"التحقيق النهائي معي استغرق قرابة 7 ساعات". يكمل غسان: "أخذوني إلى مكان لا أعرفه، كان المحقق هادئاً ولأول مرة يسألني أحد عما حدث ويسمع مني. سألني عما حدث في السلمانية، فبدأت منذ أول اتصال تلقيته من الطبيبة المناوبة واسترسلت في الكلام. بقيت أتكلم بأريحية لدقائق قبل أن يفتح الباب ويدخل أحدهم ويشبعني ضرباً بالحذاء وصفعات باليد، وقعت على الأرض وهو

يصرخ فيّ: تكذب غسانو.. يابن الـ(....) يا بن الـ(....). قال له المحقق: اتركه وابتعد، أنا من أحقق معه هنا. استمر التحقيق وكان مطلوباً تأكيد نفس التهم حول علي العكري بأنه ضد الحكومة وطالب بإسقاط النظام وأنه كان يريد أن يصير وزيراً... الخ. في نهاية التحقيقات، أحضروا لي حوالي 40-50 صفحة أُمرت أن أوقع عليها كاملة دون أن أقرأها. فعلت"

في سجن الحوض الجاف، وضعنا الأطباء في عنبر رقم 5. مع الوقت بدأ عدد المعتقلين يتزايد، وصلنا 14 شخصاً في الزنزانة الواحدة. كانت الزنزانة تضيق بنا وكذلك المعاملة. لكم أن تتخيلوا الحالة التي صرنا فيها، كل هذا العدد الكبير في زنزانة واحدة، ملابسنا لم تتبدل منذ 3 أسابيع جلبونا بها من التحقيقات، تفوح من أجسادنا وثيابنا رائحة النتانة والنجاسة (لم يكن مسموحاً لنا دخول الحمام في الأسبوع الاول)، بالإضافة إلى عدم السماح لنا بالاستحمام".

كانت زهرة قد أخذت ملابس لغسان عندما كان في التحقيقات، لكنها لم تعط إليه وبقي بثيابه نفسها لأكثر من شهر ونصف. يكمل: "في سجن الحوض الجاف، ولمدة أسبوعين لم يكن هناك صابون. كنا نقضي حاجتنا وأبواب الحمام مفتوحة، تعطى لكل زنزانة 3 دقائق لاستخدام الحمام، 14 سجينا عليهم أن يوزعوا أنفسهم لاستخدام الحمام خلال 3 دقائق"

يا قلبي يا زهرة..

لم يكن غسان يعلم عن اعتقال زوجته زهرة حتى اعتقل الدكتور عارف رجب، ووضع معهم في الزنزانة ذاتها، وجاءه بالخبر المؤلم "هذا الخبر جعلني أنهار وأبكي كثيراً. لم أتوقع أبداً أن يتم اعتقال زهرة. بقيت قلقاً عليها جداً، لم أعرف كيف يمكن أن تحتمل مثل هذا الوضع الذي نعيشه. أعرف تماماً طبيعة زهرة وعاداتها ولا أتخيل أنها تقدر على هذا الوضع، وكلما سمعت المعتقلين يتحدثون عن تعذيب النساء والتعامل معهم ازددت قلقاً وخوفاً عليها. بقي ذهني مشغولا بها وعليها طوال الوقت. يا قلبي يا زهرة"..

مبنى التعذيب لا التحقيق

في سجن الحوض الجاف لم يكن يتم تعذيب المعتقلين، ثمة مكان له براعة التعذيب وفرادته، إنه مبنى التعذيب المسمّى بمبنى التحقيقات في العدلية. يقول غسان: "من أجل وجبات الضرب والتعذيب كانوا يأخذوننا إلى مبنى التحقيقات في العدلية. 4-5 من الكادر الطبي يأخذوننا معاً إلى هناك بهدف التعذيب طبعاً لا التحقيق. يتم ضربنا وإهانتنا وتشغيل المكيفات وتوجيهها علينا، نقضي ليلة أو ليلتين بهذا الوضع دون نوم ودون لحاف.

يكمل غسان: "في إحدى المرات أخذونا أنا وأخي باسم وإبراهيم الدمستاني بالإضافة إلى 2 من المسعفين إلى التحقيقات. ظننا أنها الوجبة المعتادة من التعذيب. تم تعصيب أعيننا كالمعتاد وتوثيق أيدينا للخلف. أركبونا في مصعد وأُدخلنا إلى غرفة. قال لي أحدهم: غسان إذا أفرجنا عنك شلون نتصل بك؟ كان يستهزئ بي، لكني كنت في حال أتعلق فيه بكل قشة، وكل كلمة أحملها بإيحاء إيجابي. أعطيته رقم هاتفي. أحضروا لنا رزمة جديدة من الأوراق وأمرونا بالتوقيع عليها دون قراءتها، ثم أعادونا إلى سجن الحوض الجاف"

الاتصال الثاني..

المرة الأخيرة كان أخذنا إلى التحقيقات مختلفاً. كيف؟ يقول غسان: " أخذونا أنا مع باسم وعلي العكري ونادر الديواني ومحمود أصغر وسيد مرهون وابراهيم الدمستاني وعبد الخالق العريبي. تم نقلنا إلى قسم التحقيقات. كان عصر الجمعة. العصابة على أعيننا والأفكري يوثق أيدينا إلى الخلف. في ذلك اليوم عاملونا معاملة مختلفة جدا. أعطونا بطانية واحدة لكل ثلاث أو أربعة اشخاص. أتذكر أنا وباسم ونادر الديواني في بطانية واحدة، كما أعطونا وجبة، وسمح لنا بالصلاة والنوم. كنا متعجبين من هذه المعاملة غير المسبوقة".

يكمل غسان "أيضاً سمح لنا بالاتصال بعوائلنا لمدة دقيقتين لكل واحد منا. كنت قلقاً جداً على زهرة ولا أعرف ما إذا أفرج عنها أم لا تزال معتقلة. كان الاتصال الثاني لي بعد شهرين من الاعتقال، قلت لهم دعونا أنا وأخي باسم نجري مكالمة في نفس الوقت لنحادث والدينا في مرة واحدة. وافقوا. أدخلونا مكتب المعذب صلاح المقهوي. لم يكن مكترثاً أن نعرفه فقال لهم: شيلوا العصابة عنهم".

"اتصلت بهاتف زهرة، جاءني الجواب: لا يمكن الاتصال. اتصلت بهاتف ابنتي فاطمة وتكلمت معها ومع محمد ويوسف إخوتها وكانت والدتي معهم وقد وضعوا الهاتف على مكبر الصوت، مباشرة قالت والدتي أن زهرة خرجت لشراء حاجيات للمنزل. فهمت أن زهرة لا تزال معتقلة وأن والدتي لا تريد إخباري كي لا أنهار من القلق والخوف عليها. كان الأطفال يظهرون قوة عالية وصموداً. كانوا يطمئنوني: "بابا إحنا زينين ناكل ونشرب ونروح المدرسة ومو ناقصنا شيء"، صوتهم وصمودهم هدأني وطمأنني إلي حد ما".

صابون وشامبو وشمس؟!!

لم يقف الأمر عند هذا الحد من الكرم المفاجئ في التعامل، "صباح اليوم الثاني، أعطونا وجبة إفطار، كنت منفعلاً وأبكي. أخذوني إلى الحمام وأعطوني شامبو وصابون وسمحوا لي بالاستحمام.. يا إلهي!! معقول ما أرى؟! بعد أكثر من شهرين أخيراً صابون وشامبو؟!! كان الجو باردا والماء كذلك ولا توجد فوطة وارتدينا ملابسنا القذرة ذاتها، لكن ثمة شعور أن هذا الجسد لإنسان، وأني عدت إنساناً من جديد. الأكثر غرابة أنهم أعطونا كأس حليب، وتركونا في الشمس قليلاً لنتدفأ.. ياااااه.. شمس؟.. شمس؟.. هل لا تزال هناك شمس تسطع في البحرين؟!! لم نكن مصدقين ما نحن فيه. كأننا خارجون من عفن كهف قضينا فيه مائة عام".

تصوير الاعترافات..

لماذا هذا التعامل المفاجئ، ماذا وراءه؟ يكمل غسان "جاءنا أحدهم، وقال لنا: "شوفوا.. انتو شمسوين؟ إنتو أطباء وما سويتو شي أصلاً.. بس قولو غلطنا وجلالة الملك بيعفي عنكم، أكو أهل سترة اللي حرقوا وقتلوا الباكستانية عفى عنهم جلالة الملك.. انتو أولى بالعفو.. لين دخلتوا بس قولوا نفس الاعترافات اللي قلتوها في التحقيق، إذا قلتوا غير ما راح يعفو عنكم"..

يقول غسان: "كدنا نطير من الفرح. اعتبرناها بداية انفراجة. لم نكن نعرف ما الحكاية حتى تم إدخالنا إلى قاعة كبيرة. لأول مرة نسمع أسماء زميلاتنا: جليلة العالي، ندى ضيف، رولا الصفار.. هل كن معتقلات أيضاً؟!! كان من الواضح أنهن معنا في نفس القاعة. سمعنا للمرة الأولى بأسماء زملائنا أحمد عمران وصادق عبدالله. لم نكن نعرف عن اعتقالهم قبل هذا.. أخذونا واحداً وراء الآخر لتسجيل اعترافاتنا أمام كاميرا التلفزيون. أكثر من 12 شخصاً مقنعاً يجلسون أمامنا. لكننا استطعنا تمييز بعضهم جيداً. من كان يصورني حفظت ملامحه جيداً وأستطيع تمييزه جيداً رغم أنه كان مقنعاً لكني لن أنسى كل تفصيلة من تفاصيل وجهه. لقد بقيت لمدة 45 دقيقة مقابلاً وجهه ولن أنساه. المخرج بنفسه كان يأتي لنا ويحاول تهدأتنا كي لا نظهر مرتبكين في التصوير فتفضحهم".

يردف: "أيضاً المعذب مبارك بن حويل كان يروح ويجيء ويهددنا ألا نقول كلاماً غير المطلوب منا. طبعاً علي العكري كان له نصيب الأسد من الاعترافات".

استغرق التصوير أكثر من 12 ساعة حسب غسان، "بقينا تقريباً منذ الحادية عشرة صباحاً حتى الحادية عشرة ليلاً، بعد الانتهاء من التصوير ظننا أنهم سيتركوننا في التحقيقات لنرتاح أو نتناول

وجبة بعد هذا اليوم المتعب الطويل، لكنهم أخذونا مباشرة إلى السيارة ومنها إلى سجن الحوض الجاف مرة أخرى، ولا خبر عن العفو الملكي وصلنا، ولا شيء عن الإفراج سمعنا. انتهى الدور المطلوب تمثيله وانتهت مسرحية العفو الملكي".

كان حافظ كويس..

في الحلقة السابقة عايشنا جزءاً من تجربة غسان داخل المعتقل. توقفنا عند تصوير (اعترافات) الكادر الطبي الملفقة التي بثت على شاشات تلفزيون البحرين. الثمن: صدور عفو ملكي يخلى بعده سبيلهم. لكن لا عفو جاء ولا إفراج نزل.

حتى ذلك اليوم لم تكن زهرة المعتقلة هي الأخرى، تعلم عن زوجها شيئاً، وليس لأحدهما سبيل إلى الآخر، لكن ليلاً، وبعد الانتهاء من تصوير (الاعترافات)، عادت كل من جليلة العالي وندى ضيف ورولا الصفار يحملن لها الأخبار..

" كانت المرة الأولى التي أسمع فيها خبراً عن غسان" تقول زهرة، "كن يعلمن مقدار قلقلي على غسان وخوفي عليه، قلن لي: اطمئني سمعنا صوت غسان وكان واضحاً أنه بصحة جيدة وأنه قوي جداً، ثم قلن لي ممازحات: "كان حافظ كويس"، ضحكنا، قلت لهن: من المؤكد أنهم وعدوه بالإفراج"

كانت جليلة العالي آخر من تم تصوير (اعترافاتها). طلبت منهم أن ينزعوا عنها العصابة لأنها متعبة وهي الأخيرة. قالوا لها: يفضل أن لا تنزعيها ربما ترين مشهداً لا يعجبك. قالت: أنا متعبة إن أمكن أن تنزعوها مني. رفعوا العصابة عن عينها فصُدمت. رأت أمامها الأطباء يجلسون في قاعة واحدة حليقي الرأس وقد فقدوا الكثير من الوزن وكانوا معصوبي الأعين وموثقي الأيدي وفي حال مزرية. لم تصدق عينيها وبعضهم لم تتعرف إليه، تمنت لو لم تر المشهد فعلاً. تقول زهرة: " أخبرتنا جليلة بما شاهدته وكانت متأثرة جداً بما رأت. بالنسبة لي، كان الأهم حينها أن غسان كان لا يزال حياً وبصحة جيدة".

الأيام الأخيرة للسلامة الوطنية..

يكمل غسان حكاية سجنه، "بعد لعبة (الاعترافات) سمح لنا بتسلم الثياب التي أحضرها لنا أهالينا، بالأحرى هي تبديلة واحدة فقط، أي بعد أكثر من شهر، كما سمح لنا بالاستحمام يوماً واحداً في الأسبوع. كل يوم جمعة يسكبون في أيدينا كمية صغيرة من الشامبو لغسل شعرك وجسمك وكل شيء. ثم نرتدي الثياب ذاتها.

"أيضاً كانوا يقومون بحلاقة رؤوسنا كل عشرة أيام، حلاقة كاملة، يجلسوننا جميعنا، ثم بماكينة واحدة يتم حلق رؤوسنا واحداً وراء الآخر، ابتداء من الرأس ثم الشارب واللحية في فرّة واحدة. الماكينة نفسها للجميع بلا توقف ولا تنظيف. كنا نشعر بإذلال بالغ لن ننساه أبداً"

"بقينا في هذا المعتقل حتى 31 مايو" يكمل غسان "من خلال المعتقلين الجدد الذين يفدون علينا في الزنزانة علمنا أن فترة السلامة الوطنية قد جرى تقليصها. كانت كل الأخبار المسربة إلينا تشير إلى أنه بعد انتهاء فترة السلامة، ستكون هناك إفراجات وسيتم البدء بنا نحن الأطباء بسبب الضغوط الدولية على الحكومة في قضيتنا بالذات. حتى العساكر كانوا يقولون لنا أن هناك إفراجات ستأتي وأنتم أول المفرج عنكم. كنا متفائلين وننتظر هذا اليوم القريب. في ذلك اليوم تم نقلنا إلى عنبر جديد. كان يوماً مأساوياً بالنسبة لنا، فالنقل يعني أنه لا نية موجودة بالإفراج".

"في ذلك اليوم جاءنا أحدهم بعد وجبة الغذاء: "يلا قوم قوم قوم كل واحد يشيل أغراضه"، كل واحد فينا حمل كأسه في يده وفراش نومه ولحافه ومخدته، خرجنا، كانت المرة الأولى التي نرى فيها شكل السجن الذي نعيش فيه، في العادة نخرج معصوبي الأعين، ولأول مرة نرى الشمس. كنا نركض ونحن نحمل أغراضنا، وصلنا إلى عنبر محكم، زنازينه لا منفذ للضوء فيها، كان مكتوماً وموحشاً، الميزة الوحيدة التي تتوفر عليها هذه الزنازين هي أن بداخلها حماماً خاصاً لكل زنزانة. كانت صغيرة جداً. تم تقليص عددنا من 14 إلى 10 بسبب ضيقها"

بعد صلاة فجر 6 يونيو

"بقينا على هذه الحال حتى تاريخ 5 يونيو" يقول غسان، ويكمل "دخل علينا شرطياً مساء وقال لنا تجهزوا غداً، سيأخذونكم بعد صلاة الفجر. سألنا: إلى أين؟ أجاب: "ما عليكم إنتو بس كل واحد يسبح ويلبس ثيابه" في هذه الفترة كان لدينا غياران للتبديل".

اعتقد الأطباء أن اللحظة اقتربت، وأنهم سيعانقون الحرية بعد ساعات قليلة، طارت قلوبهم من الفرح، وبدأ كل منهم يبشّر الآخر، أنهم قريبون من رؤية الشمس "أنا وصادق جعفر كنا قد اتفقنا أن الليلة التي سيفرج فيها عنا سنقضيها في العبادة والدعاء، وفعلاً بقينا كذلك حتى صلاة الصبح. كان شهر رجب وكنت صائماً حينها كعادتي كل عام. أيضاً كان الدكتور نادر الديواني صائماً".

صار صباح 6 يونيو "أوقفونا في مقابل الجدار، ربطوا أعيننا، ووثقوا أيدينا. أخرجونا من العنبر

إلى السيارة، وكانت المفاجأة الأولى، في المسافة بينهما انهالوا علينا بالضرب المذل والمهين، بالأرجل والأيدي والهراوات في كل مكان من أجسادنا، حتى إن الدكتور عبد الله الدرازي انكسر أنفه وسال دمه".

ليس هذا فقط "أركبونا بعدها ميني باص صغير لا يسع لأكثر من 7 ركاب، كنا 15 شخصاً مقيدين، تم حشرنا داخل الباص بشكل مهين، وكان القيد يحز في أيدينا، وكلما ارتفعت السيارة على مطب أو ما شابه كان الأفكري يضغط على أيدينا أكثر، كان سعيد السماهيجي يصرخ من شدة الألم".

يكمل غسان: "لم نكن مدركين لما يحدث، ولماذا يضربوننا بهذا الشكل ويهينوننا قبل الإفراج عنا؟ هل من المعقول أنهم يقومون بنقلنا إلى أحد مراكز الشرطة لتسليمنا إلى أهالينا؟ كنا نسمع أن المفرج عنهم يؤخذون إلى مراكز الشرطة ومن هناك يسلمون إلى أهاليهم".

صدمة المحاكمة الأولى..

لم يكن الأطباء حتى هذه اللحظة يريدون تصديق شيء آخر غير أنهم ذاهبون نحو الحرية: الإفرااااج. لكن ماذا كان ينتظرهم؟ يكمل غسان: "وصلنا للمكان المحدد، أنزلونا من الباصات، وانهالوا علينا بالضرب مجدداً، كنا مجموعة من الباصات حسب ما عرفنا بعد ذلك، 40 شخصاً جميعنا من الكادر الطبي، لم نعرف أين نحن وماذا يحدث؟".

"نادوا أسماءنا، وهنا عرفنا من كان معنا، أبقونا واقفين في الشمس لمدة ساعتين كاملتين. كنا مشتاقين لرؤية الشمس، لكننا لم نرها، اكتوينا بنارها فقط، كان الطقس حاراً جداً" يضيف غسان.

حتى الآن، لم يعرف الكادر الطبي أنهم أمام المحكمة العسكرية. تم تقسيمهم إلى مجموعتين. 20 بكل مجموعة. الأولى تبدأ بالدكتور علي العكري وتنتهي بسعيد السماهيجي. والثانية تبدأ بالدكتور صادق جعفر ومعهم صادق عبدالله وعارف رجب وشهيد فضل بالإضافة إلى المسعفين. يقول غسان: "سألناهم: لماذا تقسموننا مجموعتين؟! لم يجيبونا، عرفنا بعدها أننا في المحكمة. نادوا المجموعة الأولى، دخلنا، للمرة الأولى أرى زوجتي، كانت تقف أمامي مع عدد من الزميلات المحاكمات. عرفت أن زهرة قد أفرج عنها قبل أن أكتشف أنها ستحاكم معي في نفس القضية الجنائية. كانت صدمة كبيرة بالنسبة لي. لم أستطع أن أمسك نفسي من البكاء. كان القاضي ينادي اسمي ولم أكن قادراً على قول نعم من شدة البكاء. بقيت طوال الوقت أنظر لعائلتي وأبكي.

رأيت أبي هناك وأخواتي. لم أتوقع طوال عمري أن أقف في محكمة وفي قفص اتهام وبهذه الطريقة. كان الأمر صعباً جداً جداً".

جنايتان؟!!

كانت زهرة قد أفرج عنها منذ 4 مايو، معها ندى ضيف وجليلة العالي وفاطمة حاجي وأخريات. كن يعتقدن أن المسألة انتهت بالنسبة لهن عند هذا الحد فقط. لكن ليس هذا ما حدث. تقول زهرة: "يوم الجمعة 3 يونيو اتصلوا بنا من التحقيقات وقالوا: تعالوا يوم الأحد لديكم محكمة عسكرية. كان الأمر مفاجئاً لنا. يا الله.. ألم ننته بعد؟". تكمل: "ذهبنا يوم الأحد، فقالوا لنا لا توجد محكمة اليوم، تعالوا غداً مع باقي المجموعة. كان معنا زوج ندى ضيف، ذهب يكلم الضابط وألقى نظرة على الأسماء، فعاد لنا وأخبرنا أن الكادر الطبي من النساء تم وضعهن في قضية الجنح، والرجال في قضية الجنايات، هذا حسب توزيع الأسماء التي شاهده في أيديهم".

"عدت إلى البيت، لم يلبث أن جاءني اتصال آخر من التحقيقات: غداً محاكمة عسكرية لغسان إذا أردتم إحضار محامي له. قلت لهم: من أين آتي بمحامي الآن. قالوا: تصرفوا".

الأثنين 6 يونيو، ذهبت زهرة عند السابعة صباحاً كما أخبروها. "أجلسونا في غرفة صغيرة، ولا نعرف ماذا يحدث. بقينا جالسات هناك حتى الساعة العاشرة. خلالها كان بعض الشرطة يدخلون علينا في الغرفة، رجوتهم أن ألتقي زوجي ولو لـ5 دقائق فقط. قالوا لي: ان شاء الله بنحاول بنحاول. كنت قد سمعت أن من يطلب اللقاء في المحكمة يُسمح له، الرموز سمحوا لهم وبعض الشباب. بقيت ألح عليهم، وقالوا لي سنسأل القاضي إذا سمح".

تكمل زهرة: "ثم أتى أحدهم بقائمة أسماء ونادوا بعضنا، كان اسمي من بينهم وندى ورولا ونجاح خليل وضياء وفاطمة حاجي. دخلنا القاعة أوقفونا على جانب القاعة من الأمام. ثم أدخلوا الرجال وصاروا وراءنا، لم نكن نستطع فر رؤوسنا أو الالتفات للوراء. القاضي تلا الأسماء، ثم تلا التهم التي سمعناها للمرة الأولى، استوعبت حينها أن اسمي قد أدرج ضمن مجموعة الجنايات.. يا إلهي.. جنايات أيضاً؟!! أنا وغسان جنايات؟!! من لأطفالنا إذا؟!! أصابني انهيار.."

كانت الجلسة قصيرة وسريعة. القاضي تلا التهم، وسأل المتهمين إذا كان لديهم محامون أم لا. أكثر من النصف لم يكونوا قد أوكلوا محامين لأنهم لا يعرفون بالمحاكمة أصلاً. تم تأجيل المحاكمة "مجرد أن أعادوني الغرفة مع الكادر الطبي المحاكم من النساء انهرت وجلست أبكي بشدة" تقول

زهرة "الجميع التفف حولي وحاولن تهدئتي، كنت أقول لهم: على الأقل أحدنا يكون مع الأطفال، لكنّ كلانا جنايات هذه مصيبة كبيرة"

اللقاء الأول: النحيب..

بعد الجلسة سمح للكادر الطبي بالالتقاء بذويه. في القاعة نفسها التي تمت فيها المحاكمة، تم إفراغها من الجميع، ثم إدخال العوائل وإجلاسهم على كراسي القاعة، ثم إدخال الكادر الطبي ليذهب كل واحد منهم إلى مكان جلوس عائلته " كان معي والد غسان وأخته بسمة وأخته ريم ومها زوجة باسم. ما إن رآني غسان حتى احتضنني بقوة. كان كلانا في حالة سيئة جداً لكنه كان منهاراً أكثر. كل همّه أن يعرف ما أصابني خلال الاعتقال وما تعرضت له: ماذا عملوا فيك؟ هل تعرضت لتعذيب؟ حاولت تهدئته وقلت له لم يصبني شيء أنا بخير".

المشهد الأكثر ألماً كان عندما شاهد غسان والده للمرة الأولى، انهار عند قدميه وأخذ يقبلها، وهو ينتحب مثل طفل صغير فاقد لأبيه منذ زمن، رفعه والده بين يديه: "يا ولدي أنا فخور بكما، لقد رفعتما رأسي ورأس البلد". لم توقف هذه الكلمات نحيب غسان الذي راح يشكو لوالده: "أنا شفت أخوي عذبوه قدامي، أخوي كان يصيح قدامي، أخوي كانوا يضربونة قدامي وأنا مو قادر أسوي شي"، كان يبكي بحرقة ويفضّ ما بداخله وكأنه للتو قد وجد الصدر الذي يستطيع أن يلقي عنده انكساراته كلها وأوجاعه كلها. بقيت العائلة تحاول تهدئة غسان بأنهم يحمدون الله كثيراً أنه وباسماً لا يزالان بصحة جيدة، وأنهما بخير الآن.

زيارة الحاجز الزجاجي..

بعد يومين من المحكمة اتصل كل من غسان وباسم بعوائلهم، أخبراهم أن زيارة قريبة قد يسمح بها خلال أيام. تقول زهرة: " بالفعل تلقينا اتصالاً من التحقيقات لزيارة، وأن العدد المسموح به هو 3 أشخاص فقط. قلت لهم: هو لديه 3 أبناء وأنا الرابعة ووالداه يريدان رؤيته؟ قالوا: غير مسموح أكثر من 3".

تكمل زهرة: "قررنا أن نذهب ونحاول الدخول ربما يسمحون لنا. وهناك كان التشديد كبيراً جداً على العدد والصلة. لم يُسمح لأحد قبلي. كنت يائسة لكنني بقيت أرجوهم عند الباب وأقول لهم أرجوكم هؤلاء أطفال صغار لم يروا والدهم منذ أشهر. بعد مفاوضات كبيرة سمحوا لي بالدخول مع أبنائي فقط. كانوا يصورونا ونحن ندخل لكي يوثقوا أنهم سمحوا للأهالي بزيارة أبنائهم".

"أخذونا في باص إلى (كابينات). نزلنا، دخلنا، وكانت الصدمة. كان حاجزاً زجاجياً كبيراً يفصل بيننا وبينه. الحاجز به فتحات (خروم) صغيرة جداً تسمح بمرور الصوت فقط. كأننا أمام مجرم من أولئك الذين نراهم في الأفلام والذين يتم عزلهم بسبب خطورتهم على الآخرين. كانت صدمتنا كبيرة أن يكون لقاؤنا الأول بهذه الطريقة القاسية والمهينة. رأيت وجوه أطفالي كيف بهتت حين شاهدوا هذا الحاجز أمامهم. كم كانوا متشوقين لرؤية والدهم ولمسه واحتضانه. طوال وقت اللقاء كانوا يبكون بحسرة وألم. ليس أصعب من أن تعيش العزل وأنت في كل هذه المسافة من القرب. لم يكف الجميع عن البكاء طوال اللقاء. شعرنا أن هذا اللقاء كسرنا أكثر".

يوم طردوني من المحكمة..

تواصلت جلسات المحكمة العسكرية. في الجلسة الثانية اتفق الكادر الطبي المحاكم مع محاميهم أن يذكروا أمام القاضي أن اعترافاتهم انتزعت تحت التعذيب. تقول زهرة: "أمرنا القاضي منذ البداية أن نقول فقط كلمة: مذنب أو غير مذنب. بدأ علي العكري وقال أنا غير مذنب وذكر التعذيب. صرخ القاضي به: قلت لكم لا أريد أكثر من كلمة مذنب أو غير مذنب. تكرر الأمر وآخرون خافوا وسكتوا. جاء دور رولى وتكلمت فنهرها وهدد بأنه سيبدأ بأخذ إجراء مع من لا يلتزم. جاء دوري، كان رقمي 20 فقلت غير مذنبة وتكلمت عن تعذيبي، مباشرة قال لهم: خذوها. أخرجوني. المحامون خائفون أن يتم توقيفي لمدة 24 ساعة. لكن لم يحدث. كانت القائمة بأعمال السفير الأمريكي موجودة في المحكمة"

الاكتئاب الذي لا مضاد له..

في نهاية شهر يوليو، بدأ إطلاق سراح عدد من رفقاء الزنزانة: الدكتور صادق جعفر، صادق عبدالله، عبد الله الدرازي. فرح غسان لخروجهم لكنه تأثر بافتقاده لهم كثيراً. فالعلاقات في السجن تصير حميمية أكثر والحاجة النفسية لها تكون أقوى. الأصعب أن غسان وجد نفسه وحيداً: "لماذا لم يطلق سراحي مع المجموعة؟" كان هذا التراكم كافياً ليقع غسان في انهيار عصبي ويؤخذ إلى العيادة. "وضعوا لي مصل (سيلان) وأعطوني أدوية، حالتي النفسية تدهورت كثيراً، أتى أحد المسؤولين وقال لي: كيف نستطيع مساعدتك؟ ماذا تريد؟ قلت لهم: على الأقل ضعوني مع أخي باسم في زنزانة واحدة. قال: هذا ممنوع. لكن بعدها بيومين نقلوني مع باسم. هذا خفف عليّ إلى حد ما".

أيام، ويتم إطلاق 6 من الكادر الطبي الموجود معهم في الزنزانة نفسها. تقلص العدد من 10 إلى 4. بقي: غسان وباسم وحسن التوبلاني ومحمود أصغر "ارتفع الإحباط عندي أكثر. بدأ اليأس

يسيطر عليّ. لم أتمكن من السيطرة على نفسي. كان انهياري النفسي يزداد كل يوم. في هذه الفترة طلبت تحويلي على طبيب نفسي، لم يسمح لي في البداية، لكن مع تفاقم حالتي أخذوني. بدأت أتعاطى مضادات الاكتئاب. تدهور حالتي أوصلني إلى تعاطي 3 أنواع من مضادات الاكتئاب".

بعد زيارة بسيوني..

بعد زيارة بسيوني للسجون والتقائه بالمحاكمين والمعتقلين، تحسنت الأمور بدرجة كبيرة. يقول غسان "بعدها سمحوا لنا بالاتصال بصورة يومية، كل يوم مسموح لنا بدقيقتين. إضافة إلى ذلك تم تسهيل الزيارات، صار لدينا 1-2 زيارة في الاسبوع. في رمضان سمح لنا بزيارات مسائية بحيث تستطيع العائلة أن تحضر لنا ونفطر معها. سمح بإدخال طعام الفطور".

تضيف زهرة: "صارت لنا علاقة مع العميل ومدراء السجن، فكنت أتصل بهم وأرجوهم أن يسمحوا لنا بإدخال بعض الطعام. صرت أتصل: اليوم عيد ميلاد محمد ممكن تعطونا زيارة؟ فكانوا يتعاونون معنا. ولأن الوضع النفسي لغسان معروف فقد صاروا يحاولون تسهيل كل ما يتعلق به".

سبق خطاب الملك بمناسبة العشر الأواخر تلميحات بأنه سيحمل انفراجة ما وإفراجات. كان الطاقم الطبي المتبقى ينتظر أن يسمع شيئاً مثل هذا. لكن الخطاب كالعادة جاء صادماً ومخيباً ومنصرفاً عن الواقع. الكادر الطبي المحبط قرر أن يقوم بإضراب عن الطعام. وجده خياره الأخير بعد حالة الإحباط واليأس التي وصل لها. تم البدء في الإضراب عن الطعام في نهاية شهر رمضان.

" كنا نعتمد على العصائر واللبن لنعوض الأملاح التي نفقدها. كان يغمى علي بشكل يومي ويأخذونني للعيادة ويضعون المغذي (السيلان). زارنا أحد أعضاء لجنة بسيوني وجلس معنا، كان متعاطفاً معنا وقال لنا إننا قلنا للحكومة بأن هؤلاء ليسوا مجرمين وأنهم كادر طبي ليس مكانه المحكمة أصلاً، لكن لا أحد يستجيب حتى الآن".

الإفرااااج..

استمر الإضراب عن الطعام 12 يوما، حتى جلسة المحاكمة التالية: جلسة شهود النفي "لأول مرة أذهب وأشعر بأني متفائلة" تقول زهرة. تكمل " غسان أيضاً كان لديه شعور قوي بالإفراج، كان على غير عادته، لم تفارق الابتسامة وجهه طوال فترة المحاكمة" استمرت الجلسة حتى الساعة السادسة مساء. كان القاضي يأخذ استراحة ويعود.

انتهت الجلسة، وصار الحكم قيد التداول. حتى الساعة السادسة لا شيء. المحامون يئسوا. قالوا:

من الواضح أنه لا توجد نية بالإفراج اليوم. غادروا. بقي الأهالي مع معتقليهم. "سمحوا لنا بالزيارة فجلسنا معاً. بقينا مدة قبل أن يدخل أمين السر ويعلن: الإفرااااااج عن جميع المتهمين!!

لم يكن أحد منتبهاً في البداية. الجميع منشغل في الكلام. فجأة سكت الجميع مرة واحدة. وكأن الجميع أرادوا استرجاع ما سمعوه للتو. الدهشة علت الوجوه قبل أن تتحول التعابير إلى شهقات ثم ابتسامات ثم صراخ ثم صياح ثم صلوات ثم فوضى جميلة ترجّ المكان "سجدنا لله شكراً والدموع تخالط ضحكنا وصراخنا وصلواتنا وصياحنا. صرنا في حالة هستيرية من الفرح. لم أشعر بنفسي إلا وغسان يحملني غير مصدق لما سمع، كانت لحظة لا يمكن أن تُنسى" تتذكر زهرة بابتسامة تختلط بالدموع.

اللحظة التي لا توصف..

يكمل غسان: " أخذونا بعدها في الباص، كنا نغني فرحاً ونكاد نطير، سيد مرهون يغني لنا: إفراج الليلة إفراج، بنركب الباص بنشرب الكوي إفراج.. وكنا نغني معه ونصفق. سألنا الشرطي الذي كان معنا: متى سيخلى سبيلنا؟ قال: الآن ..الآن.. بعد نصف ساعة فقط".

"وصلنا الحوض الجاف كان العميد أبو علي في انتظارنا عند الباب، قال لنا مبتهجاً: يلا بسرعة.. كلكم روحوا العيادة.. بس يفحصون عليكم وانتو ماخذين أغراضكم وطالعين. ركضنا إلى العيادة مثل الأطفال الصغارالذين يتسابقون ليكون كل منهم هو الأول. فحصونا سريعاً. أعطانا العميد أبو علي هاتفه وقال: اتصلوا بمن تريدون إخبارهم. كان الجميع لديه الخبر"

زهرة والأطفال وجميع عوائل الكادر الطبي توافدوا إلى خارج مركز الحوض الجاف. العديد من زملاء الكادر الطبي ورفقاء الزنزانة الذين سبقوهم إلى خارج السجن والأصدقاء والمتضامنين توافدوا سريعاً أيضاً إلى هناك. فتح باب المركز وسمح للجميع بالدخول إلى الباحة. لم يطل الوقت حتى بدأ خروج الكادر الطبي واحداً وراء الآخر. تلقفتهم أيدي الأهل والأصدقاء والأحبة وصار الجميع في عناق الحرية.

كان هذا عند سجن الحوض الجاف، لكن عند بيت غسان وباسم كانت تنتظرهم زفّة خاصة أخرى: "منذ وصلنا بالسيارة إلى مركز مدينة عيسى الذي يبعد أكثر من كيلومتر من بيتي تفاجأت بأعداد الناس. بعد نصف المسافة وقفت السيارة وجاءني أحدهم وفتح الباب وحملني. صرت لا أرى نفسي إلا فوق أكتاف الناس يرمونني وأطير في الهواء ويتلقفونني. وجدت نفسي غارقاً في موج فرح الناس،

وأنا كمن لا يستوعب ما يدور حوله. كانت دموعي تختلط بالضحك والناس يهتفون بشعارات النصر والفرح وأشعار العزة والكرامة ويهتفون باسمي وباسم باسم. كان موقفاً كبيراً جداً جداً لن أنساه. كان مشهداً لا يمكن أن يوصف، لكنه يعاش فقط"

د.غسان ضيف، طبيب متخصص في جراحة الفم والوجه والفكين تخرج من جامعة الملك سعود عام 1990 بدرجة امتياز. تلقى تدريبه باسكتلندا وأيرلندا لدى الكلية الملكية للجراحين في أيرلندا، وحصل على الزمالة في جراحة الفم عام 1994. في العام 2005 تمت ترقيته إلى درجة استشاري بمجمع السلمانية الطبي(SMC)، وشغل رئاسة القسم بين عامي 2006 و 2010. عمل محاضرا في كلية العلوم الصحية ورئيسا للجنة تراخيص طب الفم والأسنان في البحرين بين عامي 1996 و2006. منذ العام 2006 إلى العام 2008 شغل منصب الأمين العام لجمعية أطباء الفم والأسنان البحرينية. عضو في كل من الجمعية البريطانية لجراحي الفم والوجه والفكين، الرابطة الدولية لجراحي الفم والوجه والفكين، والرابطة العربية لجراحة الفم والوجه والفكين. مؤسس لجمعية الكوثر للأيتام، ونائب رئيس مجلس إدارة صندوق مدينة عيسى الخيري. متزوج من الدكتورة زهرة السماك، استشارية تخدير بمجمع السلمانية الطبي والتي اعتقلت هي أيضا. لديه ثلاثة أطفال، أعمارهم18، 14 و10 سنوات.

د. زهراء السماك: استشارية تخدير وأستاذة مساعدة في كلية الطب،جامعة الخليج العربي،أكملت تدريبها في دبلن بأيرلندا، وقد عملت لمدة عشرين سنة في مجمع السلمانية الطبي. كانت تشغل منصب رئيس قسم التخدير من سنة 2006 حتى فبراير 2011، وهي أول استشارية بحرينية تتخصص كامرأة في هذا المجال. عضوة في الجمعية الأمريكية والأوربية لأطباء التخدير وكذلك هي عضوة في رابطة أطباء التخدير العرب كما تشغل منصب رئيس ومقرر للجنة امتحانات التخدير التابعة للمجلس العربي للتخصصات الصحية.

باسم ضيف:
داخل القسم الطبي حتى آخر قطرة سجن

"أقسم بالله العظيم، أن أراقب مهنتي، وأن أصون حياة الإنسان في جميع أدوارها والأحوال، باذلاً ما في وسعي في استنقاذها من المرض والهلاك والألم والقلق، وأن أحفظ للناس كرامتهم وأستر عوراتهم، وأن أكتم أسرارهم وأن أكون على الدوام من وسائل رحمة الله، باذلاً رعايتي الطبية للقريب والبعيد، للصالح والخاطئ، والصديق والعدو، وأثابر على طلب العلم أسخّره لنفع الإنسان لا لأذاه، وأن أوقّر من علّمني، وأُعلّم من يصغرني، وأكون أخاً لكل زميل في المهنة الطبية، ومتعاونين على البر والتقوى، وأن تكون حياتي مصداق إيماني في سري وعلانيتي، نقية مما يشينها تجاه الله ورسوله والمؤمنين، والله على ما أقول شهيد".

بقَسَم أبقراط، يدخل الطبيب المهنة، بدونه يصبح خارجها. يحاسب الطبيب بقدر ما يفرّغ هذا القَسَم من محتواه، ويكافأ بقدر ما يجعله حيّاً نابضاً فيه. الطبيب وظيفته منح الناس الحياة والأمل وتجنيبهم، قدر الطاقة، الموت والألم. "كان هذا القَسَم هو اختيارنا، حين قرر آخرون اختيار شيء آخر" باسم ضيف [1].

استغرق الأمر مع باسم ضيف أسابيع من الحكي الطويل، كانت اللقاءات تطول لثلاث ساعات أحياناً، استحضار التجربة المعصورة بحكايا الألم ليس أمراً سهلاً، لهذا لن نعيد ترتيب الأحداث، سنتركها كما هي في ذاكرته، مبعثرة، مشوشة، قلقة، وأحياناً قاتلة، لكنها لم تخرج يوماً من دائرة القَسَم، ولم تدخل يوماً في شيء غيرها.

بكيت للإنسان..

عصر 18 فبراير "كنا في الاعتصام الذي دعت إليه جميعة الأطباء احتجاجاً على منع الإسعاف من إنقاذ الجرحى والاعتداء على الطواقم الطبية في دوار اللؤلؤة. المكان ممتلئ بالكادر الطبي والإداريين، لم نعتقد أن القدر أوجدنا في ذلك المكان لسبب أكبر، لم ينفك الاعتصام حتى توالت الأخبار عن إصابات بالرصاص، تلك المرة الأولى التي يستخدم فيها رصاص حي، صرحت بذلك لقناة البي بي سي التي تواجدت في المستشفى، ساعد تواجدنا كاستشاريين من جميع التخصصات في الحد من الأضرار التي تعرض لها المصابون، تجاوبنا بسرعة مع الحالات التي أخذت تصل تباعاً، لم نكن معتادين على نوعية الإصابات التي وقعت لا من حيث الكم ولا الكيف، عن نفسي قمت بمباشرة أربع حالات، ثلاث إصابات ناتجة عن إطلاق رصاص حي، ورابعة رصاص انشطاري، ولأول مرة أبكي في غرفة العمليات، لم يحدث أن مررت بموقف كهذا قبل ذاك اليوم، انهمرت دموعي وأوجعني القتل بدم بارد، لم أكن أعرف أسماءهم ولا طوائفهم، لكن ما حدث أمر لم أتوقع أن يحدث هنا يوماً.

صباح 19 فبراير بدأ باجتماع مع وكيل الوزارة المساعد لشؤون المستشفيات الدكتور امين الساعاتي، بحضور جميع رؤساء الأقسام والاستشاريين بالمستشفى. تم توزيع أدوار إلى بعض الاستشاريين للإشراف على الأعمال التطوعية في حالات المواجهة، تم التنسيق فيما بين المتواجدين حول ذلك، شرط ألا تتعارض تلك مع الأعمال الاعتيادية. مساء توجهت لأول مرة إلى دوار اللؤلؤة مع جموع الأطباء والممرضين الذين توجهوا هناك، كررتها مرة أخرى في وقتٍ لاحق.

عالجتهم وشهدوا ضدي..

منذ ذلك اليوم حتى صباح 13 مارس كان الوضع هادئاً، وسير العمل طبيعي، كنا نتواجد بالعيادات، نجري العمليات الاعتيادية في مستشفى السلمانية والمستشفيات الخاصة، ندرس طلبة الطب، بالنسبة لي كان آخر إسبوعين من شهر فبراير وأول إسبوعين من مارس، هي الفترة التي قمت فيها بمعاينة أكبر عدد من المرضى. كان الوضع هادئاً جداً، ولم أتوقع أن تتعقد الأمور إلى الدرجة التي وصلت إليها. أما يوم 13 مارس فقد كان صاخباً منذ مطلعه، بدأ بحادثة المرفأ المالي وجامعة البحرين، إصابات كثيرة ومتنوعة، بدا الوضع للحظة جنونياً أكثر من المحتمل. كنت حينها أجري عملياتي الاعتيادية في غرفة العمليات، ولدي حسب جدولي خمس عمليات، بدأت الأولى الساعة 7:15 صباحاً.

عند الساعة الثامنة، تفاجأنا بدخول رئيسة غرفة العمليات لتخبرنا بأمر رئيس الأطباء الدكتور محمد أمين العوضي، بإيقاف جميع العمليات الاعتيادية، وذلك سبب حدوث مواجهات في منطقة المرفأ المالي. مع الإصابات الوافدة، باشرت الحالات المتعلقة بتخصصي، بينها حالة مواطن من أصول عربية جاء ضمن مصابي جامعة البحرين، لديه إصابة باليد ومعه فتاة مصابة أيضاً، قررت إجراء عملية له لكن تم تأجيلها تبعاً للبروتوكول المعمول به حيث لابد أن يصوم المريض 6 ساعات قبل إجراء العملية، وبناءً على ذلك كانت العملية ستتم مساءً، لكن تفاجأت أن عائلته أخذوه ضد المشورة الطبية، رغم أن والدته اتصلت بي على هاتفي الخاص وطمأنتها، ثم صارت هي وابنها شهود إثبات ضدي في المحكمة.

نمنا في غرفة واحدة..

لم ينتهِ اليوم بعد، بدا طويلاً أكثر من اللازم. اليوم الذي بدأ بمواجهاتٍ حامية، انتهى أيضاً على غير خير. حوالي 9 مساءً، تلقيت اتصالاً من رئيسة قسم العظام الدكتورة بدرية توراني – وهي الطبيبة التي سترفض لاحقاً الشهادة لصالحي في المحكمة – أخبرتني بوجود إصابتين بليغتين

بمنطقة السيف، توجهت مباشرة للمستشفى، دخلت غرفة العمليات، كان الأطباء المساعدون بدؤوا التجهيز، دخلت للعمليات دون أن أعرف جنسيات المرضى، لم يكن ذلك مهماً أصلاً، علمت لاحقاً أن أحدهما آسيوي والآخر بحريني. عند نزولي من العمليات متوجهاً للمنزل، علمت أن هناك مجموعة من الآسيويين يتم علاجهم، كانت إصاباتهم خارج نطاق تخصصي، غادرت.

يوم الإثنين 14 مارس مر هادئاً، يفصل بين 13 الصاخب، و15 الدموي. ذهبت المستشفى وعاينت مرضاي، غير أن الليل حمل صوت الرصاص لمنازلنا. بدا الصوت مخيفاً وقريباً، نمنا جميعاً في غرفة واحدة، أولادي كانوا خائفين جداً، وزوجتي لم تتمكن من العودة من مركز النعيم الصحي فنامت هناك. استشعرت أن الأمور تمضي نحو الأسوأ، قادني حدسي إلى محاولة الابتعاد عن كل ذلك، بكل الأحوال أنا لا أنتمي للسياسة ولا أريد التورط بها. اتصلت برئيسة القسم وطلبت إجازة لأسبوعين. صدق حدسي منذ اليوم التالي.

الأيام التي تلت رأينا كل شيء ينهار. نتابع مجريات الأمور عبر وسائل التواصل المجتمعي وعبر تلفزيون البحرين كذلك. منه علمنا بدخول الجيش إلى السلمانية ومحاصرة الكوادر الطبية، وكنا نتابع الأكاذيب التي يستفرد ببثها تلفزيون البحرين منها احتلال المستشفى، واحتجاز رهائن، وقتل المرضى، كنا نبكي لتدهور الأوضاع لهذا الحد، ولم ندرك حينها أننا نبكي أنفسنا سلفاً، كنت منكسراً من أجل هذا الشعب، لكن لم تتطور مشاعري في ذلك الوقت إلى مرحلة الخوف.
مساعدي يبكي من أجلي..

17 مارس، تلقيت اتصالاً من الطبيب المساعد لي، وهو من جنسية عربية، طلب مني عدم الحضور، كان يبكي أثناء المحادثة، طمأنته أني في إجازة، وأعطيته التعليمات الخاصة بمرضاي. في هذا اليوم بالذات، بدأ القلق يساورني على أخي، بالتحديد بعد عرض البرنامج الذي تناول موضوع الدكتور غسان ضيف والدكتور علي العكري وعدد من أطباء مستشفى السلمانية بشكلٍ عام، أخذت المخاوف تراودني عن أخي فقط، لم أدرك اني سأكون جزءاً من كل ذلك.

صباح 19 مارس، قرر غسان السفر مع عائلته إلى لندن عصراً، قصدت منزله عند الثانية ظهراً، ودعته، تمنيت أن يكون هناك بخير، عند الخامسة جاء ابني أحمد يحمل خبر اعتقال عمّه، انزعجنا من الخبر خاصة بوجود أمي وتصاعد قلقها عليه، أخذنا ننكر الأمر بشدة، ونؤكد أنها مجرد إشاعات، حاولت الاتصال به دون جدوى، كتبت له عبر الواتس اب لكنه لا يرد.

كان القَسَم الطبي هو اختيارنا، حين قرر آخرون اختيار شيء آخر

لا تقتلوا أبي أرجوكم..

يكمل ضيف ذكريات المرحلة الأصعب "قرابة السابعة مساءً، وقفنا نصلي المغرب، دخل ابني محمود صارخاً "الحقوا، هجموا علينا البلطجية!!"، كنا جميعاً بالمنزل، أنا وأسرتي والدتي وأختي وزوجها، اندفعت نحو النافذة، كان تحذير ابني واهناً أمام ما رأيت، عدد غفير من الشرطة والشغب، مدنيين وعسكريين، جميعهم ملثمون ومدججون بالسلاح، طلبنا من الخدم عدم فتح الباب، لكن من الواضح أنهم ليسوا بحاجة ليفتح لهم أحد، لحظات وإذا هم وسط المنزل وفي غرفنا.

كانت دموع ابنتي تتساقط، وأنا أجرجر كالذبيح على عتبات السلم، ضربوني أمامهم لم يبقوا كرامةً لشيء، أهانوني وشتموني وطلبوا فتح الخزينة. سرقوا أكثر من 5000 دينار بحريني،4000 دولار امريكي، 3700 يورو، 800 دينار مخصصة لأحد المآتم الحسينية، وعدداً من الجنيهات الاسترلينية لا أعرف عددها. طلبوا إخراج كل وثائق الملكيات التي تخصني، استولوا عليها، فتشوا غرف أبنائي، قيدوا يديّ، وجروني عبر السلم الطويل نزولاً، حين نزلت وجدت بعض مقتنيات المنزل محطمة، كان الوضع أشبه بمعركة للتو انتهت، غير أنهم وحدهم، لا شريك لهم في هذا الدمار، طلبت تبديل ملابسي، لم يقبلوا، لن أنسى ليلتها ابني محمود وهو يجثو على ركبتيه أمامهم، يضع القرآن بينه وبينهم، ويقسم عليهم وسط دموعه "لا تقتلوا أبي، أرجوكم لا تقتلوا أبي"، أوجعني

عجزي عن تجنيب ابني هذا الألم.
بعد أيام، أثناء التحقيق، وأنا معصوب العينين، سألني احدهم: "شخبارك اليوم؟ شخبار محمود؟" سألته: "هل تعرف محمود؟"، قال: "لا أنساه ابداً"!!

أقوى ثالث جهاز استخبارات..

في الساحة المقابلة للمنزل، وقفت عشرات السيارات المدنية والعسكرية، تحاصر منازل الأخوين ضيف، توحي بأن المطلوبين مجرمون عتاة "من أمام منزل أخي غسان، تم إدخالي سيارة مدنية، رأيتهم حينها يجرون سيارات أخي، عرفت يقيناً أنه اعتقل".

زُججت في السيارة بقوة، تم ضربي وشتمي، أجبرت على إنزال رأسي، كان الطريق طويلاً، والسيارة مسرعة، الوضع مرعب والأسئلة متصارعة. توقفت السيارة. أدخلت مكانا لا أعرفه، عصبوا عيني، بقيت العصابة على عيني 12-10 يوماً، كانت من الجلد، وكنت أشعر بألم شديد بسببها. لم أكن سمعت وقتها عن التحقيقات الجنائية، عرفت اسمها لاحقاً. سمعت أحدهم يقول لآخر "ها، جبتوه، هذا خذه وسووا له كهربا وفيلقه"، لم أعرف بعض المصطلحات حينها، شعرت أن أحدهم بقي معي في الغرفة، انهالت علي الضربات، أخذ يركلني بقوة وبشكل متواصل، طلب مني أن أغني، لم أعرف ما أفعل، هل كان حقاً يريد مني الغناء؟ أعاد طلبه "قول مشيمع يالثور ودوه المصحة"، أخذت أرددها، لكنه طلب أن ألحنها، وكان يضربني كلما غنيت طالباً المزيد، بعد حوالي عشر دقائق متواصلة من الغناء هذه الجملة الجوفاء بدأ التعب يسيطر علي، فتوقف.

أمروني أن أقف. سألني أحدهم: ما تخصصك؟ قلت: طبيب عظام، قال: كم يحتاج الشخص للوقوف كي تنكسر رجله؟ فقلت: لا أعرف، فرد: الآن ستعرف، بعد تلك المحادثة قضيت 7-10 أيام واقفاً على رجلي، وكانت الفترة الوحيدة التي أجلس فيها هي الدقائق المعدودة المخصصة للأكل.

الشخص نفسه رفع عصابتي، طلب أن أراه جيداً، سألني: هل أنا بحريني؟ قلت: نعم، قال: متأكد؟ لست مجنساً؟ قلت: لا، رد: كيف عرفت؟ أخبرته أن لهجته تدل على ذلك، فقال: نحن ثالث أقوى جهاز استخبارات في العالم، تذكر هذا جيداً، الحقيقة أني ما زلت أتذكر ذلك، لكن أيضاً ما زلت أتساءل ما علاقة أسئلته السابقة بالمعلومة التي أهداني إياها تطوعاً!

حين فقد طبيب العظام الإحساس برجله..

الزمن في تجربة المعتقل يختلط بمقدار الألم. خصوصاً في الأيام الأولى التي اختلط فيها الليل

بالنهار بالعصابة التي لا تفارق عين يومه. لهذا فالتواريخ التي يقدمها ضيف تقريبية وافتراضية "بقيت حوالي 6-7 أيام في السجن الإنفرادي، كنت معصوب العينين، وضعت يداي مقيدتين خلف ظهري، أجلس دقائق فقط أثناء تناول الوجبات، وكان صوت أخي يصل اليّ عبر الجدران، متألماً باكياً، كنت أسمع صوته وهو يضرب ويعذب ويبكي، وعرفت فيما بعد أنه كان يسمعني أيضاً، من الواضح أننا كنا قريبين من بعض جداً، وأنهم تعمدوا ذلك، لزيادة ألمنا النفسي.

لا يُسمح لنا بالنوم، وفي أوقات مختلفة من اليوم، تفتح الأبواب ويدخل عدد من الاشخاص، يبدأون الضرب والركل، خلال هذه الفترة أصبت بتورم شديد في القدمين والساقين، خاصة اليمنى، ومن شدة التورم فقدت الإحساس برجلي، استمر هذا الأمر لأربعة أشهر وبشكل كامل، ثم أخذ شعر رجلي يتساقط، بسبب الضغط على الشرايين والأوردة، رفض الحراس أخذي لطبيب، وعوضاً عن ذلك سمحوا لي بالجلوس ورفعها على الجدار، كنت لا أقوى على رفعها من شدة الألم، أحضروا لي كرسياً أتعكز عليه عوضاً عن العكازات"

هددت بالصعق الكهربائي، والتحرش الجنسي، والقتل، والاعتداء على عائلتي، كما هددوني بأخذي للسعودية، عدا الشتائم والاتهام بأننا مجرمون وقتلة. بقيت في التحقيقات الجنائية 21 يوماً، كانوا يدخلون علينا في فترات مختلفة، يضربوننا بشكلٍ عشوائي، ويسكبون على أجسادنا شبه العارية الماء البارد، وكان الطقس شتاءً، بقيت بملابسي 12 يوما، لم يكن الاستحمام مسموحاً، ودون نعل أتوجه مضطراً لقضاء حاجتي، وأعود دون غسل يدي.

بعد سبعة أيام عبر الهاتف، لمدة دقيقة واحدة فقط، تسلل صوته الخافت، لم يكن يملك القدرة على الكلام، طلبوا أن يخبر أهله أنه بخير، هكذا ضغط أزرار هاتف المنزل، رد ابنه محمود، ونادى أمه بلهفة المشتاق، يقول: "كانت تلك من اللحظات المؤثرة جداً، وكانت تلك المرة الأولى التي عرف أهلي فيها أني لا أزال على قيد الحياة".

عشرون سلاحاً..

في إحدى الليالي أخذوني إلى مبارك بن حويل، عرفت اسمه فيما بعد، قال لأحد الحراس وهو يشير إليّ: هذا قام بفتح بطن مريض وسرق كليته، صُعقت، لم أقو على الرد، أنا طبيب عظام، كيف أفتح بطن أحد؟!!

حققوا معي مرتين، في المرة الأولى لم يتجاوز الأمر نصف ساعة، لكن التحقيق الثاني استمر 8-9

ساعات، وحمل مفاجآت، قالوا أن بصماتي كانت على أسلحة وجدوها بمنزلي!! أجبروني على الاعتراف أن الدكتور علي العكري يخبىء عددا من الأسلحة في المستشفى، سألوني عن عددها، قلت: لا أعرف، صرخ بي: يالثور قول، قلت: خمس قطع، فصرخ مجدداً: شنو خمسة؟!!، قلت: عشرين زين؟!! قال: إي، إي زين. أُجبرت أن أقول إن العكري كان يهرب الأسلحة إلى الدوار بمساعدة سيد مرهون رئيس المسعفين، كان الأخير يتواجد في الغرفة المجاورة، وأنا أردد كل ذلك، قاصدين أن يسمع اعترافي عليه، لأنه كما يبدو رفض الاعتراف ضد أحد".

الليلة التي سبقت التحقيق معي، أخذوا أخي غسان، وبعدها سمعتهم يقولون: "خذوه الحوض الجاف". لم أكن أعرف ما يعني ذلك، سألت فقالوا إنه السجن، نقلت ليلتها بسيارة مدنية، ولأول مرة منذ 21 يوماً أتنفس هواءً نظيفاً، كان الجو بارداً، وشعرت أن نسمات الهواء تتسلل لروحي المعتمة فتضيئها، لم يطل هذا الضوء.

في المكان الذي وُعدت فيه بسرير مريح، وطعام جيد كما أوهمني مبارك بن حويل كي أعترف بما لم يحدث، لوهلة صدقته، اعتقدت أني سأكون حقاً بمكانٍ أفضل، ربما اليأس قادني لتصديق شخص مثله. كنت أظن حينها أن وجبات التعذيب ستقل. لكننا وضعنا بمكانٍ لا سرير فيه، والتعذيب وجبات مثل الطعام. لن أنسى أحد العساكر الآسيويين الذي ركلني بحذائه العسكري في صدري، طوال فترة التعذيب، لم أختبر ألماً مشابهاً. بقينا نردد صباح كل يوم السلام الملكي: عاش عاش بو سلمان، والشعب يريد خليفة بن سلمان.

القيد البلاستيكي حول معصمي كان مشدوداً، كنت أتألم منه كثيراً، لكن لسببٍ أجهله بدأ ينفك رويداً رويدا، كان الحراس يراقبون، لاحظ أحدهم أن وثاقي قد انفك، جاء مسرعاً، وقام بإغلاقه بإحكام، تسبب لي ذلك بألم مضاعف، كنت أقول في نفسي "يا رب أرني معجزاتك"، وانفك مجدداً، فلم أحرك يدي، أبقيتها مرتاحة دون أن أظهر ذلك أمامهم، لكن يبدو أني غفوت فجأة فانزلقت يدي، وجاء الحارس مجدداً، ضربني هذه المرة، ورصّها بقسوة، كنت أرجوه بكل اللغات التي أعرفها أن يتوقف.

كان مريضي..

جاء أحد العساكر ليلاً، طلب أن أرافقه، مشيت في ممر ضيق، لم يطل مشينا حتى فاجأنا صوت جهور، سألني: انته باسم؟ قلت: نعم، قال: يالثور اشسويت في روحك، ليش جذي؟! لم أتعرف عليه، لايبدو لي أني أعرفه، قال: تعرف إني كنت أحد مرضاك، وأنك أجريت لي عملية في الركبة!! لم تكن

تلك الحادثة الأولى التي اكتشف فيها أن بعض هؤلاء الجلادين كانوا ذات يوم مرضاي، خففت يوماً جراحهم، وحفروا اليوم جراحي، سألني: ماذا تريد الآن؟ قلت: أريد أن أنام، نادى الشرطي، طلب منه أن يوفر لي فراشا، وأخبرته عن ألم القيد، فنقله للأمام، شكوت له ضربي وتعذيبي، فقال: يه هني بعد يطقون؟!

أخيراً جاؤوا بالفراش، ذهبت في نوم عميق، مرت بعض الساعات قبل أن أصحو على صوت آسيوي: هفكري قدام ها، واسطة!!، أمرني أن أقوم بتمارين، أخذت أقف وأنزل، كان نوعاً من التعذيب الناعم، وتغير الطاقم، فقال: خلاص، ما في مرقد، خلي هفكري ورا..

يوم صمت صوت صقر..

الزنارين كلها أصوات تضج بالعذابات "كان يصلني صوت رجل، ما أفزعني ليس تعذيبه، بل كلمة الحمد لله يرددها مع كل سياط يجلد جسده، عرفت لاحقاً أنه الشهيد زكريا العشيري، وكان يصلني صوت أخي غسان ودكتور عبدالخالق العريبي وهما يرددان الشعب يريد خليفة بن سلمان، لكن أسوأ ما حدث، كان تعذيب رجل بيننا، في ذات الزنزانة، كان مربوط الرجلين، مغطى الرأس، مقيد اليدين، وكان في فمه لجام، عرفت ذلك من معتقل جنائي آسيوي يحضر لنا الإفطار صباحاً. كان المقيد الملجوم هو الشهيد علي صقر، لم أعرف اسمه إلا بعد استشهاده بأسبوعين أو ربما عشرة أيام، كان رفيق زنزانتي في سجن الحوض الجاف، هما يومان فقط قبل أن يختفي صوته للأبد.

كان صقر يطلب الذهاب إلى الحمام لقضاء حاجته فلا يسمح له، رجلاه مربوطتان برباط بلاستيكي، وبيديه القيود، وكلما أعادوه بعد وجبة التعذيب ارتمى فوقي، لم أكن أراه، لكني استشعر قوة جسده، كان يرتمي في حجري، ويطلب أن أفك قيوده، كم كنت عاجزاً عن مساعدته والتخفيف عنه. في ذلك اليوم توقف صوت صقر. وساد الصمت في تلك الزنزانة الباردة. جاؤوني. اقتادوني لمكان أجهله، ضربوني، وسألوني ماذا رأيت؟ قلت لم أر شيئاً، ولم أكن أكذب، فقد كنت معصوب العينين، لكنهم استمروا بالسؤال، ثم أعطوني ورقة طلبوا مني أن أوقع وأبصم أيضاً، دون أن أرى ما كان بتلك الورقة!

يكمل ضيف: قضيت في التحقيقات الجنائية ثلاثة وعشرين يوماً، لكن ما لقيته في سجن الحوض الجاف كان موتاً لا يطاق، وكان للشهيد نصيب الأسد مما لقينا، علمت بعد مدة أن اثنين توفيا بالسجن، صقر والعشيري الذي كان يحمد الله على عذابه بامتنان نادر، لم أكن حينها أعرفهما، ولا حتى بالاسم، عرفت شيئاً واحداً وقتها، أن موتهما كان رحمةً علينا جميعاً، يوم توفيا توقف

التعذيب بسجن الحوض الجاف، بعد استشهادهما فكوا قيودنا، رفعوا العصابات عن أعيننا، وأحضروا لنا فراشاً للنوم وسمحوا لنا بالجلوس لفترة ممتدة لأول مرة منذ 26 يوماً.

باسم خرّب ركبتك..

كنا ثلاثة أشخاص أو أربعة في الزنزانة، لا حقاً أحضروا اثنين آخرين أحدهما المرض إبراهيم الدمستاني، وكان مريضي أيضاً، أجريتُ له عملية الرباط الصليبي، وكانوا في التحقيقات الجنائية يحضرونه، يضربونه على الركبة التي أجريت فيها العملية، ويقولون له: "قول دكتور باسم ضيف أخذ بيزاتك وسوالك عملية وخرب ركبتك!!" وكان دون اختيار يكرر ما يطلبون، رغم اني أجريت له العملية في مستشفى السلمانية، وبالمجان، حين التقينا لاحقاً، كان يبكي، جاء إليّ معتذراً، أخبرته أني أتفهم حتى وإن قال إني قتلته، فأنا أيضاً اضطررت في مرحلةٍ ما أن إقول ان الدكتور علي العكري لديه أسلحة!

أنا أحد تلامذتك..

بعد يومين من التوقف عن تقييدنا، أخذوني إلى العيادة الطبية، عصبوا أعيننا، وقيدونا إلى الخلف، جاء شخص يسأل عن اسم كل واحد فينا ويعاجله بالضرب. ما إن نادى اسمي وقلت نعم حتى جاءتني لكمة لم أجرب مثلها في حياتي. قال لي: إن ما خليتك تشتغل حمالي في السوق المركزي!!
أرادوا أخذي للعيادة فرفضت بسبب ما أسمعه عن تعذيب من يذهبون إلى هناك، قال لي الحارس: أنا سآخذك ولن أسمح لأحد بضربك. لم يضربني أحد، لكن أحداً هناك ما انفك يلكزني بالقلم في بطني ورقبتي. في المقابل كان طبيباً بحرينياً اعتاد أن يعاملني بلطف، كان ينادديني دكتور، وكان يردد دائماً: ما تآمر على أي شي، أو تحتاج أدوية. فكنت أخبره بما أحتاج من أدوية ويصرفها لي.
حين رفعوا العصابة عنا التقيت به، ابتسم وسلّم، سأل عن أخباري، قلت له: كأني أعرفك؟! قال: أنا أحد تلامذتك في كلية الطب، لا أنسى فضلك علي أبداً. هنا لم أتمالك نفسي، بكيت، شعرت أنه لا يزال هناك من يحكم علينا وفق معرفته بنا، أن هناك من يصدّقنا.

بقيدي وعصابتي أفحص وُاستشار..

في أحدى المرات التي أخذنا فيها لمبنى التحقيقات الجنائية، جاء أحدهم وسأل عني، أخبرني أني أجريت له عملية في كتفه، وأنه يعاني الآن من صوت وألم في موقع العملية، طلبت أن أفحص كتفه، فرفع عصابتي، وفحصته.

ذات مرة أدخلوني وأنا في العيادة غرفة، فكوا قيدي وأبقوا العصابة، دخل بعدها أشخاص بينهم

امرأة. قالت: نعرف أنك من الأطباء المتميزين والمشهورين، ولدينا استشارة طبية: لدينا مصاب قُطعت أصابعه، وأخذت تصف الإصابة، تدخل أحد الرجال المتواجدين، أمسك يدي، ووصف الإصابة من خلالها، أخبرتهم بجميع الاحتمالات، وأكدت أن لكل حالة خصوصيتها. قالوا: هل يمكن أن تجرى له زراعة؟ فقلت: إذا مرت ثمان ساعات على القطع، وبدون حفظ الأصابع بطريقة معينة لا يمكن، طلبوا أن أزودهم برقم جراح عالمي للمعالجة، أخبرتهم أني لا أحفظ الأرقام، ووجهتهم للاتصال بالدكتور يوسف العالي بالمستشفى. اقتادوني بعدها للحافلة التي كانت بالانتظار، وفي الأثناء جاء شخص وشكرني وقال إنهم حصلوا على رقم جراح عالمي من الدكتور يوسف.

طوال أشهر اعتقالي، مر علي أشخاص لا أعرفهم، يعرفونني بأنفسهم ويذكّرونني أني عالجتهم ذات يوم، كان ذلك وحده يخفف عني جرح التهمة الأكثر وجعاً: التمييز في العلاج. حتى بعد انقضاء كل ذلك، حين فتحت عيادتي، وكان يأتيني مريض من الطائفة الشريكة في الوطن، كانت تتملكني المخاوف من أن تكون فكرة اضراري به راسخة بداخله كما أراد النظام، لكن مع الوقت تخطيت الأمر.

لن أنس هزّاع..

هزّاع. أو هكذا أرادني أن أناديه، كان أكثر السجّانين رحمة، أقربهم إليّ، وكان يعتني بي، لم يعتد عليّ يوماً أو يؤذيني. يختفي لأيام ثم يعود فيسأل عني، كان يحضر لي الماء البارد عكس بقية الحراس. وفي يوم الإفراج أخذونا لعيادة الحوض الجاف، وأثناء الفحص جاء هزاع، عرفته من صوته، وكانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها. سألني: عرفتني؟ فقلت: نعم، هزاع، احتضنني وقبلني، وأنا فعلت الشيء نفسه. شكرته يومها بعمق وامتنان، لمعاملته الإنسانية طيلة فترة اعتقالي، وعدته أن أذكر فضله عليّ ابداً.

BTV يصور اعترافاتنا..

في أحد من أيام إبريل، ربما الإسبوع الثالث منه، وقت العصر، أخذونا من الحوض الجاف لمبنى التحقيقات الجنائية، ككل المرات السابقة، لا أحد يعرف السبب، تركونا هناك، نمنا على الأرض، كان المكيف باردا جداً، كنت أنا وأخي غسان والدكتور نادر ديواني نرتجف من شدة البرد، أشفق علينا أحد الحرس، أحضر لنا لحافاً، كنا ثلاثة، وكان غطاءً لا يتجاوز عرضه متراً ونصفاً أو أقل.

في الصباح اختلفت معاملة الحرس، فكوا القيود، قرابة الساعة العاشرة سمحوا لنا بالاستحمام، ثم تركونا نتشمس، أحضروا لنا الشاي، وحضر شخص له صوتٌ مميز، قال: أكو انشاالله اموركم

تخلص، وتفتكون. ثم أضاف:ربعكم الثانيين هدوهم بكفالة وانتو أموركم بتمشي بعد. سألته: كم مدة التوقيف؟ قال: المفروض شهر، شهرين بالكثير وبخلصون أموركم.

عرفنا بعدها أنهم يريدون تسجيل اعترافاتنا، لبثها على تلفزيون البحرين، جميع الأطباء تواجدوا يومها، الجنح والجنايات. وكان الشخص الذي يدير كل ذلك هو مبارك بن حويل، كل من يأتي دوره، يجلس على الكرسي المقابل للكاميرا والإضاءة، وكل تلك المعدات السوداء، مع كل الوجوه المحدقة إليك بحزم وقسوة واتهام فاضح، بعد الاعتدال في الجلسة، ترفع العصابة، المكان يبدو مثل استوديو مجهز، بجميع المعدات الخاصة بالتصوير، الأثاث فاخر جداً، المكان كبير، وعرفنا فيما بعد أن تلفزيون البحرين يحظى بمكانٍ خاص بمبنى التحقيقات الجنائية لمثل هذه الاستخدامات.

في المكان انتشرت المعدات والمكيروفونات التي تحمل شعار Btv، طاقم التصوير جميعهم ملثمون، بعضهم كان يرتدي الثوب ويلتثم بالغترة، بعد إعداد كل شيء أخذونا لكرسي الاعتراف. البداية كانت من نصيب الدكتور عبدالخالق العريبي، ثم أخي غسان، بعدها جاء دوري، تابعت اعترافاتهما جيداً، اتبعت الطريقة بحذرٍ بالغ، قلت اسمي، وظيفتي، تخصصي، قلت أيضاً أني درست على نفقة الدولة، ثم بدأت بسرد الاعترافات التي أجبرت على الاعتراف بها تحت وطأة التعذيب مسبقاً، وجوه النساء لم تكن مكشوفةً لنا، لكني تعرفت على الدكتورة جليلة العالي من كحتها الباهتة، بدت مجهدة جداً.

اعترفت تحت قهرالتعذيب والخوف، أن مصابين حضرا للعلاج بالسلمانية، وكانت إصاباتهما بسيطة، لا تستدعي التدخل الجراحي، وأني قمت بتعمد توسعة جروحهما، واختلاق إصابات وهمية، ليتم نقلها عبر القنوات الإعلامية العالمية. اعترفت تحت قهر التعذيب والخوف أيضاً أن الدكتور علي العكري أخبرني أنه يملك أسلحة نارية مخبأة في الحمامات وأسقف أجنحة مستشفى السلمانية، وأنه كان يهرب الأسلحة إلى دوار اللؤلؤة في سيارات الإسعاف. قال لي مبارك بن حويل: ممتاز باسم، ممتاز، هل تريد أن تضيف شيئاً؟ قلت: إني أجرمت، واعتذر للشعب.

الهزل غير المسبوق..

الاعترافات كانت أشبه بفيلم هزلي غير مسبوق: امتلاك أسلحة نارية. إجراء عمليات وهمية. ترديد الأطباء لنشيد منصورين والناصر الله عند سماعهم بقرب وصول الأسطول الإيراني لسواحل الخليج العربي. تلقي الأطباء للتعليمات من الشيخ علي سلمان. تلقي التعليمات بتأجيج الوضع في مستشفى السلمانية من النائب الوفاقي السابق خليل المرزوق بصفته عديل الدكتور علي

العكري. كما طلبوا منا الاعتراف أن أعضاء جمعية الوفاق كانوا يحضرون إلى طواريء السلمانية لتحريض الأطباء على اختلاق الأكاذيب والافتراءات وبثها عبر القنوات العالمية خاصة فيما يتعلق بكمية ونوعية الإصابات التي ترد المستشفى والمتعلقة بالوضع الأمني.

كما أُجبرنا على ذكر أسماء وفاقيين أنهم يحضرون السلمانية للتحريض، بينهم النائب الوفاقي السابق علي الأسود والسيد جميل كاظم. كما أُجبر الدكتور نبيل حميد على الاعتراف أنه قام بإجراء عملية غير ضرورية إلى الشهيد عبدالرضا بو حميد وتوسعة الجروح في رأسه، بإيعاز من الدكتور العكري وغسان ضيف لبث صور العملية للقنوات العالمية، وذلك رغبةً في زعزعة الأمن ومحاولة إسقاط النظام، مما أدى إلى مقتله. من ضمن الاعترافات أيضاً ان الدكتور صادق عبدالله قام بإجراء عملية فتح صدر لمصاب لإزالة رصاصة وقد تسبب ذلك بشكل مباشر في موته، وأن الدكتور نادر ديواني كان على اتصال دائم بالسفير الإيراني بالبحرين وأنه كان يتلقى التعليمات منه مباشرة خاصة تلك المتعلقة بتحريض الكادر الطبي على الاستمرار في احتجاجاته واعتصاماته.

وانتهت المعاملة اللطيفة..

استمر تصوير الاعترافات من الحادية عشرة والنصف ظهراً حتى العاشرة مساءً، وبينما بدأ النهار بمعاملة جيدة من السجانين انتهى ككل الأيام التي يمارس بها العساكر سطوتهم ويشبعون شهوة الوجع. في أثناء التصوير أعطونا استراحة، سمحوا بالتدخين لمن يريد، ما إن انتهى التصوير حتى تمت جرجرتنا للسيارة، تغيرت المعاملة تماماً، أحد الحراس ضربني على رأسي، قال لي: يالثور شلون يقص عليكم علي العكري.

عند عودتي للسجن، تلقاني رفقاء الزنزانة بالأحضان والبكاء، كانوا خائفين علي جداً، لاختفائي ليومين، أما أنا فكان الأمر كله مؤثراً بالنسبة لي. بعد عودتنا انضم لنا بالزنزانة الدكتور نبيل حميد والدكتور محمود أصغر.

عقاب الصلاة..

في الزنزانات يصبح الطريق الى الله أقصر. تعالوا نصلي صلاة جعفر الطيار: هكذا كسر ضيف الصمت المطبق، "إنه يوم الجمعة، وهي من المستحبات"، لم يكن الكثيرون يعرفون كيف يؤدونها، طلبوا منه أن يصليها بصوتٍ مسموع، وأن يقوموا بالمتابعة من بعده. بدأ، سحب الخيط النوراني، اتحد مع الله في أملٍ مشع، وراح يصلي، لم يكد ينتهي، حتى فُتح الباب بقوة، دخل أحد العساكر،

سحبه دون رفق، أخرجه من الزنزانة، ورماه بأخرى، كان يصرخ، يرجوه ألا يفعل، توسل أن يعيده إلى زنزانته، لكن الشرطي كان غاضباً من صلاته، في وقت لاحق، فُتحت الزنزانة، أخذوا جميعاً لمبنى التحقيقات، عند العودة، أعادوه لزنزانته الأولى، لكن العسكري ذاته، عاد مجدداً، ونقله، ليبقى هناك ثلاثة أشهر، ثمن صلاته!

في الزنزانة الجديدة، أصبح رفقاؤه الدكتور محمود أصغر والدكتور نبيل حميد والمسعف أمين الاسود والمدون أحمد الديري، وآخران يعملان في محمية العرين هما غالب وخليل، وفاضل وأحمد (مصاب بالصرع ولديه جزء من الإعاقة الذهنية). رغم هذا الخليط الثقافي والمعرفي إلا أن برنامجاً يومياً كان يجمع بينهم "بعد استقراري في هذه الزنزانة، اتفقنا أن نقوم ببرنامج روحاني ليلي من الصلوات والأدعية والزيارات، كنا بحاجة لإضاءة الجانب الروحاني في داخلنا، كانت تلك الطريقة الوحيدة لدعم نفسياتنا ورفع معنوياتنا، بعض الأشخاص لم يكونوا على علم بكيفية أداء صلاة الليل فتطوعت لتعليمهم، كنا نعتمد على ذاكرتنا في استحضار الأدعية والزيارات لعدم توافر الكتب المختصة بذلك.

بعد العشاء مباشرة يبدأ البرنامج، لم يقتصر الأمر على الأدعية والصلوات، كنا نحيي سير الأنبياء وآل بيت النبي. أما أحمد الديري فكان له نصيب الأسد من المعلومات. يتميز بغزارة حفظه ومعلوماته التاريخية، وهو من أكثر الأشخاص الذين يضفون جواً روحانياً لهذه الجلسات.

لكل منا خبرته وتجربته..

لم يكن الدين وحده حاضراً، كان الإنسان أيضاً، بذكرياته، خبراته، معرفته، وعجزه أيضاً، يقول الدكتور ضيف: "كنا في بعض الليالي نستمع لخبرات بعض المعتقلين، خليل كان بحاراً ماهراً، وخبير في أنواع الأسماك وأشكالها وطرق صيدها وأماكن تواجدها. أما غالب فيعشق الخيول، ويتميز بمعرفة أنواعها وطرق التعامل معها وحتى التحدث إليها، وقد كان يروي لنا قصصاً كثيرة مع أفراد من العائلة الحاكمة. لاحقاً أضيف لنا معتقل آخر اسمه جاسم الصباغ، وهو ممن أكن لهم معزة خاصة حتى اليوم، فقد قام بتعليمنا علم تجويد القران الكريم، ولكن لم نلتق به إلا بعد نقلنا لعنبر رقم6 بعد انتهاء حالة السلامة الوطنية".

أما أحمد المريض بالصرع، فقد كان مقدراً له أن يتشارك الزنزانة مع أطباء، فذلك يعني الكثير لحياته. في إحدى الليالي، وقف يصلي صلاة الليل، قبل أن يسقط بفعل نوبة صرع، كان طويلاً وضخم الجثة، ولم يكن أحد يعرف عنه الكثير لكونه قليل الكلام، كانوا على علم بتناوله الأدوية،

يقول باسم: "قمنا بإسعافه أنا ونبيل حميد، استدعينا الشرطة، وتم مباشرة إخراجه من الزنزانة"، منذ تلك الليلة لم يعد أحمد، أخبرهم أحد الحراس أنه نقل إلى المستشفى العسكري، وأطلق سراحه بعدها، لكن لا يمكن الجزم بذلك أبداً.

خصوصية عنبر رقم 5

العنبر رقم 5، هو عنبر الأطباء، ملتقى الاستشاريين، جميع متهمي الكادر الطبي من الجنح والجنايات تحت سقف واحد، وكانت كل زنزانة من زنزاناته التسع تحتوي على استشاريين أو ثلاثة، لقد كاد العنبر أن يتحول لأكبر تجمع طبي قد يشهده مكان مماثل، حيث يختلط تخصص العظام بالتجميل والأسنان بالمخ والأعصاب والأطفال بزراعة الكلى والعيون، بالإضافة إلى عدد من المسعفين والممرضين بما فيهم رئيس الإسعاف.لكن لم يكن هذا الاجتماع لأمر له علاقة له بتطور مهنة الطب، بل اضمحلالها.

في السجن يمكنك توقع أي شيء، وتقبل كل شيء، وفيما يبدو العذاب والقسوة هي كل ما هنالك، تظهر الرحمة لدى البعض أيضاً، هذا ما حدث تماماً، في سجن الحوض الجاف، مع أحد الحراس، وكان اسمه "أبو عبدالله" أو هكذا أراد للمعتقلين أن يعرفوه، وتدل لهجته على أصوله اليمنية، "كانت معاملته ممتازة" كما يقول باسم ضيف، "كنا نشعر بعطفه".

"وجبة الإفطار كانت عبارة عن بيضتين، خبز، شاي، قطعة جبن واحدة، وعلبة مربى صغيرة، كنا نتوسل الحرس الباكستانيين أن يعطونا قطعة جبن إضافية فيرفضون، أما أبو عبدالله فكان يعطينا، وفي بعض الأحيان كنا نتفاجأ بعلبة الجبن كاملة تعبر قضبان زنزانتنا، وكان أحياناً ينقل لنا أخبار ما يدور في الخارج، منه عرفنا عن موت السيد علوي الغريفي، وأن ابن الملك ناصر قام بزيارتهم لتقديم العزاء. من بين الأشياء التي نقلها لنا أيضاً أنهم وجدوا أسلحة وأجهزة تنصت في مستشفى السلمانية، وتلك كانت تهماً لم نعرف أنها وُجهت لنا، من ضمن ما قاله لنا إنه سيتم الإفراج عنا، وأن تلفزيون البحرين نشر خبر الإفراج عن 42 طبيبا وطبيبة، وكانت علاقتنا به طيبة، وننتظر قدومه بصبر، عله ينقل لنا خبراً يفرح قلوبنا"

عنبر جديد مفتوح على العتمة..

في يوم 30 مايو، نقلنا إلى عنبر آخر هو عنبر 6، في الزنزانة الجديدة، بدأت مرحلة عذابٍ آخر، كل شيء هناك مهيأ لإرعابك، الإضاءة الخافتة، الألوان الباهتة، الأبواب الحديدية بالكامل. الزنزانة ضيقة جداً، في وقتٍ متاخرٍ من الليل جاء شرطي، وطلب أن يقرروا أسماء 4 ليغادروا الزنزانة التي

لا تستوعب هذا العدد. رفض الجميع المغادرة، طلبوا من الشرطي أن يسمح لهم بالبقاء جميعاً رغم الضيق، فقد اعتاد كل منهم على الآخر وتوثقت العلاقة. مضى عنهم، قبيل الصبح عاد، هذه المرة اختار بنفسه أربعةً نقلهم إلى زنزانةٍ أخرى. في تلك الليلة هبط الحزن، خيم على الجميع همٌ ثقيل، يقول ضيف: "شعرنا بالضيق، وعدم القدرة على التنفس، وأجهشنا بالبكاء، الشرطي أيضاً كان متاثراً، بعد تلك الحادثة أصبحت علاقته بنا وثيقة، كان يأتي من حينٍ لآخر للسؤال عنا، بدأ منذ تلك الليلة بإخراج الجانب الإنساني المختزل في داخله"

في الخامس من يونيو، تفاجأنا بزيارة اثنين من كبار الضباط، أحدهما كان ملثماً، أخبرنا أن نكون على استعداد بعد صلاة الفجر، قال: صلوا والبسوا وكونوا مستعدين. جزء كبير منا توقع الإفراج، مع ذلك لم نكن فرحين، بل مضطربين. قضينا ليلتنا في الدعاء. عند الفجر، أطلقوا نداء للكادر الطبي كي يستعد، أوقفونا مقابل الجدار، عصبوا أعيننا، كبلوا أيدينا ونقلونا في باصات صغيرة، حشرنا فيها معاً، الغريب أنهم انهالوا علينا ضرباً وركلاً اثناء صعودنا، كنا في حيرة مما يحدث، فقد ظننا أننا ودعنا مرحلة الضرب.

انطلقت السيارة، لم تمض أكثر من سبع دقائق حتى توقفت، أنزلونا لمكانٍ لا نعرفه، رافق ذلك ضربٌ عنيف، أذكر أني تلقيت لكمات في البطن والوجه، وضربات على مؤخرة رأسي، المكان الجديد لم يكن سوى سجن آخر، كان ذاك سجن أسري، الزنزانة كانت صغيرة، لكن يميزها الارتفاع الشاهق للسقف.
فكوا القيود، وأبقوا العصابات، وبدأ كل واحدٍ منا يحدث الآخر، بالقرب مني كان الدكتور عبدالله الدرازي، أحد طلبتي في كلية الطب سابقاً، وضع رأسه على كتفي، همس بصوت متحشرج "ماذا سيفعلون بنا دكتور؟! لقد كسروا أنفي"، عرفت فيما بعد أنه تلقى ضربة على أنفه أثناء نقلنا تسببت في كسره، أخذت أهدئه، وأقول له استبشر خيراً إن الله معنا، وأن الفرج قريب".

حتى تلك اللحظة، في تلك الزنزانة الشاهقة، كان الإفراج هو كل ما يتوقعه ضيف ورفاق المعتقل، يقول: "نظرت إلى الجدران الشاهقة، في الأعلى نافذة صغيرة، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد، وما إن بدأ النهار، حتى سمعت زقزقة العصافير، وبدأت أستشعر طعم الحرية".

في الصباح، جاؤوا بالإفطار، جميع العساكر كانوا ملثمين، طلبوا من المعتقلين أن يأكلوا بصمت قبالة الجدار. لم يأكل معظمنا، كان التوتر سيد تلك اللحظة المجهولة.

نادوا علينا، واحداً بعد الآخر. قاموا بجرنا إلى السيارات، وابلٌ من الكلمات البذيئة يرافقنا، ضربونا ونحن نصعد، حشروا أحدنا فوق الآخر، كانوا يتعمدون إذلالنا، أمرونا بإنزال رؤوسنا للأسفل، هددوا بضربنا بالشوزن في رؤوسنا إن لم ننزلها. توقفت السيارة، المكان شديد الحرارة. الوهج الذي يملأ المكان، يشعرهم أنهم في الصحراء، عند البوابة استلمهم بحرينيون، كان ذلك واضحاً من لهجتهم، أدخلوهم غرفة ضيقة، أخبروهم أنهم بعد قليل سيدخلون على القاضي: لا نريد نفساً ولا ابتسامة ولا صوت. أدركوا انهم في المحكمة العسكرية.

العالم كلّه معكم..

بدأوا ينادون بأسمائنا، اكتشفنا لاحقاً أن ذلك من أجل تقسيمنا إلى مجموعتين، الجنح والجنايات، نادوا على مجموعتنا، فتح الباب، وأمام قاعة ضخمة، وقفنا مشدوهين، مشينا على امتدادها، كان الحضور خليطاً من الرجال والنساء، القاضي، والشرطة العسكرية، وكانت هناك الوجوه الذاهلة، وسط صمت القاعة بدت أنفاسهم مرتفعة، مرتفعة جداً، أخذت أتفحص الوجوه، نعم، ها أنا أكتشف أحدها، ابنتي زينب، أول الوجوه الحبيبة التي التقتها عيناي، ابتسمت بحذر، هززت رأسي، أردت أن أقول لها إني والدك ذاته لم يتغير، وإنني بخير، بخير فقط.

عدَّد القاضي الأسماء، كانت العيون ما تزال تبحث بين الوجوه الحاضرة عن الأحبة. أنهى القاضي الجلسة، لم يعرف المتهمون أسباب وجودهم، كما لم يطلع عليها محاموهم، أخرجوهم بعد الجلسة من جديد، تحت أشعة الشمس الحارقة تركوا، كان الوقت يقترب من الظهيرة، جاء أحد العساكر، أخبرهم أن لديهم زيارة، كانت تلك المرة الأولى التي يلتقون فيها بأسرهم بعد انقطاع أشهر.

الجميع غرق في حرارة دموع اللقاء، حتى إني رأيت بعض المحامين يبكون. كنت أجلس على الكراسي في الصف الأول، رأيت أبي يدخل القاعة مهرولاً، ذهبت إليه، ارتميت عند قدميه، بكيت كما لم أبك في حياتي أبداً. أردت أن أقبل يد زوجتي وجبينها، لكنها منعتني، قالت أريدك أن تكون قوياً، أنتم أبرياء، ارفعوا رؤوسكم. من بعيد جاءت محاميتي جليلة السيد، كانت تبكي، ومن خلفها المحامية ريم خلف، عرفت اسمها لاحقاً، كان بالمحكمة أيضاً ممثلون عن السفارة الأمريكية ونائب وزير الخارجية الامريكية لشؤون الشرق الاوسط مايكل بوزنر وممثلون لما يسمى بجمعية الاطباء.

حين هممت بالخروج أشرت بقبضتي، وقلت بصوت مسموع للجميع: لقد خدمت وطني 25 عاماً، وسأخدمه فيما تبقى من عمري. كان ذلك وسط ذهول الضباط والعسكر. المقابلة لم تتجاوز 7 دقائق، لكنها تركت في داخلي قوة لتحمل ما كان وما سيكون. كلمة أبي بقت ترن فيّ: العالم كله

معكم يا ولدي فلا تبتئسوا.

رحمة القرآن..

في صبيحة أحد الأيام، تم استدعاؤنا لعنبر آخر، أنا وأخي غسان فقط. دخلنا على مسئول عرفنا لاحقاً أنه ابراهيم الغيث المفتش العام للسجون، سأل عن تخصصاتنا ومكان عملنا وكانت معاملته جيدة معنا، استفسر أيضاً عما إذا كنا نشكو من أي آلام، استدعى أحد الضباط، أمره بأخذي للعيادة، وأن يقوموا بعمل الفحوصات اللازمة، والعلاج الطبيعي (لحين الإفراج عنا لم يتم عمل الفحوصات المذكورة)، أما العلاج الطبيعي، فقد حصلت عليه بعد شهر ونصف، حين أعدت طلبي مجدداً.

(الغيث) زارنا لاحقاً، بالتحديد بعد الإفراج عن متهمي الجنح، سألنا إن كنا نريد أي شيء، فطلبنا إدخال كتب وأشياء أخرى، قال إن ذلك غير مسموح، لكن لاحقاً سمح لنا بادخال كتابين طبيين، فرفضنا، كنا نريد شيئاً نختاره برغبتنا، وبعيداً عن العمل.

في يونيو وُزعت المصاحف، بعد مضي أكثر من ثلاثة أشهر على اعتقالنا، كانت تلك من اللحظات المؤثرة، أمسكت أحد المصاحف، قبلته وأخذت أبكي، كان في توزيعه آنذاك رحمةً لنا وعلينا، غيّر من نفسياتنا كثيراً، شعرت حينها أن بين يدي جوهرة، كانت الفرصة مناسبة للبدء في ختم القرآن، بالنظر الى مساحة الفراغ الممتد، كان الوقت يتسع لأكثر من ذلك، لهذا تطوع أحد رفقاء الزنزانة الاستاذ جاسم بإعطائنا دروساً في التجويد، انضم إلى هذا البرنامج الدكتور محمود أصغر والمسعف أمين الأسود وأنا، وكان الآخرون يشاركون ولكن بشكل غير منتظم.

لم أعتقد أبداً أن أتمكن من تجويد القرآن، وخاصة في السجن، لقد اختلف الأمر مذ كنا في عنبر رقم 5، حين كان الاستاذ جاسم يقوم بتعليم بعض المعتقلين أحكام التجويد، كنت أصرخ فيهم، أردد بيأس إنكم فارغون، نحن نقبع في هذا السجن اللعين، ونفسياتنا متعبة، والتجويد أمرٌ صعب جداً، لكن تغير كل ذلك، كنا نتعلم التجويد، لساعتين على مدى ستة أيام في الإسبوع عدا الجمعة، نقضيه في العبادة والصلاة وقراءة القرآن.

بعد أن تمكنا من المباديء الأساسية لعلم التجويد، قرر الأستاذ جاسم أن يمتحنا. الامتحان جزئين: نظري وعملي، الدكتور محمود أصغر الذي تميز بصوته الشجي وقراءته الرائعة استحق المركز الأول، فيما حصلت أنا والأسود على المركز الثاني مكرر. الامتحان النظري أجري على ورق

علبة الصابون، واستطعنا من خلال معتقل جنائي آسيوي تهريب قلم رصاص صغير، وأصدر لنا الأستاذ شهادات اتقان التجويد التي كتبها على ورق علب الصابون أيضاً.

التحايل على الفراغ..

كلما طالت إقامتك فيما لا يشبهك، صار خيارك التأقلم، أو الاحتيال عليه لجعله يشبهك قدر الإمكان، وسيكون كل شيء محرّضاً لك على فعل شيء آخر منه "كانت وجبات العشاء توزع في علب فيلين بيضاء اللون. نبيل حميد وأمين الأسود قررا أن يحتفظا بالعلب، لاحقاً قرر حميد أن يستغلها لصناعة لعبة الدومنة، بدا ذلك دافعاً للبحث عما يجعل الفكرة ممكنة. أثناء تجولنا ذات يوم حصلوا على مسمار صدفة، قرروا الاحتفاظ به، استخدموه لتقطيع علب الفلين، وبذات المسمار نقشوا نقاط قطع الدومنة عن طريق الضغط، تلك الحفر ملئت فيما بعد بمعجون الأسنان الملون، وحين حصلنا في عنبر 6 على قلم ملون، استخدمه الدكتور نبيل لتثبيت العلامات. صنعوا أيضاً لعبة الشطرنج من الأدوات ذاتها، وكنا نحتفظ بكل ما نجده علنا نستفيد منه لاحقاً، ذات يوم وجدنا خيط، فاستغله أحد المعتقلين لتنظيف الشعر الزائد من وجوه الزملاء.

مع الوقت بدأت علاقتنا تصبح جيدة مع الحراس، ورغم أننا كنا نجهل أسماءهم، إلا أن ابتكار أسماء نميزهم بها بدت فكرةً طريفة، كنا نطلق على أحدهم اسم الديك، لان شعره طويل كعرعر الديك، وآخر سنان لأن أسنانه الأمامية طويلة كالشخصية الكارتونية الشهيرة سنان، واخر اسمه "سرعة" لانه كان يكرر علينا كلمة سورعة سورعة كلما ذهبنا للحمام".

لم أفقد ثقة مرضاي..

اسوأ تناقضات تلك المرحلة أن يلجأ سجان إلى طبيب خلف القضبان، فيما هو يتهمه في الخارج بخيانة شرف مهنته "أحد الضباط جاءني يوماً قال إن لديه مشكلة بكتفه، طلب أن أفحصه، أخبرته أنه ليس بحاجة لتدخل جراحي. في يوم آخر استدعاني أحد الشرطة، قال إنه يريدني لأمر ضروري في فترة الاستراحة، رأيته حينها يعرجّ، أخذني لغرفة مجاورة، قال إنه سقط بالمنزل، وان ركبته متورمة، سألني إن كان لدي مانع بفحصها، فقلت قطعاً لا، وخلعت حذاءه، وفحصت رجله، ووصفت له العلاج المناسب، جاء بعد ثلاثة أيام، شكرني بشدة، وأخبرني أن الدواء الذي وصفته كان له مفعول السحر.

الشرطي المسئول عن الهاتف أيضاً وصف لي حالة زوجته، ووصفت له علاج، لقد كنت أشعر وهم يطلبون مني فحصهم، أني لم أفقد يوماً ثقة مرضاي، رغم كل الشائعات والاتهامات الباطلة.

الانهيار..

مع الإفراج عن معتقلي الكادر الطبي لقضايا الجنح، ازدادت الأوضاع في عنبر رقم 6 تأزيماً وتعقيداً. فتحت الزنزانة ظهر أحد الأيام، دخل أحد الضباط، نادى: نبيل حميد، أمين الاسود وآخرين. طلب أن يأخذوا جميع حاجياتهم: إفراج. شعرنا بالغبطة لهم، لكن الغصّة علينا. في الليل وقف الباقون متضرعين بالدعاء. بيننا شخص اسمه زهير، سكرتير الجمعية الطبية، كان لبكائه وجعٌ خاص بيننا، ولحرقته أن يستجاب لها، فجأة انفتح الباب، دخل أحد العساكر، نادى اسمه، وطلب أن يحمل أشياءه معه، كان موقفاً مؤثراً للجميع.

يقول الدكتور ضيف: "كانت تلك الليلة والليلة التي تلتها، من أصعب ما واجهنا، انهار اخي غسان، عرفت ذلك من خلال فتحة الباب، رأيتهم يخرجون أخي فاقداً للوعي، أخذت أضرب الباب بقوة، أصرخ طالباً أن يفتحوه، من النافذة الصغيرة سألوني: ماذا تريد؟ قلت: أخي متعب، أريد أن أذهب معه، أن اطمئن عليه، لم يسمحوا لي بذلك، لكنهم سمحوا لي أن أحدثه عبر النافذة الصغيرة، سألته الصبر وأن الفرج قريب، وكان الإفراج عن عدد من الكادر الذين كانوا معتقلين معه بذات الزنزانة سبباً رئيسياً لذاك الانهيار. بعد يوم أو يومين، حين حضر المفتش العام لزيارتنا، طلبنا منه أن نعرف قضايانا، والتفت لأخي غسان وقال له: شكلك مو عاجبني، مريض؟ تعبان؟ اشفيك، بعد أن تحدث غسان، تدخلت أنا وقلت إن أخي متعب نفسياً، وأننا منفصلان في زنزانتين مختلفتين، أريده أن يأتي معي، أو أذهب إليه، فقال: هذا ما تريدان؟ فقلت: نعم. قال: سنرى.

بنجيب لك أخوك..

في ذات اليوم، جاء الضابط، سمعت أصوات ضجيج، فنظرت عبر النافذة، رأيتهم يفتحون باب زنزانة أخي، طلبوا منه أن يحمل حاجياته، ثم فتحوا باب زنزانتي، قال لي الضابط: "يالله خذ أغراضك، بتروح قرين"، لم أكن أعرف ما هو قرين، فقال: "سجن عسكري"، كاد قلبي أن يقع قبل أن يضحك وهو يقول: لا بس خلاص، يالله بنجيب لك أخوك.

مع دخول غسان ضيف، عادت الذكريات تُضخ في روح باسم. القدر الذي جمعهما دائماً: الغرفة نفسها، المدرسة ذاتها، الجامعة نفسها (جامعة الملك سعود بالرياض)، مكان العمل نفسه (مستشفى السلمانية)، أكملا دراستهما وتدريبهما بالمدينة ذاتها (دبلن)، سكنا الشقة نفسها، وحين حضرت زوجتاهما انفصلا في السكن وبقيا في المبنى ذاته، وأصبحا استشاريين في وقت متقارب، افتتحا عيادتيهما الخاصة بالمجمع الطبي نفسه، والوقت نفسه، ابتاعا أراضي سكنية

بذات المنطقة، أصبحا جارين يجمع بين منزليهما جدار، "سبحان الله، هكذا تدور السنون، ونعتقل بذات اليوم، نعذب بنفس الطريقة، ويساء لنا جسدياً ونفسياً بالأسلوب ذاته. عدت بشريط الذكريات عميقاً، إلى رحلة الروح للحج معاً، وبعض الأماكن المقدسة، كان فصلنا بعد كل ذاك الالتصاق موجعاً".

مع تدهور صحة غسان ضيف، نفسياً وجسدياً، لاحظ رفاق الزنزانة أن شقيقه يشاطره التعب أيضاً، لكن باسم كان يحتال على الأمر، يكتم تعبه وتوجعه لحال أخيه، يظهر له قوةً مصطنعة، وحين يختلي بنفسه، في دورة المياه تحديداً، ينهار، يبكي، يقول:"كان الأمر موجعاً، موجعاً فقط".

لقاء الثقوب الضيقة..

في الأسبوع الثاني من شهر يونيو، كان موعد الزيارة الأولى "نقلنا إلى قسم التحقيقات الجنائية، تم إدخالنا ل"صنادق"، على الكرسي الوحيد هناك جلست، أمامي واجهة بلاستيكية، ثقبت بست أو سبع ثقوب في منتصفها، لا يتجاوز قطر الواحد منها سنتيمتراً واحداً، وغلّفت بشباك حديدي من الخارج، جلست بترقب، لم أكن قابلت أبنائي قبلها عدا زينب التي رأيتها في المحكمة العسكرية. فتح الباب فجأة، كانت ابنتي إسراء، صرخت: باااااباااااا واندفعت نحوي، ثم توقفت فجأة متسمرة في مكانها. انتبهت لوجود الحاجز. لحقها ابني الأصغر محمود، الصدمة نفسها. أوجعنا جميعاً هذا اللقاء.لم أستطع لمسهم عوضاً عن شمهم أو احتضانهم، بالكاد استطعت ملامسة أطراف أصابعهم الصغيرة، كانت الزيارة تقتصر على ثلاثة أفراد من العائلة، لم يكف العدد لدخول أمي. خلال تلك الزيارة التي لم تتجاوز ربع ساعة، بقي ابني محمود يحدثني بكل براءة عن لعبة التنس التي يعشقها. وعدته أن آخذه لبطولة التنس بالولايات المتحدة الأمريكية ما إن أخرج ويسمح لي بالسفر. لهذا سنسافر قريباً لانفذ وعدي (خلال كتابة هذه السطور كان باسم ضيف يحلق مع ولديه أحمد ومحمود للولايات المتحدة، تنفيذاً لوعده). أما إسراء فقد بقيت متماسكة أمام والدها عملاً بكلام والدتها، لكنها ما إن خرجت حتى أجهشت بالبكاء المر: لم احتضن بابا ولم ألمسه. أحمد ذو الـ17 عاماً رفض الذهاب لزيارة والده: أحتفظ لابي بصورة رائعة، قوياً، مهيباً، ولا أريد أن أراه في موقف ضعف. كان يقول لوالدته.

لجنة تقصي الحقائق

تناقلت الأنباء خبر وصول لجنة لتقصي الحقائق، وما كان يدور خارج الزنازين من جدل، هو ذاته ما كان يدور داخلها، البعض قال إنها لجنة لتغطية الجرائم، وآخرون كانوا متفائلين تجاهها، "أول من زارنا من اللجنة القاضي خالد محيي الدين. كانت زنزانتنا هي الأولى، ألقى التحية،

واستدعاني وأخي غسان، جلسنا معه، طلب أن نحدثه عن كل شيء، فتحدثنا عن أمورٍ عدة، عن الاعتقال والتعذيب، عن الإساءات اللفظية والجسدية، ولم نتطرق حينها لتهمنا وقضايانا، تكررت الزيارات من اللجنة، وأصبحت العلاقة جيدة بيننا، كانوا دائماً يبثون فينا الأمل، ويؤكدون أننا سنخرج، أحد اعضاء اللجنة أعطاني ذات يوم هاتفه، قال اتصل لأهلك وحدثهم".

مع تكرار زيارات اللجنة، كانت الظروف في السجن تتحسن، أصبحت علاقة السجانين بالمعتقلين جيدة، وتغيرت بعض الأمور الأخرى أيضاً، أصبحت الاتصالات يومية، ولمدة 7-5 دقائق، لاحقاً تم تمديد فترة الزيارة من عشرين دقيقة إلى نصف ساعة، ثم إلى ساعة أو أكثر في الأسابيع الاخيرة، كما تم زيادة عدد الزيارات من واحدة الى اثنتين بالأسبوع.

بسيوني: أنت محظوظ بجلوسك معنا..

"كان من الأيام المميزة في السجن، يوم أن زارنا السيد بسيوني"، هكذا وجد باسم الأمر. يقول:"دخل علينا وسط جمع كبير من الضباط، الذين أخذونا لزنزانة بها كراسي وتلفزيون، جلس معنا السيد بسيوني، لا أستطيع القول عنه سوى أنه مستمع جيد، يجبرك باهتمام أن تنطلق بالكلام، ولعلمنا المسبق بزيارته، قمت شخصياً بكتابة رسالة له، أخبرته أثناء اللقاء أنه محظوظ، رمقني بدهشة، فأعدتها، قلت له أنت محظوظ لأنك تقابلنا، ولسنا وحدنا المحظوظين بلقائك. ربما قمت قبل الآن برئاسة عدة لجان وقضايا معقدة، في ليبيا ويوغسلافيا وغيرهما، ونعرف أنك تعمل بروفيسوراً في أحدث المراكز في شيكاغو، لكنك ما زلت محظوظاً أنك تجلس اليوم أمامنا، إذ لم يحدث في تاريخ البشرية قط أن قام رئيس دولة أو حاكم أو والي باعتقال أطباء واستشاريين لهم ثقلهم لأنهم عالجوا مصابين أثناء الأحداث، كما لم يحدث في تاريخ البشرية أن تعرض هذا الكم من الاستشاريين والجراحين إلى أسوأ أنواع التعذيب والإساءة اللفظية والجسدية وتلفيق كل هذه الأكاذيب والفبركات، وكان ينظر ويستمع لي باهتمام.

قلت لبسيوني إنه الآن يحمل مسئولية تاريخية، فرد عليّ: يا بني أنت حملتني دلوقت مسئولية كبيرة علي. قلت له أمامك الآن طريقان لا ثالث لهما: إما أن تقف مع الحق فتدخل التاريخ، وإما أن تقف مع الظلم وتدخل التاريخ أيضاً لكن من باب آخر، وسيذكر التاريخ حينها، أنك وقفت في المكان المظلم منه، والخيار لك.

عدد من الكادر الطبي أيضاً تحدث، وصفوا بشاعة الانتهاكات الجسدية التي واجهوها، وطرق التعذيب التي تعرضوا لها، وهناك أمور أثارته جداً، من بينها حين أخبره أحد الأطباء كيف أنه

أُجبر على أكل برازه، كان تأثره لهذه الحادثة جلياً، وقال: مهما وصلنا من إساءة، لا يمكن أن تصل إلى هذه المرحلة من الانحطاط في الإنسانية. وطلب يومها أن نتحدث بتفصيل تام عن أي إساءة لفظية تعرضنا لها، خاصة تلك المتعلقة بالمعتقد، مثل: يا أولاد المتعة، أنتم الشيعة نجسين، أنتم صفويون، التعدي على الأئمة، ولم يكن أحدنا بحاجة للبحث في الذاكرة ليتأكد، فقد كان كرمهم بتلك الشتائم مبالغاً.

بسيوني يعانق الأطباء..

قبل أن يغادر بسيوني، عانق الأطباء. بدا ذلك مؤثراً جداً، وكان الدكتور نادر ديواني يبكي وهو يحتضنه، أثر فيه الأمر جداً وأثاره، وقد ذكر ذلك في إحدى مقابلاته. مع انتهاء زيارة السيد بسيوني، تغيرت الكثير من الأمور نحو الأفضل، سمحوا للمعتقلين بالجلوس في ذات الغرفة التي قابلوه فيها، كانوا يشاهدون التلفاز على فترتين صباحية ومسائية، لاحقاً فتحت الزنازين على بعضها، وفي بداية شهر رمضان تم فتح الزنازين بشكل متواصل من الساعة الحادية عشر صباحاً وحتى الثالثة فجراً، مع استمرار السماح لهم بالاتصال يومياً لمدة 7-5 دقائق، بعض الحرس كانوا يتعاونون معهم بشكل شخصي، فيسمحون لهم بالاتصال لأكثر من مرة، واستخدام الهاتف العمومي أيضاً، أحياناً لم يكن لديهم ما يقولونه لفرط ما تحدثوا مع ذويهم.

حين فتحت الزنازين على بعضها، عاد ذلك بأثر إيجابي على نفسيات المعتقلين، يقول ضيف:"كنا نلتقي مع الآخرين، نتحدث إليهم، نتشاور، ونستمع لظلاماتهم، طرق اعتقالهم، تعذيبهم، وكان من حسن الحظ وجود أبناء عائلات المنامة العريقة، أبناء بن رجب، المخرق، العريض، الحمد، الصفار، العلوي، القصاب، وآخرين لا يسعني ذكرهم جميعا. ولكوني تربيت في المنامة، وعاشرت العديد من الأصدقاء الذين ينتمون لذات العوائل، فكان لذلك القدرة على إعادتي لمدينة طفولتي. أيضاً بين المعتقلين الأعزاء المتواجدين، السيد علوي أبو غايب، الذي كان دائماً يبهرنا بقصائده العزائية الملحنة، وإلقائه المميز، وتعلمت منه الكثير عن تاريخ عوائل المنامة العريقة، كما تعلمت منه عن أطوار الإلقاء الحسيني، كان يأتي بأبيات لقصائد حسينية معينة ويقوم بإلقائها بعدة أطوار، ولذا كان أول كتاب طلبت من زوجتي إدخاله بعد السماح لنا هو كتاب ملا عطية الجمري.

رمضان يجمعنا..

مع اقتراب رمضان، تأمل المغيبون خلف القضبان أن يطلق سراحهم، بدت الأيام الأولى من الشهر الفضيل ثقيلة، وموجعة، "كانت زوجتي مصرة على إحضار الإفطار كل يوم، وكانت الإدارة تصر على عدم السماح بذلك، لكنهم كانوا يعوضوني عن ذلك بإحضار الأكل أثناء الزيارة، كان ذلك

يأخذني للجو العائلي الذي كنت اشتاقه، وأفتقده. كان يحضر للمقابلة والدايّ أيضاً وأخوتي وأعمامي وأخوالي وأبنائهم، احتفلنا ذات يوم بعيد ميلاد ابني محمود، الذي صادف يوماً من أيام رمضان، في تلك الليلة أحضروا الكعك، واحتفلنا معاً، غنينا، وأطفأنا الشموع، وكان ابني فرحاً جداً، أخذني ذلك لاجواء العائلة.

كلمة حق للعميد الإنسان..

لن أنسى كلمة حق للعميد يوسف بوعلاي. كان متعاوناً جداً معناً، ولم يأل جهداً لتوفير أمور عديدة، بما فيها الزيارات وأوقاتها ومدتها، والسماح لنا بالاتصال في أوقات غير المخصصة لنا أيضاً، كان يقوم بزيارتنا للسؤال والاطمئنان، بل قام ذات مرة بزيارتنا في وقت الزيارة، وجلس مع أهلنا، وقام والدي بتقديم الضيافة له، وشاركنا في طعامنا، وعاد بعد ساعة أو ساعتين وسأل إن كنا بحاجة لوقت إضافي. ذات مرة طلب مني مرافقته للعنبر، فكنا نمشي معاً دون أن أشعر أنه العميد وأنني السجين، وعند وصولنا للعنبر سألني إن كان ما أحمله طعام، فقلت نعم، فقال للحراس: الدكتور لديه طعام لا داعي لتفتيشه وأدخلوه، وسألني إن كنت أريد الاتصال بأهلي فقلت ياليت، وسمح لي بالاتصال لربع ساعة. بعد الإفراج عنا، قمت أنا وأخي غسان وزوجتينا بزيارته في مكتبه في مبنى وزارة الداخلية وشكره لكل ما قام به.

الطب الشرعي لأول مرة..

كثيرة هي المواقف التي مررنا بها في السجن، لكن أكثرها رعباً كان سوقنا إلى حيث لا نعلم، فإدارة السجن كانت حريصة على تركنا للمجهول يتخبط بنا كيف يشاء، وكان لرعب أفكارنا أن تهزم أجسادنا الضعيفة سلفاً، لم نكن نملك غير الإذعان لما يريدون، لنكتشف بعدها أننا في المحكمة أو التحقيقات أو القلعة، ولم تكن هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، كان يوماً من أيام شهر رمضان، قاموا بإيقاظنا صباحا بشكل مفاجئ، كعادتهم دائماً، لم نكن نعلم سبب ذلك، لكننا تعودنا على طريقتهم عندما يريدون أن يأخذونا لمكان ما، فقط يأمرونا بالنهوض دون أن يخبرونا عن وجهتنا، أو يسمحوا لنا بالسؤال. ولأننا في شهر رمضان، فقد كنا قد اعتدنا النوم بعد صلاة الفجر، فكان إيقاظنا في هذا الوقت مزعجاً، إضافة إلى جهلنا وقلقنا مما ينتظرنا.

إدارة السجن قامت باستدعائنا، جميع معتقلي الكادر الطبي، ركبنا الباص. لم ندرك أننا في القلعة إلا بعد وصولنا، أجلسونا في قاعة الانتظار، لساعتين ربما، وبدأت الأسئلة والأفكار في التدفق، أهو تحقيق جديد أم فصل من فصول التعذيب أم ماذا؟ بعد ساعتين من الانتظار والترقب اكتشفنا أننا هناك لمقابلة الأطباء الشرعيين بلجنة بسيوني.

وللمرة الأولى منذ دخولنا المعتقل نشعر بأننا محترمون وبأن إنساننا ذا قيمة، لم يدم الأمر أكثر من الفترة الزمنية التي اجتمعنا فيها مع اللجنة الطبية بلجنة بسيوني.

في غرفة تشبه غرف الاجتماعات، كان بانتظارنا شخصان، قاموا بالتعريف عن نفسيهما: برادلي والسير نايجل، وكان معهما استشاريين بالطب الشرعي تابعين للجنة ذاتها، وبطلب منهما قمنا بالتعريف عن أنفسنا، بعدها قاموا بتوزيع مجموعة من الأوراق المطبوعة وطلبوا منا الاطلاع عليها للتعرف على الغرض من مهمتهم،.أتذكر بالتحديد أنني وبعد أن قمت بقراءة الدور المنوط بهم في الأوراق التي وزعت علينا وجهت سؤالا مباشرا للسيد نايجل: هل بإمكاننا استخدام نتائج الكشف الطبي الخاص بلجنة بسيوني في المحكمة لإثبات التعذيب والإساءات التي وقعت علينا؟ بدا واضحا أن السيد نايجل كان متردداً في بداية الأمر، واستمر في ذلك، لكن في نهاية الأمر أقر بأن استخدام تلك الأدلة يعتمد على قرار من السيد بسيوني شخصيا.

بعد الانتهاء من الاجتماع وتعريفنا بأهداف اللجنة تم توزيعنا على الأطباء المتواجدين، لكل طبيب منا طبيب معين من قبل اللجنة، لا نعرف حقيقة هل هناك هدف من تخصيص طبيب محدد لكل طبيب أم أنه من أجل التنسيق لا أكثر.

الحقيقة لا تحتاج لجنة تتقصّاها..

إلين كيلر، هذا الاسم سيرتبط بي لسنواتٍ طويلة قادمة، الطبيب الذي قام بفحصي والاستماع لقصتي وما حدث لي، بعد جلوسي معه بدقائق وقبل أن يبدأ فحصي تفاجأت بدخول السيد نايجل طالبا حضور اللقاء، بدأت بسرد قصة اعتقالي وتعذيبي وإهانتي، كانا في غاية الدهشة والاستغراب، لم يستطيعا أن يخفيا ذلك فبدت على وجهيهما علامات التعجب والحيرة لما تعرضت له من تعذيب وتنكيل، وزاد تعاطفهما حد البكاء أحياناً. الطبيب الشرعي أبدى استغرابه الشديد من إقدام مجموعة من الأشخاص بتعذيب استشاري كبير ومشهور بتلك الطرق البشعة، وكيف يمكن أن يحدث هذا في دولة تدعي التحضر والديموقراطية ومحافظتها على حقوق الإنسان.

فحص الطبيب الشرعي أثبت في ذلك اليوم وجود إصابات متفرقة، وإعاقة بالكتف الأيمن والساقين، وقد أثبت ذلك في تقريره المرسل إلى محكمة الاستئناف، كما طلب إجراء فحص بأشعة الرنين المغناطيسي للكتف المصاب وأشعة الأوردة للساقين .

إلى اليوم لم تقم أية جهة رسمية أو مختصة بالأخذ بتوصيات هذه اللجنة !! وبعد الانتهاء من فحصي طلب مني ذكر أسماء معتقلين كانوا قد تعرضوا للتعذيب وتكسرت أسنانهم أو تساقطت جراء ذلك، فأجبته في الحال بأني أعرف أحد المعتقلين واسمه حسين الصفار المتهم في قضية شباب المنامة، قد فقد أسنانه الأمامية وكنت قد رأيته بعيني، إضافة إلى علامات الضرب بآلة حادة خلف ظهره، مما ترك علامات وجروح عميقة مع ندبات واضحة، واثقٌ بأنها ما تزال موجودة إلى هذا اليوم نظرا لشدتها واستحالة اختفائها، لكن كما توقعت لم يتم استدعاؤه للفحص ابدا.

بنهاية لقائي مع الدكتور ألين أخبرني شخصيا أنه وإلى اليوم الذي قابلني فيه لم يستوعب هدف تشكيل لجنة بسيوني خاصة أن جميع المعتقلين قد تعرضوا للتعذيب وتم انتزاع اعترافاتهم تحت وطأة التعذيب، أي أن الحقيقة واضحة كوضوح الشمس لا تحتاج لجنة لتقصيها !!

بعدها تبادلنا التحايا والشكر وأعطاني بطاقة التواصل معه لكنه قال لي لن أعدك بالرد على أية رسائل منك ومن أقاربك، فقلت له أتفهم ذلك، لكنني وعدته بأننا سوف نلتقي معاً مرة أخرى في المستقبل لكن ليس في البحرين، بل في نيويورك.

حين فُتح كل شيء إلا بوابة المعتقل..

"مع قرب الإفراج عنا، في شهر رمضان تحديداً، أصبحت كل الأمور مباحة تقريباً، سمحوا لنا بإدخال الكثير من الملابس، ودهن العود، نتعطر ونرتدي ملابسنا التي كنا نرتديها قبل ان نُعتقل، شعرنا أنه لم يعد لدينا ما ينقصنا في هذا المكان، سوى زوجاتنا والآيفون".

شهر العبادة، تم إحياؤه بالعبادة التي فرغ كل شيء إليها. لم ينس المعتقلون يوماً عاداتهم الأصيلة، فكانوا قبل ساعة من الإفطار، يقدمون لسجانيهم طبقاً من التمر والمأكولات، وكانوا حين خروجهم من الزنزانة يوزعون الحلويات والكاكاو والمأكولات على السجانين، وكان بعض الشرطة يطلبون قناني ماء الورد، وقد قام أحد المعتقلين بإدخال أحجام صغيرة منها "ليس أجمل من أن تلمس الإنسان الذي في داخل السجان" يقول باسم.

عزاء أخذني إلى المنامة..

قبل أن تحل ذكرى وفاة الإمام علي (ع)، لم يقبل المعتقلون أن تمر هذه الذكرى دون ما اعتادوا عليه من مراسم أحيائها "لم نتوقع وسط تلك الظروف أن نحيي هذه الليالي بمحاكاة لطريقة إحيائها خارج السجن، اتصل السيد علوي أبو غايب بالملازم وطلب منه السماح لنا بإحياء هذه

الليالي وإقامة مراسيم العزاء في الساحة الخارجية للعنبر، رفض الملازم في البداية، لكن أبو غايب بطريقته المميزة أقنعه أن إحياء هذه الشعائر من صلب عقيدتنا، ووعده أن يلتزم الجميع بقوانين السجن، وعدم إرباك سير العمل في العنبر، وكان ما أراد. سُمح لنا بإقامة الشعائر وحلقات العزاء في الباحة وكذلك عنبر رقم 5، فأصبح الأمر وكأننا في حلقات لمآتم مختلفة. أخذني ذلك المشهد لمواكب عزاء المنامة. وكان الدكتور حسن التوبلاني بصوته المميز الشجي يقرأ المقتل وأبيات النعي والتعزية، وفي الزنزانة المجاورة كان إبراهيم الدمستاني يؤدي القراءة الحسينية، وسيد علوي أبو غايب يؤدي الزيارة، وكان معنا معتقل من قرية الدير لن أنساه ابداً، ذو صوت شجي وحزين، شاركنا بمراسم العزاء واللطم في تلك الليلة، اسمه موسى مدن، فرحت لخبر تبرئته حين وصلني، خاصة بعدما عرفت منه عن اعتقاله وتعذيبه، ورغم أنه مازال يقضي حتى الآن عقوبة في قضية احتلال المرفأ المالي، إلا أن تبرئته من تهمة الشروع في القتل كان أمراً مفرحاً".

"كانت ليالي القدر مميزة، أحيينا معظمها. وكانت ليلة الثالث والعشرين ألقاً خاصاً. الكثير من المعتقلين كانوا يأتون للمشاركة في الاحياء من بينهم لاعب عراقي اسمه ذو الفقار". هكذا مرت تلك الليالي بامتلائها الخاص وشحنها الروحي.

بعد 24 ساعة لم تأت..

وسط قدسية الأجواء، ذابت الأرواح الحزينة، الأرواح المشتاقة لنسمة هواء لا تقيدها مفاتيح السجان، ولأن الأمر كان مشوشاً جداً، بدت كل الأشياء الأخرى أيضاً مشوشة، بين كل ذلك، عاد أحد الشقيقين المعتقلين لزنزانته واجماً، بعد استدعائه لأمرٍ كان يجهله رفاق الزنزانة بمن فيهم شقيقه باسم، كان حزيناً متعباً أكثر من عادته، وبدأت الأسئلة تنهال عليه، الكل في حيرة من هذا الحزن، بعد إصرار طويل، قال: "أخذوني للنيابة العسكرية، قابلت النائب العسكري، أخبرني أنهم سيفرجون عني خلال 24 ساعة " أمسك به شقيقه، قال له: لا تبك، هذا خبرٌ جيد. لاحقاً أخبرهم أنهم وقعوه على أوراق يجهلها وتعهّد، وأخبروه أنهم سيطلقون سراحه خلال 24 ساعة، وبعد أيام سيفرجون عن أخيه.

"كانت المشاعر مختلطة، لم أعرف أيهما غلب الآخر، فرحي له، أم حزني على نفسي. شاءت الأقدار أن تكون لنا زيارة في تلك الليلة، بدت علامات الاضطراب جليةً على وجهي، كانت ابنتي زينب تبكي، شعرت أنها ربما كانت تتساءل كيف سأبقى وأخي يذهب، وجاء اليوم التالي، ولم يحدث شيء، وانقضت الساعات الأربع والعشرون دون أن يأتيه خبر، عند العصر طلب أخي الملازم، أخبره أنهم وعدوه بإطلاق سراحه، أجاب الملازم: لم يأتنا أمرٌ كهذا".

من وقتٍ لآخر، كانت الأخبار تصل متقطعة، بعضها حقيقي، وأغلبها إشاعات، لكن رغم ذلك، الأمل هو كل ما يتبقى حين تكون سجين الزنازين، مع إطلاق سراح رولى، عاد الأمل ينتعش من جديد في الأرواح المتعبة، وكانت جلسة قبل العيد، حملت القلوب الآمال بالإفراج، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث".

كان العيد الأول الذي يمرّ علينا دون أهلنا، دون جمعة الأهل والأحبة، ودون غداء العيد، وضحكات الأطفال، وقبلات المقربين. "تبادلنا تهاني العيد رغم عدم إحساسنا به، ذهبنا نتابع البرامج عبر التلفاز، هكذا قضينا يوم العيد، ورغم أنه لم يكن سيئاً جداً، إلا أنه كان موحشاً، شعرت بالحسرة، فالعدل أن أكون هناك مع أهلي وأحبتي، في منزلي، ارتاح على (الصوفا) المحببة لي، وأتابع التلفاز، وأمامي الثلاجة، آكل وأشرب منها كيفما أحببت".

الخيط الأخير: الإضراب

مع انتهاء شهر رمضان، استنزف آخر خيط في صبر الكادر الطبي. قرروا الإضراب عن الطعام. بهذا بدأت مرحلة أخرى ستلقي بظلالها بلا شك على الأيام التي ستعقبها. مع استمرار الإضراب كان البعض يفقد طاقته، فينقل للعيادة، يعطى المحلول المغذي، ويعود لاستكمال الإضراب، وأمام إصرار الكادر المضرب عن الطعام، لم تجد إدارة السجن بداً من تصعيد الأمر بالمثل: أُغلقت الزنازين، مُنعت الاتصالات، في محاولة منهم لإجبارهم على فك الإضراب.

"طلبنا مقابلة أحد أفراد لجنة بسيوني. كنا جادين في إضرابنا، أردنا أن ننهي هذا الاعتداء السافر ضدنا باسم القانون. في اليوم التالي جاء أحد أعضاء اللجنة حسب طلبنا، جلس معنا، أخذ طلباتنا، أخبرناه أننا مستمرون في إضرابنا لحين إطلاق سراحنا، وأنه على السلطات أن تمكننا من مقابلة محامينا، وفتح الزنازين لكون ذلك حق مكتسب".

"طلبنا أيضاً مقابلة المفتش العام، حين حضر، أدخلوا جميع المعتقلين للزنزانات، وأخذونا لغرفة التلفزيون، أخبرناه أن وضعنا غير قانوني، واستمرارنا في الحبس غير منصف، وأننا نطالب بلقاء النائب العسكري الدكتور فليفل، في هذه الأثناء تناهى إلى سمعنا أصوات تكسير وصراخ، وبدا على وجه المفتش العام الارتباك، جاء عدد كبير من الضباط وأحاطوا باللواء الغيث وأخرجوه سريعاً. عرفنا لاحقاً أن أحد السجناء المضربين عن الطعام سقط، فذهب أحد الحراس لمساعدته، لكنه رفض، فقام الحراس بضربه، فأثار ذلك بقية المعتقلين فقاموا بضرب الأبواب

وتحطيم الكؤوس، معظم المعتقلين كانوا متهمين بالقتل أو الشروع فيه أو قضايا مماثلة، في تلك الليلة لم يتجرأ أحد من الحراس على الاقتراب، كان الوضع مخيفاً، فقمنا نحن بمهمة تهدأتهم، وإعادة الوضع لحالة الهدوء".

مفاجآت بالجملة..

إنه يوم السابع من سبتمبر. أخذنا للمحكمة العسكرية. الأغلبية منا لديهم اعتقاد أن جلسة اليوم ستكون لسماع شهود النفي ومن بعدها المرافعات وصولا إلى النطق بالحكم كما هو المتعارف عليه قانوناً في سير المحاكمات.

كان اليوم الأطول بالنسبة إلينا، امتدت الجلسات حتى الخامسة مساء، كان يوما طويلاً نعرف بدايته لكننا نجهل نهايته، لكنه بكل الأحوال كان يوماً هاماً، هو يوم الاستماع لشهود النفي، إذ استطعنا قبل جلسة اليوم تنسيق وتنظيم شهود النفي من خلال تواصلنا مع المحامين والأهل، فتم توزيعهم بحسب التهم الموجهة إلينا.

عندما بدأت الجلسة بدأت المفاجآت معها، الأولى هي حضور عدد كبير من الاستشاريين ذوي الخبرة الطويلة كشهود نفي وهذا رفع من معنوياتنا كثيرا. تحمل هؤلاء عناء الحضور والإدلاء بشهادتهم دون خوف. وهم يعلمون أن شهادتهم تلك قد تؤثر على مستقبلهم المهني. وفيما رفضت الدكتورة بدرية توراني رئيسة قسم العظام أن تشهد لصالحي تفاجأت بالدكتور عبدالعزيز حمزة من بين شهود النفي، وبهذا سقط الاصطفاف الطائفي الذي يدعون، فالدكتورة بدرية (شيعية) خذلتني، والدكتور عبدالعزيز (سني) أنصفني.

توالت المفاجآت علينا ولم تتوقف في هذا اليوم المميز والغريب، ففي وقت الاستراحة بين الجلسات وعند انتظارنا خارج قاعة المحكمة جاء عدد من الشرطة العسكرية وقاموا بتقديم الشكولاته لنا في حادثة غريبة جداً لم نستوعبها ولم ندرك سببها فتقديم الحلوى يعني الفرح والبسمة لكننا في المحكمة لنحاكم، فكيف لنا أن نفرح أو نبتسم!!

وفي موقف آخر كان مفاجئاً لي أنا شخصيا هو تقدم الضابط مازن بوحمود لي سائلا: هل تعرفني يا دكتور؟ فقلت: ملامح وجهك ليست بالغريبة عني، فرد: أنا مازن بوحمود، مريضك ولا أتعالج إلا لديك!! بعدها قام بتقبيلي، وعرفت لاحقا بأنه عقيد يشغل منصب رئيس النيابة العسكرية.

ومما أثار استغرابي في ذلك اليوم تخصيص وقت أكثر من المعتاد للجلوس مع الأهل (ما يقارب 20 دقيقة وهو وقت طويل جدا قياسا باللقاءات السابقة التي لا تتعدى 10 دقائق). تحدثت خلال اللقاء مع زوجتي والمحامية جليلة السيد التي توقعت الأحكام ستكون للبعض من 3-1 سنوات ولبعضنا الآخر من 5-3 سنوات وهناك مجموعة منا ستكون أحكامهم من 10-7 سنوات، وقالت: من الممكن أيضاً أن تكون هناك أحكام بالبراءة أيضا فلا شيء مستبعد أبدا.

المفاجأة التي لم نتوقعها..

بعد انتهائي من الحديث مع المحامية تساءلت مرة أخرى لماذا لم يتم أخذنا إلى القاعة بسرعة كما هي العادة!! في الواقع كنت قلقا جدا فالأمور في ذلك اليوم بدت غريبة، لكن المحامية أجابتني أننا ننتظر قراءة قرارات المحكمة !! فآثرت الصمت احتراماً للمفاجآت التي كانت سمة اليوم.

فجأة خرج علينا المقرر ليقرأ بعض القرارات ذكر أموراً عدة، منها إجراء الفحص الطبي وأشياء أخرى لم التفت لها أو لم أستوعبها، بالنسبة لي كان الأمر سيان، ثم قال: أما بخصوص طلب الإفراج، سيتم الإفراج عن جميع المعتقلين!!

في الحقيقة لم أسمع الجملة الأخيرة للمقرر، لكني فجأة وجدت القاعة تضج بالصراخ والبكاء فأصابني الذهول. لم أستوعب ما قاله المقرر ولم أكن متأكداً مما سمعت، فصرت أصرخ بلا شعور: أريد أن أسمع، ماذا قال؟ ماذا قال؟ لم يكن أحد يسمعني فالصراخ والبكاء هما سيدا الموقف، فهمت أنه الإفراج.

أيقنت بأن ما يحدث حقيقة لا خيال، خاصة بعدما تلاقفتني زوجتي وابنتي زينب بالأحضان، كان بكاؤهما ودموعهما ترجمة واضحة بأنه الإفراج لا سواه، وبالرغم من أنني في البداية لم أكن أعي ما تعني كلمة الإفراج، وما يترتب عليها، لكن الفرحة التي شاهدتها على الوجوه ترجمت لي: إفراج تعني الحرية ولا شيء غيرها. أظنني استوعبت أخيراً، خررت ساجداً لله. ردّدت الحمد لله والشكر لله، رفعت رأسي، ووقفت في المحكمة، جلت بناظري في القاعة، تفحصت الوجوه، أبصرت الدموع تنساب بغزارة، كانت دموع الفرح بلا شك، شعرت حينها بفرحة غامرة تلفني من رأسي إلى أخمص قدمي، وفي أثناء ذلك جاءني أخي غسان مهرولا، قبلني، قال: قلت لك، قلت لك، قلت لك بأنهم سيفرجون عنا، تابعت عيني جولتها بالقاعة، على البعد كانت محاميتي جليلة السيد تبكي مع زملائها، كانت دمعاتهم ترجمةً حية لمعنى الانتظار، وشبه الانتصار، للفرح والقدرة، ولاستحضار شيء منذ أشهر دون أن يأتي. لم يقتصر الفرح على الأهالي والمحامين بل امتدت عدوى الفرح

للحراس والشرطة المتواجدين معنا بالقاعة.

الفرح يبقى ناقصاً..

أخيرا، ها أنا من جديد طير حر، أحمل الإنسان الذي حافظت عليه رغم وعورة رحلة الأشهر الستة ورغم وجعها، كان كل شيء في قاعة المحكمة قد توقف حينها، اختفت الأصوات، وبقي قلبي وحده يخفق بقوة.

عند خروجي من القاعة حضر الحزن، تذكرت رفاق سجني، من تقاسمت معهم مر الحياة الذي لم أختبره يوماً، أحزنني رحيلي وبقاؤهم، فجميعهم مظلومون مثلي، قلت لنفسي: ماذا عساي أن أقول؟ كيف سأتركهم؟ هم من تقاسموا معي مرارة السجن والعذاب كيف أفارقهم وأتركهم !! شعور صعب لازمني ولا زال، لأنهم لا زالوا معتقلين.

في الرحلة الأخيرة بالباص، وفي طريق العودة إلى سجن الحوض الجاف، كان السيد مرهون ينشد نشيداً خاصاً بالإفراج، كان قد ألفه مع زملائه بالعنبر منذ أشهر، لقد كان اليقين يسكنه، أنهم من المفرجين، وفي الطريق الأخير، وقف الدكتور باسم ضيف، معتذراً لزملائه، طالباً مغفرتهم، عن كل الزلات التي حدثت، عن الالام التي ربما تسبب بها دون أن يقصد، عن كل أخطاء وأهواء نفسه البشرية، طالباً منهم المغفرة، والحب.

لماذا تركت أخاك وحيداً؟!

بعد أشهر من الإفراج واستمرار المحاكمات، يفترق الشقيقان. للمرة الأولى لا يجمعهما المصير ذاته، يحكم على باسم بالسجن ستة أشهر كان قد قضاها كاملة، ويزج شقيقه غسان في السجن لعام كامل. في إنكسار حزين يتذكر باسم حلم أخيه غسان " الآن صرت كلما أتذكر هذه الليلة، يهتز فيّ كل شيء، كان ذلك بعد أن تم نقلنا من التحقيقات إلى الحوض الجاف، وبعد ما عايشناه من أقسى درجات الرعب وبعد قتل الشهيدين صقر والعشيري. كانت للتو قد فكت عن أيدينا الأصفاد وعن أعيننا العصابات، كنت عائداً من العيادة الطبية، أثناء مروري بزنزانة أخي غسان، سمح لي أحد الشرطة الآسيويين أن ألقي التحية على أخي غسان. لا أعرف لماذا مع أني منعت من الحديث أو التواصل مع أخي طوال فترة الاعتقال في التحقيقات وكذلك الأشهر الأربعة فترة الحوض الجاف. سلمت على غسان وكان يبكي كثيراً. أخذ يدي وقبّلها فقمت مباشرة بتقبيل يديه أيضاً. وأثناء بكائه قال لي: حلمت البارحة بابنتك إسراء، كانت تبكي وتقول لي: لماذا خرجت وتركت أبي في السجن وحيداً؟

يكمل باسم: لم أستوعب ذلك الحلم حينها، لكن ها هي الأيام تخبرني بمعناه، لقد كان أنا من خرج، وأنا الذي تركت أخي في السجن وحيداً، هل أكثر وجعاً من هذا؟!!

هامش:

د.باسم ضيف (مواليد 1964) درس الطب البشري بجامعة المللك سعود بالمملكة العربية السعودية. انضم للعمل بمجمع السلمانية الطبي في العام 1987م. حاز على زمالة الكلية الملكية للجراحين في جراحة العظام عام1996م. أول استشاري متخصص في جراحة الكتف واليد بمملكة البحرين. نشر العديد من البحوث الطبية في الدوريات والمؤتمرات العالمية. أستاذ مساعد في كلية الطب بجامعة الخليج العربي (1998- 2011). رئيس سابق لقسم العظام وجمعية جراحة العظام البحرينية والاتحاد البحريني للطب الرياضي.اشتهر بمهارته في جراحة وعلاج إصابات الملاعب بدول مجلس التعاون الخليجي.

نبيل تمامٍ والخروج على تجربة العتمة:
أيها الصندوق.. لستَ آخر معاركي

«هي ثلاثة أيام فقط التي عايشتها داخل زنازين التعذيب، أطلق سراحي بعدها بسبب المرض، لكنها كانت كافية لتفعل بي ما لم تفعله الغدد اللمفاوية الخبيثة، هزمت الأولى، والثانية لا تزال تتربّص بي، لكني سأهزمها يوماً حتماً» نبيل تمّام

الصندوق ..

داخل كل منا صندوقه الخاص، في هذا الصندوق يخبئ أحدنا آلامه وإحباطاته وتجاربه المرّة، يحاول أن يعزلها عن منطقة تفكيره كي لا تسحبه إليها، لكنه ربما دون أن يدري، يجد نفسه أسيرها. إبقاء الصندوق مغلقاً ليس حلاً، الحل هو فتحه على مساحة الكلام والمواجهة، لن نتجاوز الصندوق ما لم نتحرّر من قبضته المحكمة في داخلنا.

بعد خروج نبيل تمام من المعتقل في 13 ابريل 2011، آثر أن يبقى صامتاً قبل أن يطلب لقائي بعد قرابة الشهر، ظننت أنه قرر فتح تجربة سجنه على الكلام بعد الإلحاح المتكرر مني، لكنه لم يطلبني لذلك، «ما زال الوقت مبكراً على الكلام عن تجربتي القصيرة داخل السجن» قال.

كان الموضوع الذي طلبني له مختلف: « التعذيب النفسي والجسدي الذي يتعرّض له المعتقلون يترك أثراً سلبياً خطيراً داخل نفوسهم، التعذيب المفرط والمذل والمهين والحاط من الكرامة الإنسانية لا يمكن أن يُمحى من الداخل بسهولة، هذا الأثر إذا بقي دون علاج سيتمكن من هزيمة صاحبه من الداخل، وربما سيجعله ينهار أو يتعرض لرد فعل سيء، ليس الجميع قادراً على تجاوز تجربته بنفسه، هناك من يحتاج إلى إعادة تأهيل لمعالجة الأثر السيء في داخله، لهذا أريد أن أُسس جمعية لإعادة تأهيل ضحايا التعذيب، أريد أن أسس لها الآن مع مجموعة من الأطباء والمختصين النفسيين والحقوقيين والإعلاميين والناشطين المتطوعين، لقد تحدثت إلى عدد من الزملاء والزميلات وتحمسوا للفكرة، سنؤسس لها الآن وسنعلن عنها في الوقت المناسب، لهذا طلبتك».

رأيتها فكرة رائعة ومهمة جداً، لكني لم أعلم حينها أن نبيلاً كان يتحدث عن نفسه أيضاً، بل إنه كان يرى إلى الآخرين من خلال أثر تجربته نفسه، كان يشعر أنه أحد هؤلاء الذين هم بحاجة لإعادة التأهيل، أنه أحد المتضررين نفسياً بعد هذه التجربة المذلة والمهينة والحاطّة بالكرامة، لهذا أراد أن يؤسس مشروعاً يضم جميع هؤلاء ويعالجهم، بما فيهم نفسه.

التأهيل النفسي..

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يطرح فيها نبيل فكرة الحاجة إلى «إعادة تأهيل»، ففي عام 2008

انضم إلى الأمانة العامة للجمعية البحرينية لحقوق الإنسان وترأس لجنة مركز (الكرامة) لتأهيل ضحايا العنف والتعذيب، وكان هدف عملها هو هذا تماماً.

في 2011، بدأ نبيل العمل على تنفيذ فكرته مع مجموعة الطبيبات اللآتي تم الإفراج عنهن، جلسات أسبوعية استمرت على مدى 10 أسابيع، «كنت الرجل الوحيد بينهن، المفرج عنه الوحيد من الكادر الطبي من الرجال، قلت لهن: أنتن بحاجة إلى هذه الجلسات من أجل أنفسكن أولاً، ومن أجل أزواجكن الذين يقضون خلف القضبان وسيخرجون وهم في أمس الحاجة إلى قوتكن». يعتقد نبيل أن الجلسات لم تنجح كثيراً، لم تلقَ تجاوباً كافياً من الطبيبات، لا تزال ثقافة المجموعات جديدة على مجتمعنا، بقيت الفكرة قيد التطوير. بعضهم أخذ الفكرة وأنشأ مؤسسة تحمل الاختصاص نفسه، لم يعبأ نبيل، كان الهدف بالنسبة إليه هو الأهم.

في 2012 يؤسس نبيل لجنة (رحاب) للدعم النفسي ضمن لجان الجمعية البحرينية لحقوق الإنسان. لم يطلقها كمؤسسة مستقلة بل أبقاها تحت مظلة جمعية حقوق الإنسان. تقدّم للعمل معه 12 من الشباب المتطوعين المتخصصين والعاملين في حقل الخدمة الاجتماعية وعلم النفس. هذه اللجنة تواصل عملها حتى الآن بهدوء شديد وبعيداً عن الأضواء والضوضاء، تنظم برامج زيارات كل يوم سبت من الساعة العاشرة وحتى الثانية عشرة صباحاً، تزور عوائل المعتقلين في المناطق والقرى المختلفة، تجلس مع المتضررين نفسياً بشكل فردي، وتعالج الحالات التي يتضح أنها بحاجة لإعادة التأهيل النفسي.

خلخلة الصندوق..

تجربة نبيل الخاصة بقيت محصورة داخل صندوقه الخاص، ربما لأنها تزامنت مع تجارب مرهقة أخرى، تراكم التجارب المؤلمة في وقت واحد يجعل الأمر أكثر تعقيداً. قلت له ذات مرة «اكتبها لكي تتحرر من عنف بقاياها فيك، فالكتابة فتح الداخل، وفتح الداخل تحريره». وعدني، لكن العنف كان أقوى، بقيت الكتابة مؤجلة.

في شهر ديسمبر الماضي، قرر نبيل كتابة تجربته، وفعل، لكنه لم يستطع الدخول في تفاصيل تجربته، بقي واقفاً عند أطرافها فقط، كان التشويش كبيراً، والصندوق عصي على الفتح، لهذا عندما انتهى من كتابة التجربة لم يشعر بإنجاز الفتح، بل عاش رد فعل الصندوق أكثر، ولهذا كان لا بد من الجلوس مع نبيل، وخلخلة إحكام الصندوق بالقدر الذي أمكن.

يمكننا أن نقول أنه منذ 2009 حتى الآن، ونبيل تمام في رحلة دؤوبة لتتويج الانتصارات على كل ما هو سرطاني، ف«كل ما يباغتك أو يقتحمك أو ينتشر فيك، لينشئ كيانه على حساب كيانك الخاص، هو سرطان يجب استئصاله بلا ضعف وبلا خوف وبلا تردد». ستتنوع أشكال السرطانات في حياة نبيل، لكن تبقى كياناتها واحدة، وقبضتها واحدة، وانتشارها واحداً، وسيبقى تحدي استئصالها واحداً.

في 2009 كان نبيل تمام في غزة يواجه غزو السرطان الصهيوني، وعاد بعد أن انتصرت غزة، وفي 2010 كان في مواجهة جديدة مع سرطان الغدد الليمفاوية، وعاد بعد أن هزمها معنوياً، وفي 2011 دخل تجربة غزو سرطاني آخر لا يزال يعايشها، ولا يزال مصراً أن ينتصر عليها مهما كلّفه الأمر من معاناة وتعب، لكن ليس استسلاماً.

قبل الاعتقال..

يتذكر نبيل: «قبل الضربة الأولى للدوار في 17 فبراير، كنت مواظباً على الحضور في الخيمة الطبية بشكل يومي، وقد نقلت لها عدداً من الأجهزة والمعدات والأدوية من عيادتي الخاصة، خسرتها جميعها في ذلك اليوم. بعد العودة الثانية للدوار لم أواظب على الحضور بشكل يومي، وذلك بسبب موعد جرعتي الكيماوية الرابعة في شهر مارس، ولهذا اضطررت إلى ملازمة البيت لأيام».

«في يوم 16 مارس كنت داخل المستشفى، وعايشت محاصرة السلمانية بالدبابات والأسلحة وبقيت محجوزاً مع الآخرين لمدة 4 أيام، كنت حينها رئيس قسم الأذن والأنف والحنجرة، أنام في غرفة رئيس الدائرة في جناح 66 وأستحم في حمام المرضى في جناح 65، ولم يتسنَ لي الخروج إلا في اليوم الخامس وبعد أن تأكدت من خروج جميع الطاقم الطبي الذي كنت مسؤولا عنه. شهدت اعتقال الدكتور علي العكري بشكل وحشي وفج من غرفة العمليات. وصلت البيت وبادرت بالاتصال بصحيفة الوسط البحرينية حيث أبديت احتجاجي على الهجوم العسكري على المستشفى وقدمت استقالتي كرئيس قسم في وزارة الصحة احتجاجاً، وخاطبت هاتفيا الإذاعة الأسترالية وشرحت لهم ما حدث خلال احتجازنا في المستشفى، وتهيأت للاعتقال».

ثم اُختطفت..

يكمل نبيل: «صباح الاثنين 11 ابريل 2011 كنت في جامعة الخليج العربي أُعطي درساً نظرياً لطلبة السنة السادسة في كلية الطب، أعمل هناك في منصب أستاذ مساعد بدوام جزئي. وردني اتصال هاتفي من مكتب الرئيس التنفيذي لمجمع السلمانية الطبي لحضور اجتماع إداري الساعة

بعد خروجي من المعتقل، لم أكن أستطع حتى المرور قرب مبنى التحقيقات سيىء الصيت.

12 ظهرا. تواجدت على الوقت وكان حاضرا معي 4 من الاستشاريين وهم د.عارف رجب ود.شهيد فضل ود.نبيل حميد ود.زهرة السماك. حضر الرئيس التنفيذي ونفى دعوته للاجتماع، توجسنا الاعتقال، لم يمهلنا الوقت طويلاً، دخل علينا قرابة 12-10 رجلا مسلحاً بلباس مدني (فعرفنا أنهم من قسم المخابرات) أخذوا هواتفنا واصطحبونا لمبنى التحقيقات العامة وبدون أي إخطار أو إبراز إفادة بالقبض علينا، لهذا اعتبرته اختطافا في وضح النهار ومن مبنى عام وصرح طبي عام وأمام بصر المدير التنفيذي للمستشفى وآخرين من الإدارة والموظفين».

فائزون في جائزة التعذيب..

«في مبنى التحقيقات بالعدلية، التعذيب وجبات مستمرة طوال اليوم، التخمة فيها هي الأصل، كنت أشعر بجمجمتي ترتج بين أيديهم ومخي يتبعثر، تباغتني ضربة موجعة على كليتي اليمنى، أتلوى ألماً فيزيدونني ضرباً، كان مطلوباً مني الاعتراف بأن الطواقم الطبية هم من أدخلوا الأسلحة النارية إلى غرف العمليات بالمستشفى وأننا نحن من وسّع جرح الشهيد عبد الرضا بوحميد وقتله، وكان جوابي: أنتم من فعل هذا، ودفعت ثمن جوابي غاليا من التعذيب والضرب والشتم والركل في كل أنحاء جسدي».

«لا يمكنك أن تدرك معنى التلذّذ بممارسة التعذيب ما لم تر ذلك بنفسك في معتقلات التعذيب. لقد كانوا يتلذذون بإهانتنا وتعذيبنا، وكان كل واحدٍ منهم يحاول أن يُري الآخرين أنه الأكثر مهارة في الإذلال، كان التنافس قوياً، والجميع متفوقون في مهمّة الاذلال، الجميع فائزٌ في جائزة التعذيب الأكثر وحشية. ولأننا أطباء كان الامعان في الحط من كرامتنا أكثر، سيقف معذبك الذي تقل شهادته عن الثانوية العامة، وسيسفّهك بعبارات لم تسمعها أو تتلفظ بها في حياتك لفرط سوقيتها، وسيأمرك أن تقلد أصوات الحيوانات أو مشيتهم، وأن تنشد السلام الملكي، وسيمعن في ضربك وأنت تقوم بكل هذا، وأنت لا تصدّق أن هذا يحدث لك أنت، أنت الذي قضيت عمرك محل فخر وطنك وأهلك وناسك ونفسك! أنت الذي لم تعرف يوماً سوى منح الناس أن يعيشوا حياتهم بصحة أفضل، وبأمان نفسي أكثر! أنت اليوم لست نفسك!».

قتلناه ورمينا جثته..

كان نبيل ينتظر جرعته الكيماوية في شهر مايو، أي بعد قرابة أسبوعين من تاريخ اعتقاله. يقول لمعذبيه: «لدي هبوط حاد في عدد كرات الدم البيضاء، المناعة منخفضة لدي إلى درجة 2، أي التهاب أتعرض له قد أموت بسببه، وإذا مت ستتحملون أنتم المسؤولية». يأتي الجواب: «يصيبك التهاب؟! هذا هو المطلوب، إنشاالله تموت يا خاين يا صفوي يا بن المتعة يا.....».

يحقّق معه مبارك بن حويل، فيخبره نبيل: «من الضروري أن يأخذوني إلى مركز الأورام لأخذ جرعتي الكيماوية»، فيرد عليه الأخير: «ما في جرعة، إحنا بنخليك تموت هني».

عينه المصمّدة لا تمكنه من رؤية وجه معذبه وهو يعترف بصيغة تهديد: «شفت الجثة المرمية في الزبالة اللي في سار؟ هذا إحنا اللي قتلناه ورميناه هناك، وبنسوي فيكم نفس الشيء». كان المعذّب يشير إلى جثة الشهيد سيد حميد محفوظ الذي افتقده أهله ليومين قبل أن يُعثر عليه ملقى عند سيارته قريباً من محطة سار، وذلك في 6 أبريل، أي قبل اعتقال نبيل بأيام، سبقها أيضاً العثور على جثة الشهيد هاني عبد العزيز، ملقاة تحت إحدى البنايات في منطقة البلاد القديم في 24 مارس، ترك ينزف حد الموت متأثراً بطلقات الرصاص الانشطاري. في ذلك الوقت، كانت شهوة القتل عند النظام، أوشكت أن تصير عُرفاً، لو لا أن أوقفها الاستنكار العالمي والضغط الدولي.

صورة طفلي إرم..

يصاب نبيل بالإرهاق الشديد وينقل إلى عيادة القلعة، تؤخذ عينات من الدم، تخطيط القلب يظهر أن ضغط الدم ليس منتظماً «تم وضع سائل الجلوكوز في أوردتي وجلست لمدة 3 ساعات تقريبا،

كانت تلك أفضل ساعات قضيتها في التوقيف، تمكنت فيها من الجلوس والذهاب لدورة المياه. أعادوني بعدها للتوقيف، حيث الجميع لا يزال واقفاً مصمّد العينين، وعدت للوقوف في ذلك المكان الذي تفوح منه رائحة الكافور المزعج، ولا يسمح لنا بالكلام إلا وتنهال علينا اللكمات».

في عتمة المعتقل، وجسده المنهك من شدّة التعذيب، يرفع نبيل رأسه إلى الأعلى وعيناه مصمّدتان، لا شيء يلوح في الأفق غير سواد أرعن وانتقام أهوج، كل شيء يسير نحو مجهول موحش وكئيب، هل ستكون النهاية هنا؟ تكاد قوى نبيل تنسحب نحو الانهيار، لكنه يتدارك نفسه بسرعة، ينفض رأسه ليخرج الأفكار السوداء، يوغل في النظر داخل عصابته الحالكة، ها هو يرى وجهاً صغيراً يبتسم له، يتأمل جيداً، إنه وجه ابنه الأصغر إرم (9سنوات). يتذكر نبيل كم كلّف قدوم ابنه إرم إلى الحياة، لم يكن ذلك سهلاً أبداً «كان كان لدينا هشام فقط، مررنا بعدة تجارب حمل لم يشأ لها أن تكتمل، الأولاد يجهضون والبنات يموتون، دفنتُ 4 بنات. كلفنا قدوم إرم 10000 دولار. 10 سنوات هو فارق العمر بين هشام وإرم. عملنا تلقيحاً صناعياً وكان نتيجة الحمل توأم بنت وولد. لكن بعد 26 أسبوعاً من الحمل أخبرنا الطبيب أن البنت ماتت. الطبيبة فريال الدعيسي (هاجرت إلى بريطانيا بسبب الوضع الأمني) أنقذت إرم بعملية جراحية من الموت. مدين أنا لها بذلك، أطلقنا عليه اسم (إرم) رغم أنه اسم لفتاة. كان صغيراً جداً ووضع في الحاضنة لمدة شهر ونصف. كنت أجلس معه يومياً لساعات قبل فترة دوامي وبعدها. في تلك الليلة داخل المعتقل صورة إرم وابتسمت، قلت لنفسي: لقد وقفت مع إرم في محنته، وسيقف هو معي في محنتي وسيقويني، لم يخذلني إرم، كان لصورته دور كبير في صمودي ومنعي من الانهيار»

هكذا خرجت من المعتقل..

في ذلك الوقت كان وضع النظام بدأ يصير مُحرِجاً أمام العالم، ضحيتان قضتا تحت التعذيب داخل المعتقلات هما زكريا العشيري (9 ابريل)، وعبد الكريم فخراوي (11 ابريل). لم يعد الأمر يحتمل فضيحة ثالثة أمام العالم. ولأن نبيلاً في حالة من ضعف المناعة قد تؤدي به إلى الموت في أية لحظة، كان لا بد من الإفراج عنه تجنباً لفضيحة محتملة. هكذا أفرج عن نبيل تمام في 13 إبريل بكفالة مادية قدرها 3000 دينار. «لأول مرة اكتشف أن الابتلاء بمرض خطير كالسرطان، قد يكون سبباً للنجاة من بلاء أشدّ خطورة وضراوة هو الموت تحت التعذيب».

لم يبق نبيل طويلاً في المعتقل إذاً «هي ثلاثة أيام فقط التي عايشتها داخل زنازين التعذيب، لكنها كانت كافية لتفعل بي ما لم تفعله الغدد اللمفاوية الخبيثة، هزمت الأولى، والثانية لا زالت تتربّص بي». نبيل المعروف بشخصيته الهادئة والمتزنة الكثيرة التعمّق، يخرج «مشوش الذهن والتفكير»

هكذا يروي عن نفسه، يضيف «الضرب المبرح والمتواصل على رأسي أثر على ذاكرتي، كما أثر على وضوح الرؤية عندي في النضج في التفكير، ودون أن أعي صرت عدوانياً وشرساً في الأيام الأولى، يكفي أن تعرفوا أنني وزوجتي تطلقنا بعد أسبوع من خروجي من المعتقل، نعم كانت هناك مقدمات سابقة، لكن لم تصل إلى هذا الحد، حالتي بعد السجن كانت هي القشّة».
لماذا خرجت؟

«بعد خروجي مباشرة بدأت أعيش حالات من الانهيار النفسي، لكني في كل مرة أعيد تفكيري كي أخرج منها إلى منطقة إيجابية، كانت واحدة من حالات انهياري هي شعوري بالخيانة، كنت الرجل الوحيد الذي أفرج عنه من الكادر الطبي، الباقي كلهن من النساء. كان شعوراً بالذنب يقتلني، بقيت ليلة كاملة أصارع نفسي لأخرج من هذا التفكير السلبي والمحبط، وعند الفجر لمحت لي بارقة ضوء: هي هكذا، لقد جعلني الله مريضاً لكي أخرج من المعتقل، وجعلني الله أخرج من المعتقل لأعمل من أجل زملائي في الداخل، لا بد من أحد في الخارج ليعمل من أجل الباقين، هذه هي مهمّتي التي أخرجني القدر من أجلها، الخيانة هي أن أنشغل عن هذا الدور، وألا أبذل كل ما أستطيع في هذا الاتجاه. كانت هذه البارقة كافية لتخرجني من حالة انهياري لحالة مختلفة تماماً، لقد عرفت ما يجب علي فعله، ومنذ ذلك اليوم لم أبارح مهمتي قيد شعرة».

جلسات إعادة التأهيل التي بدأها نبيل مع الطبيبات المفرج عنهن (عدد منهن زوجات لأطباء معتقلين)، كانت جزءاً من هذه المسؤولية التي وضعها على عاتقه، وقد أثارت هذه الشرارة إحدى الطبيبات (زوجة طبيب معتقل)، عندما زارته في عيادته الخاصة التي أعاد فتحها في صيف 2011، وقالت له بقلق كبير وانهيار: نبيل، ماذا نفعل لأزواجنا عندما يخرجون؟ شعر بأنه مسؤول أكثر.

الأثر الرجعي..

ورغم الانشغال الذي أغرق نبيل نفسه فيه للعمل من أجل الكادر الطبي، إلا أن ذلك لم يحرره من قبضة الصندوق والأثر الرجعي للتجربة، لا يزال الشريط المثقل بالصور والذكريات يهزه من الداخل، ولا يزال غير قادر على تجاوزه بسهولة، « قبل اعتقالي بأيام، صحوت عند الفجر على صوت حركة في الخارج، ذهبت مباشرة إلى النافذة، شاهدت 5 أجياب شرطة تهاجم بيتاً قريباً منا، بقيت متسمراً في رعب من هول المشهد الذي لم نكن معتادين عليه حينها، لم ألحظ أن 5 مسلحين آخرين كانوا يقفون تحت نافذتي مباشرة. هذا المشهد لا يذهب عن ذاكرتي. ورغم أني تركت البيت وأسكن الآن في شقة في منطقة سار، إلا أني لا أزال أستيقظ معظم الليالي في الوقت نفسه، أطل من النافذة إلى الخارج، وتجتاحني نوبات بكاء» نعم لا تتعجبوا، هكذا يفعل الأثر

الرجعي للتجربة السيئة داخل النفس البشرية.

فتح الصندوق..

لم يكن سهلاً على نبيل البوح بهذا، رغم أنه يعلم تماماً أن فتح الكلام هو جزء من إعادة تأهيل الذات، لكن المعرفة تصطدم بالصندوق الذي يظل يقاوم المواجهة. في حواري الأخير معه قبل كتابة هذه التجربة بقيت بعض الأسئلة مفتوحة، كان يعصر نفسه ليجيب وأرى الكلام في عينيه وهما تحتقنان بالدموع لكنه لايستطيع إخراجه، فأغير السؤال. لكن كما هي عادته، يقرّر نبيل أن يواجه لينتصر، هكذا تعلّم، وهكذا عوّد نفسه: «من هزم السرطان سوف لن يهزمه هذا الصندوق اللعين، إنها مسألة وقت فقط وقد نجحت بالفعل في إحداث بعض الفتحات في صندوقي، ولن أتوقف حتى أهشمه بالكامل في داخلي».

يضيف نبيل: «بعد خروجي من المعتقل، لم أكن أستطيع حتى المرور قرب مبنى التحقيقات سيىء الصيت، كان مجرد المرور يجعلني أستحضر كل الصور المؤلمة وأعيش وضعاً نفسياً سيئاً جداً، بقيت شهوراً قبل أن أتمكن من المواجهة. بدأت أقود سيارتي إلى هذا المبنى، أوقفها في مكان قريب مواجه له تماماً، وأبقى مركزاً بصري عليه لمدة طويلة، لم يكن الأمر سهلاً، كنت أعاني كثيراً كي أصمد، لكني أخيراً تمكنت من الانتصار عليه، استغرق الأمر مني قرابة 6 شهور كي أتجاوز عقدة هذا المكان فقط»

يحضر نبيل الآن دورات في التأمل من أجل أن يستعيد توازنه الداخلي وهدوءه النفسي، يمارس التأمل، يقرأ الكثير من الكتب ذات العلاقة بالتفكير الإيجابي، يؤمن أنه سيهزم ما تبقى من أثر المعتقل في داخله، وأن تطلب الأمر بعض الوقت، يعمل بلا هوادة مع فريق المتطوعين في مشروعه في لجنة (رحاب) لإعادة تأهيل ضحايا العنف والتعذيب، ويعمل بلا هوادة أيضاً للدفاع عن حرية زملائه الذين لا يزالون يقضون العقوبات الجائرة داخل المعتقل «سأعمل من أجلهم وإن بقيت وحدي في النهاية، لن أعتب على أحد إن قصّر في حق زملاء المهنة، وسأبقى أعمل من أجل القضية التي أؤمن بها، وهذا يكفيني».

د.نبيل حسن تمام، مواليد 1961، خريج كلية الطب بجامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية 1984، طبيب في وزارة الصحة من 1986، زميل كلية الجراحين الملكية في إدنبرة 1995، استشاري الأنف والأذن والحنجرة من 1999، تأسيس عيادة الصوتيات من 2000 في مجمع السلمانية الطبي، حاصل على دبلوما إدارة الرعاية الصحية من دبلن 2002، عضو جمعية الأطباء البحرينية، عضو جمعية العمل الوطني الديموقراطي، والجمعية البحرينية لحقوق الإنسان، والمرصد البحريني لحقوق الإنسان، والجمعية البحرينية لمقاومة التطبيع ضد الكيان الصهيوني، والجمعية الخليجية للأنف والأذن والحنجرة، المستشار الإقليمي للأولمبياد الخاص الدولي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

ملاحق

ملحق (1)

جدول بأهم الأحداث المتعلقة بقضية الكادر الطبي

1	إحضار الشهيد علي مشيمع إلى مستشفى السلمانية مقتولاً برصاص الشوزن على يد قوات الأمن.	14 فبراير 2011
2	إحضار الشهيد فاضل المتروك إلى مستشفى السلمانية مقتولاً برصاص الشوزن علي يد قوات الأمن.	15 فبراير 2011
3	وصول المئات من الجرحى والمصابين، بينهم 4 شهداء إلى مستشفى السلمانية بعد هجوم قوات الأمن على الدوار فجراً.	17 فبراير 2011
4	تعرض الدكتور صادق العكري لإصابات خطيرة جراء ضربه من قبل قوات الأمن عندما كان مناوباً في الخيمة الطبية في الدوار.	17 فبراير 2011
5	اعتداء قوات الأمن على عدد من الاسعافات التي كانت ذاهبة لاحضار المصابين من الدوار.	17 فبراير 2011
6	الكادر الطبي يخرج في مسيرة منددة بالاعتداء على الطواقم الطبية ومنع خروج الاسعاف لاحضار المصابين.	17 فبراير 2011
7	الكادر الطبي ينظم اعتصاماً في باحة الطوارئ للأسباب السابقة ومطالباً باستقالة وزير الصحة.	18 فبراير 2011
8	وصول عدد كبير من المصابين والجرحى، سقطوا علي يد الجيش البحريني، بينهم إصابات قاتلة بالرصاص الحي.	18 فبراير 2011
9	تعديل وزاري يخرج وزير الصحة فيصل الحمر من التشكيلة الوزارية	25 فبراير 2011
10	وصول عدد كبير من الإصابات جراء الهجوم على المعتصمين في المرفأ المالي والجامعة وانتشار البلطجية في مختلف أنحاء البحرين.	13 مارس 2011
11	وصول أعداد كبيرة من الإصابات الخطيرة بعد الهجوم على قرية سترة، وتفجير رأس الشهيد فرحان والإعتداء على الطواقم الطبية التي حاولت إسعاف المصابين.	15 مارس 2011
12	الهجوم الثاني على الدوار ومحاصرة مستشفى السلمانية من قبل الجيش والاعتداء على الطواقم الطبية أمام بوابات المستشفى وفي المراكز الصحية، ومنع الناس من الدخول أو الخروج من المستشفى.	16 مارس 2011

13	استقالة وزير الصحة نزار البحارنة من منصبه بعد عجزه عن القيام بمهامه، وقال البحارنة في تصريح لجريدة الوسط إنه يستقيل من منصبه كوزير للصحة، وذلك بعد استغاثات متكررة لمجمع السلمانية الطبي، وعلى رغم وجود الوزير لم يستطع المجمع تقديم خدماته.	16 مارس 2011
14	اعتقال د. علي العكري ود. محمود أصغر من مستشفى السلمانية الطبي	17 مارس 2011
15	اعتقال كل من د. ندى ضيف ود.غسان ضيف ود. باسم ضيف.	19 مارس 2011
16	تعيين فاطمة البلوشي وزيرة التنمية الاجتماعية، قائم بأعمال وزير الصحة	24 مارس 2011
17	إيقاف رواتب مجموعة من الأطباء الاستشاريين	26 مارس 2011
18	اعتقال كل من د. عبد الخالق العريبي و د. نادر ديواني	1 ابريل 2011
19	اعتقال كل من د. جليلة العالي ورولا الصفار	5 ابريل 2011
20	حل وزارة التنمية لمجلس إدارة جمعية الأطباء البحرينية الشرعي المنتخب. وتعيين مجلس إدارة مؤقت برئاسة نبيل الأنصاري وعضوية طبيبات الأسنان هالة صليبيخ وريم الفايز.	6 ابريل 2011
21	بدء التحقيقات وتوقيف كثير من الأطباء والممرضين عن العمل	7 ابريل 2011
22	اعتقال د. زهرة السماك، د. عبد الشهيد فضل، د. نبيل تمام، د.نبيل حميد، د.عارف رجب.	11 ابريل 2011
23	اعتقال د. فاطمة حاجي	17 ابريل 2011
24	اعتقال الدكتور حسن التوبلاني	29 ابريل 2011
25	فاطمة البلوشي وزيرة التنمية الاجتماعية القائم بأعمال وزير الصحة ترد على تقرير العفو الدولية حول حالات توقيف الأطباء والممرضات والمحاضرين: التحقيقات القانونية أظهرت وجود أدلة على تورطهم في أنشطة إجرامية من قبيل التحريض على العنف أو الكراهية، ورفض تقديم الخدمة الطبية لأسباب سياسية وطائفية، التزييف العمدي للمرضى والجرحى دون الأخذ في الاعتبار أوضاعهم الصحية.	26 ابريل 2011
26	إطلاق سراح د.جليلة العالي	30 ابريل 2011

27	وزيرة الصحة ووزير العدل يعقدان مؤتمراً صحافياً يؤكدان فيها امتلاك الأدلة الكافية على احتلال المعتقلين من الكادر الطبي باحتلال مستشفى السلمانية وتوسيع جروح الماصبين وقتلهم وحيازة الأسلحة واختطاف الآسيويين (قبل بدء محاكمة الكادر الطبي).	3 مايو 2011
28	إطلاق سراح الطبيبات المعتقلات: د. زهرة السماك،د. نهاد الشيراوي، نيرة سرحان،خلود الدرازي، خلود الصياد، د. ندى ضيف.	4 مايو 2011
29	إطلاق سراح د.فاطمة حاجي، واعتقال د. نجاح خليل	8 مايو 2011
30	أولى جلسات المحكمة العسكرية للكادر الطبي، القضية رقم191 لسنة2011، تم تقسيم الكادر إلى مجموعتين قضية جنح وقضية جنايات.	6 يونيو 2011
31	هاجمت مجموعة من أطباء جمعية الأطباء بقيادة نبيل الأنصاري، المؤتمر الصحفي الذي عقده الوفد الإيرلندي في قاعة فندق راماد يوم 14 يوليو/ تموز. ويضم الوفد الإيرلندي أعضاء بارزين، منهم عضو البرلمان الأوروبي ماريان هاركين، والوزير السابقه للشئون الخارجية ديفيد اندروز، وعضو مجلس الشيوخ فيانا فيل، وجراح العظام البروفيسور ماكورماك داميان، ونائب مدير منظمة فرونت لاين لحقوق الإنسان في دبلن أندرو أندرسون.	14يوليو2011
32	أرسل الوفد الايرلندي الطبي رسالة خطية شديدة اللهجة إلى ملك البحرين، ووزير الخارجية والجهات المعنية، ووصف الوفد في الرسالة رئيس جمعية الأطباء المعين نبيل الأنصاري بأنه عار على البحرين تعينيه رئيسا لجمعية الأطباء التي تحمل سمعة طيبة منذ إنشائها قبل أكثر من ربع قرن.	21 يوليو2011
33	التقاء السيد محمود بسيوني برولى الصفار ووعدها بالإفراج	20 أغسطس 2011
34	الإفراج عن رولا الصفار	21 أغسطس 2011
35	التقاء السيد محمود بسيوني بالكادر الطبي المتبقي في السجن	23 أغسطس 2011
36	اخلاء سبيل عدد من معتقلي الكادر الطبي من الرجال	7 سبتمبر 2011
37	محكمة السلامة الوطنية تدين جميع الكادر الطبي وتحكم بالسجن عليهم بعقوبات تتراوح بين 5-15 سنة سجن.	29 سبتمبر 2011

38	دعاء مدير منظمة أطباء لأجل حقوق الإنسان ريتشارد سولوم، إلى إلغاء محاكمة الكادر الطبي وعبر عن استغرابه من أن هناك 4 أشخاص من الكادر الطبي)الإداري في مستشفى المحرق يونس عاشوري، والصيدلاني أحمد المشتت، والطبيب حسن العرادي، والممرض حسن معتوق(، ممن ليسوا ضمن الـ 48 من أفراد الكادر الطبي المتهمين بقضايا جنائية وجنح، على رغم أنهم تمت محاكمتهم، بتهم شبيهة.	16إبريل2012
39	عقد محامو الكادر الطبي مؤتمرا صحافيا في مقر الجمعية البحرينية لحقوق الإنسان في العدلية، قالوا فيه: هناك ضغوطاً وتدخلات من بعض الجهات الحكومية لتسريع وتيرة محاكمة الكادر الطبي بهدف التأثير على العدالة والانتهاء من هذا الملف. وقال المحامي حسن رضي إلى أن الحديث عن هذه القضية أصعب من تعقيدات القضية ذاتها، رغم انه ليست هناك قضية أصلاً بالمعنى القانوني... هناك اتهام وإدانة بأشياء لم تحدث وجّهتها النيابة العسكرية للأطباء ثم تمسكت بها النيابة العامة وهي متعلقة باحتلال مبنى عمومي.	24إبريل2012
40	محكمة الاستئناف تدين 9 أطباء وتبرئ 9 وتؤيد الحكم على 2 من الكادر الطبي	14 يونيو 2012
41	محكمة التمييز تؤيد حكم محكمة الاستئناف في قضية الأطباء	1 أكتوبر 2012
42	القبض على الأطباء المحكومين.	2 أكتوبر 2012
43	مجلس إدارة جمعية الأطباء غير الشرعي يسحب عضوية عدد من الأطباء المدانين.	2 أكتوبر 2012
44	عدد من الأطباء يعلنون استقالتهم الجماعية من جمعية الأطباء غير الشرعية.	5 أكتوبر 2012
45	الحكم على مجموعة الجنح من الكادر الطبي بالسجن 3 شهور	21 نوفمبر 2012
46	الخدمة المدنية تحقق مع 4 أطباء تم تبرئتهم من الكادر الطبي.	29 نوفمبر 2012

ملحق (2)

الأحكام الصادرة ضدّ الكادر الطبي من المحكمة العسكرية ومن محكمة الاستئناف

الدكتور علي عيسى منصور العكري استشاري جراحة عظام الأطفال

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف 5 سنوات

التهم التي وجهت إليه:

1. حاز بغير ترخيص من الجهة المختصة وأخفى سلاحين ناريين (بندقيتين آليتين كلاشنكوف) وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي.
2. حاز بغير ترخيص وأخفى ذخائر مما تستعمل في السلاحين المبينين بالوصف السابق بغير أن يكون مرخصا لهما في حيازتهما وكان ذلك لغرض إرهابي.
3. حاز وأخفى أسلحة بيضاء دون أن يكون هناك مسوغ لحملها من ضرورة شخصية أو حرفية وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي.
4. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به وأجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
5. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
6. بصفتهم موظفين عموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولى بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو المبين بالأوراق.
7. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
8. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
9. حرّض مع آخرين بطرق العلانية وفي مكان عام على بغض طائفة من الناس وعلى الازدراء بها

على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.

10. بصفته موظفا عموميا بمجمع السلمانية الطبي استغل مع آخرين سلطة وظيفته في تعطيل تنفيذ أحكام القوانين و اللوائح و القرارات و الأوامر الحكومية على النحو المبين بالأوراق.

11. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.

12. بصفته من العاملين بمجال الطب والإسعاف امتنع مع آخرين بدون عذر عن إغاثة المرضى والمصابين الذين استنجدوا بهم لعلاجهم على النحو المبين بالأوراق.

13. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها على النحو المبين بالأوراق.

إبراهيم الدمستاني - ممرض

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف 3 سنوات

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بأن هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
4. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
5. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها على النحو المبين بالأوراق.

الدكتور غسان أحمد ضيف استشاري جراحة الفم والوجه والفكين

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف سنة واحدة

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. حجز بغير وجه حق قانوني وبالقوة والتهديد المجني عليهم المبينة أسماؤهم بالتحقيقات حال كون بعضهم موظفا عموميا من أفراد الشرطة وبسبب وظيفتهم وقد ارتكبت تلك الجريمة تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين.
4. بصفته من الموظفين العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولى بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو المبين بالأوراق.
5. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
6. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
7. حرّض مع آخرين بطرق العلانية وفي مكان عام على بغض طائفة من الناس وعلى الازدراء بها على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
8. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
9. بصفته من العاملين بمجال الطب والإسعاف امتنع مع آخرين بدون عذر عن إغاثة المرضى والمصابين الذين استنجدوا بهم لعلاجهم على النحو المبين بالأوراق.
10. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة

فور علمهم بها على النحو المبين بالأوراق.

الدكتور سعيد السماهيجي أخصائي طب وجراحة العيون

حكمت عليه المحكمة العسكرية 10 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف سنة واحدة

التهم التي وجهت إليه:

1. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
2. حجز بغير وجه حق قانوني وبالقوة والتهديد المجني عليهم المبينة أسماؤهم بالتحقيقات حال كون بعضهم موظفا عموميا من أفراد الشرطة وبسبب وظيفتهم وقد ارتكبت تلك الجريمة تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين.
3. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
4. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
5. حرّض مع آخرين بطرق العلانية وفي مكان عام على بغض طائفة من الناس وعلى الازدراء بها على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
6. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
7. بصفته من العاملين بمجال الطب والإسعاف امتنع مع آخرين بدون عذر عن إغاثة المرضى والمصابين الذين استنجدوا بهم لعلاجهم.
8. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها على النحو المبين بالأوراق.

الدكتور محمود أصغر استشاري جراحة الأطفال

حكمت عليه المحكمة العسكرية 10 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف 6 أشهر

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته.
2. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
3. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
4. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
5. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها على النحو المبين بالأوراق.

ضياء ابراهيم جعفر ممرضة عناية مركزة

حكمت عليها المحكمة العسكرية 5 سنوات

حكمت عليها محكمة الاستئناف شهرين

التهم التي وجهت إليها:

1. بصفتها من الموظفين العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولت بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو المبين بالأوراق.
2. حرّضت مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
3. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعت ونظّمت وشاركت في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك
4. أتلفت عمدا المنقولات المملوكة لمجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وقد ارتكبت تلك

الجريمة تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين.

الدكتور باسم أحمد ضيف استشاري جراحة عظام

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف شهراً واحداً

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
4. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
5. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
6. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها على النحو المبين بالأوراق.

الدكتور عبد الخالق العريبي أخصائي أمراض الروماتيزم

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف شهرًا واحدًا

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة

وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.

2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
4. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
5. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
6. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها على النحو المبين بالأوراق.
7. بصفته من الموظفين العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولى بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو المبين بالأوراق.
8. بصفته من العاملين بمجال الطب والإسعاف امتنع مع آخرين بدون عذر عن إغاثة المرضى والمصابين الذين استنجدوا بهم لعلاجهم.

الدكتور نادر ديواني استشاري أطفال خدج

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف شهرًا واحدًا

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.

2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
4. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
5. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
6. حرّض مع آخرين علانية العاملين بمجمع السلمانية الطبي على عدم الانقياد للقوانين وحسنوا إليهم جريمة الامتناع عن العمل على خلاف مقتضى القانون مع علمه بذلك.
7. حرّض مع آخرين بطرق العلانية وفي مكان عام على بغض طائفة من الناس وعلى الازدراء بها على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
8. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها.

الدكتور أحمد عبد العزيز عمران استشاري طب عائلة

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق

الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.

4. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.

5. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.

6. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها.

السيد مرهون ماجد الوداعي مسؤول الإسعاف ومسعف

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليه محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
4. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
5. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
6. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة

فور علمهم بها.

الدكتور حسن محمد سعيد استشاري عناية مركزة

حكمت عليه المحكمة العسكرية 10 سنوات

حكمت عليه محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليه:

1. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
2. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
3. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك
4. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها.

محمد فائق علي آل شهاب رئيس بنك الدم

حكمت عليه المحكمة العسكرية 5 سنوات

حكمت عليه محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليه:

1. بصفته من الموظفون العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولي بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو المبين بالأوراق. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
2. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك

الدكتورة زهرة مهدي السماك استشارية تخدير وعناية مركزة

حكمت عليها المحكمة العسكرية 5 سنوات

حكمت عليها محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليها:

1. 1- بصفتها من الموظفين العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولت بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو المبين بالأوراق.
   حرّضت مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
2. - اشتركت في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعت ونظّمت وشاركت في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك
3. حرّضت مع آخرين علانية العاملين بمجمع السلمانية الطبي على عدم الانقياد للقوانين وحسنوا إليهم جريمة الامتناع عن العمل على خلاف مقتضى القانون مع علمها بذلك.

رولى جاسم الصفار أستاذة مساعدة كلية العلوم الصحية

حكمت عليها المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليها محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليها:

1. حاولت مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
2. روَّجت لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. أذاعت مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
4. حرّضت مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء

الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.

5. - اشتركت في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعت ونظّمت وشاركت في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.

6. حرّضت مع آخرين علانية العاملين بمجمع السلمانية الطبي على عدم الانقياد للقوانين وحسنوا إليهم جريمة الامتناع عن العمل على خلاف مقتضى القانون مع علمه بذلك

7. بصفتها من الموظفن العمومين بمجمع السلمانية الطبي استغلت مع آخرين سلطة وظيفتهم في تعطيل تنفيذ أحكام القوانين و اللوائح والقرارات و الأوامر الحكومية على النحو المبين بالأوراق.

8. بصفتها من الموظفين العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولت بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو

9. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها.المبين بالأوراق

الدكتورة ندى سعيد ضيف طبيبة أسنان

حكمت عليها المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليها محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليها:

1. حاولت مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.

2. روَّجت لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.

3. أذاعت مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.

4. حرّضت مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء

الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.

5. اشتركت في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
6. دعت ونظّمت وشاركت في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
7. علمت مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها.المبين بالأوراق.

الدكتورة فاطمة سلمان حسن حاجي أخصائية روماتيزم

حكمت عليها المحكمة العسكرية 15 سنة

حكمت عليها محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليها:

1. أذاعت مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو – حرّضوالمبين بالأوراق.
2. حرّضت مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
3. – اشتركت في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام. – دعت ونظّمت وشاركت في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
4. بصفتها من الموظفين العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولت بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو

الدكتورة نجاح خليل ابراهيم استشارية طب عائلة

حكمت عليها المحكمة العسكرية 5 سنوات

حكمت عليها محكمة الاستئناف براءة

التهم التي وجهت إليها:

1. حرّضت مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
2. – اشتركت في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب

جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعت ونظّمت وشاركت في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.

3. بصفتها من الموظفين العموميين (أطباء و ممرضين و إداريين بوزارة الصحة) استولت بغير حق على الأدوية والمعدات الطبية المبينة وصفا وقيمة بالأوراق و المملوكة لوزارة الصحة وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي قصدا منه ترويع الآمنين على النحو

الدكتور قاسم محمد عمران استشاري عناية مركزة

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة

لم تقبل محكمة الاستئناف الطعن في حكم

التهم التي وجهت إليه:

1. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
2. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين بالأوراق.
3. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
4. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
5. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
- دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
6. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذا لغرض إرهابي ولم يبلغوا السلطة العامة فور علمهم بها. المبين بالأوراق

علي حسن الصددي عامل في مطبخ مستشفى السلمانية

حكمت عليه المحكمة العسكرية 15 سنة غيابياً

لم تقبل محكمة الاستئناف الطعن في حكم

التهم التي وجهت إليه:

1. حاز بغير ترخيص من الجهة المختصة وأخفى سلاحين ناريين (بندقيتين آليتين كلاشنكوف) وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي.
2. حاز بغير ترخيص وأخفى ذخائر مما تستعمل في السلاحين المبينين بالوصف السابق بغير أن يكون مرخصا لهما في حيازتهما وكان ذلك لغرض إرهابي.
3. حاز وأخفى أسلحة بيضاء دون أن يكون هناك مسوغا لحملها من ضرورة شخصية أو حرفية وكان ذلك تنفيذا لغرض إرهابي.
4. حاول مع آخرين بالقوة احتلال مبنى عام بان هيمنوا على مجمع السلمانية الطبي التابع لوزارة الصحة وتحكموا في مداخله ومخارجه وسيطروا على جميع أقسامه وإدارته المهمة وفرضوا سيطرتهم على العاملين به واجبروهم على الانصياع لأوامرهم وكان ذلك تحت وطأة القوة والتهديد متآزرين في ذلك بأعداد غفيرة من المتجمهرين المسلحين فيما حاز بعضهم أسلحة نارية وبيضاء لإحكام هيمنتهم على المبنى على النحو المبين تفصيلا بالتحقيقات.
5. روَّج لقلب وتغيير النظام السياسي في الدولة بالقوة وبوسائل غير مشروعة وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب في تجمعات ومسيرات ونشر بيانات على النحو المبين ب
6. أذاع مع آخرين عمدا أخبارا وبيانات كاذبة ومغرضة بشأن عدد المصابين ونوعية إصاباتهم مع علمهم بكذبها وكان من شأن ذلك اضطراب الأمن العام وإلقاء الرعب بين الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة على النحو المبين بالأوراق.
7. حرّض مع آخرين علانية على كراهية نظام الحكم والازدراء به وكان ذلك قولا وكتابة بإلقاء الخطب ورفع اللافتات والنشر عبر المواقع الإلكترونية.
8. - اشترك في تجمهرات مؤلفة من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منها ارتكاب جرائم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة والإخلال بالأمن العام.
   - دعا ونظّم وشارك في مسيرات دون إخطار الجهة المختصة بذلك.
9. علم مع آخرين بوقوع جنايات وجنح مرتكبة تنفيذاالأوراق